وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

المشروع الوطني للترجمة
الرواية العالمية

الجزيرة الأخيرة

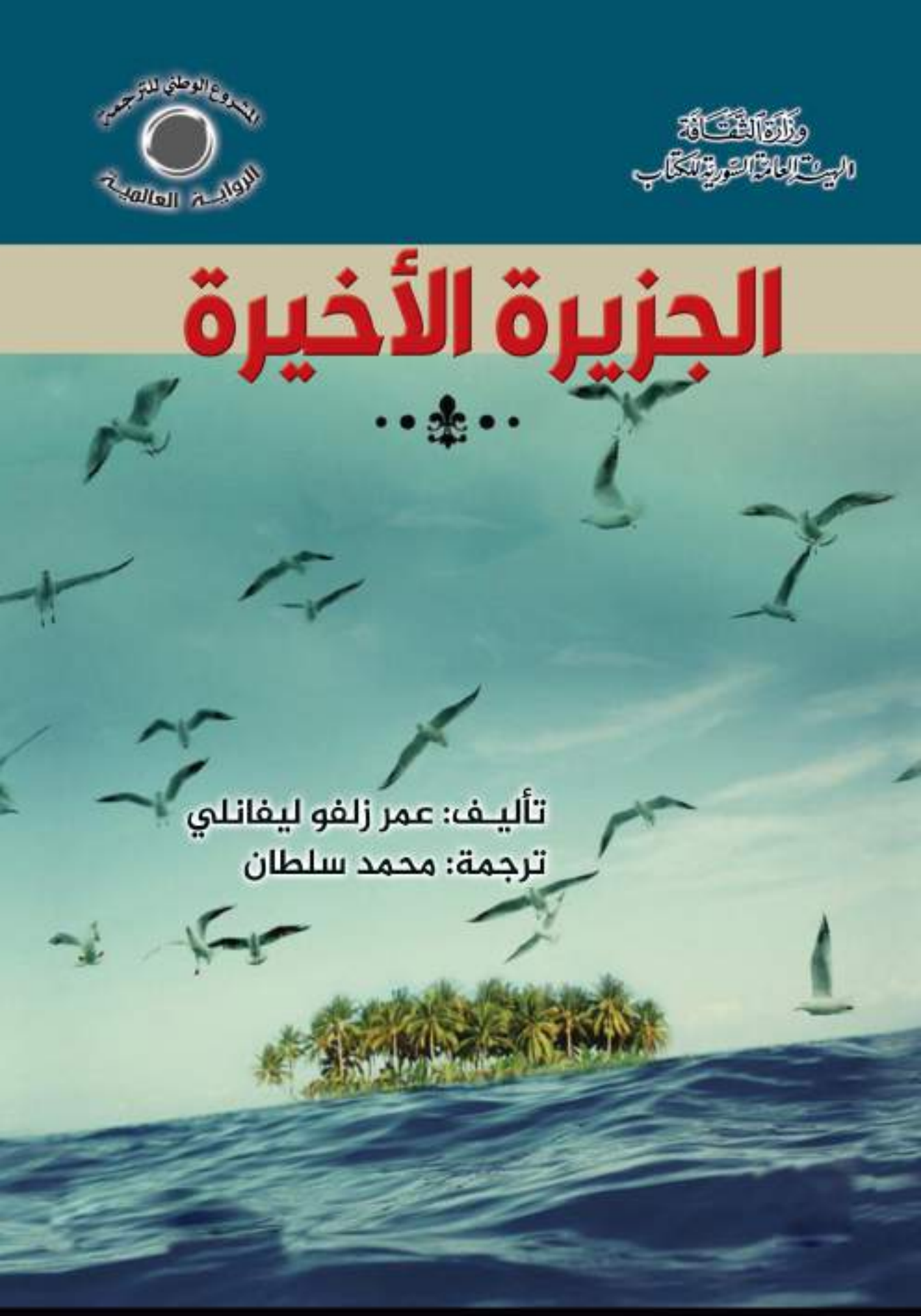

تأليف: عمر زلفو ليفانلي
ترجمة: محمد سلطان

الجزيرة الأخيرة

تصميم الغلاف
عبد العزيز محمد

الجزيرة الأخيرة

تأليف: عمر زلفو ليفانلي

ترجمة: محمد سلطان

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠٢٤م

العنوان الأصلي للكتاب:

son ada

الكاتب: Ömer Zelvo Lifanlı

الناشر: Remzi Kitabevi,2008

المترجم: محمد سلطان

الآراء والمواقف الواردة في الكتاب هي آراءُ المؤلِّفِ ومواقِفُهُ ولا تعبِّر **(بالضرورة)** عن آراء الهيئة العامة السورية للكتاب ومواقفها.

الجزيرة الأخيرة / تأليف عمر زلفو ليفانلي ؛ ترجمة محمد سلطان .- دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠٢٤م .- ١٦٠ص؛ ٢٥سم.
(المشروع الوطني للترجمة. الرواية العالمية).

١- ٨٩٣,٣٥ ل ي ف ج ٢- العنوان ٣- ليفانلي ٤- سلطان
٥- السلسلة

مكتبة الأسد

ما زال دمي ينزف مالحاً

من المكان الذي مزقه المحار

أورهان ولي

- ١ -

كنا نعيش بطمأنينة على جنة الأرض التي كنا نسميها "أكثر الأسرار صوناً"، حتى ظهر وأتانا في أحد الأيام.

لا أعلم كيف يمكن الحديث عن هذه الجنة، وحتى كيف لي إبداء الجرأة للحديث عنها. أعلم أني إذا قمت بالحديث عن غابات الصنوبر في هذه الجزيرة الصغيرة، وعن بحرها ناصع الزرقة والشفافية مثل الأحواض الطبيعية، وعن خلجانها الجميلة التي يمكن رؤية الأسماك الملونة في ثناياها، وعن نوارسها البيضاء التي تطير باستمرار كأرواح بيضاء، لن أتمكن سوى أن أجعل منظراً جديراً بالبطاقات البريدية السياحية يتراءى أمام أعينكم.

كانت عبارة عن عالم بحد ذاته مكتف بنفسه بأربعين منزلاً قابعاً بين الأشجار بعيداً كل البعد عن جميع أراضي البر الرئيسية معانقاً المناخ الملائم نفسه صيفاً شتاءً، ومنتشرةً في لياليه روائح الياسمين المنعشة.

وكأن هنالك سر حياة لا يمكن رؤيته بالعين المجردة في الطبيعة الهادئة لهذه الجزيرة. كيف يمكن التحدث عن ضبابها الناصع مثل بياض اللبن فوق بحارها في الصباح، وعن نسماتها العليلة التي تداعب وجه الإنسان عند ساعات المساء، وعن همسات رياحها التي تشارك صرخات النوارس؟ وعن المنظر الساحر للجزيرة الثنائية، التي تتراءى لنا عندما نفرك أعيننا عند وقت الشفق، وكأنها مطوقة بالضباب ومعلقة في الهواء؟ وعن النوارس التي تغطس في البحر وتخرج منه مصطادةً الأسماك؟ وعن الأزهار البنفسجية التي تحيط بمنازلنا؟ وعن شجر الزيزفون في المساء؟

أساساً لقد أضحينا حتى لا نعتقد أن هذه الحياة جميلة، حيث كنا نعيش بهدوء لقدر ما اعتدناها. لا يمكن للمرء اعتقاد البحر الذي يراه كل يوم أنه جميل، وأن النوارس التي تحط كل يوم على الصخرة بجانب منزله جميلة.

كما عند السير في طريق ترابي و هذا الظل الذي تشكله الأغصان المتداخلة للأشجار المحيطة بطرفي هذا الطريق، والحديث بأصوات هادئة عند المسامرات الليلية في الجنائن التي تفتحت فجأة وكأنها معجزة، كذلك همسات الحب المسموعة من بعض المنازل التي تكاد تكون مفهومة.

هذه الحالات يمكن عيشها فقط. ولكن أنا بما أني لست بكاتب جيد ومحترف، لذلك أختار الطريقة الوصفية لأشرح لكم كل شيء. في الحقيقة كان يجب على صديقي الروائي أن يقص عليكم هذه الحكاية، ولكن نهايته التي أحزنتنا جميعاً جعلت هذا الأمر مستحيل الحدوث.

من يدري كيف كان سيقدم لكم صديقي الروائي، المقرب جداً مني منذ سنوات في الجزيرة، كل هذه الأحداث بمهاراته الروائية بتطعيمها ضمن النصوص. ولكن للأسف أنتم في موقف ستدرون من خلاله ما حل بالجزيرة وما أصاب صديقي العزيز مني فقط. ولهذا السبب ستضطرون لتحمل كاتب عادي مثلي لا يفقه بتقنيات الشروح الروائية مثل ما بعد الحداثة واللا رواية والرواية المضادة والرواية الجديدة.

في الحقيقة نحن لم نكن نريد حتى في تلك الفترة أن نتحدث عن هذه الأشياء، وكنا نخفي جزيرتنا مثل السر. لأنه ليس في صالحنا أن يعرف هذا المكان في ظل تزايد جنون عالمنا. لا أدري كيف حصل أنه عن طريق المصادفة كنا أربعين عائلة وجدنا الجزيرة والتقينا فيها وقطناها. كنا نعيش بسلام، ولم يكن أحد يتدخل بشؤون أحد. أطلقتُ تسمية "الجزيرة الأخيرة" على هذا المكان بسبب حبي الكبير للصداقات التي اكتسبتها في هذه الجزيرة بعد عشرات الجروح وخيبات الأمل والآلام العميقة. نعم نعم إنها الجزيرة الأخيرة، إنها الملاذ الأخير، إنها الركن الإنساني الأخير. بسبب عدم توفر البث التلفزيوني، لم نكن نسمع الأخبار عن ما يحدث في عالمنا المجنون إلا عن طريق الجرائد التي تجلبها سفينة الركاب التي كانت تمر علينا مرة واحدة كل أسبوع. في عالمنا الهادئ هذا، كانت الأخبار التي كنا نقرؤها بأعيننا نصف المغمضة ونحن ما بين الوعي والسكر بعد وجبة الغداء المصحوبة مع النبيذ، تظهر تفاقم الجنون في العالم

الآخر. ولكن لا بد لي أن أعتراف أن ذلك لم يكن يعنينا بقدر ما تعنينا حروب الفضاء. إلى هذه الدرجة كان كل شيء بعيداً عنا.

لكن كم كنا مخطئين، لم نكن عالماً مختلفاً، بل كنا جزيرة في قلب الجنون. إذ إننا لم ندرك هذه الحقيقة حتى عندما قطن في جزيرتنا الرئيس الذي ترك الحكم مكرهاً بعد سنوات من الحكم. اعتقدنا أنه أتى بداعي الاستراحة بعد أدائه لمنصب رئاسة الدولة وكأنه يحمل العالم على كتفيه.

أعتقد أنه من المفترض أن أحدثكم قليلاً عن ماضي هذه الجزيرة الثانية. استملك رجل أعمال غني جداً هذه الجزيرة الهادئة منذ سنوات، وعندما طغى في السن جعل منها قصراً جميلاً له ليسكنها مع خدمه وحشمه. قضى آخر أيام حياته في صيد السمك والنوم في الأرجوحة الشبكية بعد الظهيرة بعيداً عن مشاكل العالم. وفي هذه الأثناء دعا عدداً من معارفه، وحضهم على إنشاء منازلهم الخاصة بسبب معاناته من الملل على ما يبدو. جاء الناس وشيدوا منازلهم ولكنها لم تكن بحجم منزله. لم يطلب الرجل من القادمين ثمن الأرض. أساساً لم تدخل مواد كثيرة من الخارج بسبب أن الاعتماد في هذه المنازل التي أنشأت كان على الطراز التعاوني مستفيدين من المواد الطبيعية لغابات الجزيرة. وأصبحت الجزيرة أربعين منزلاً من خلال إخبار الناس لمعارفهم ولأحبتهم بها.

في هذه اللحظة أوقف رجل الأعمال الغني التوافد إلى الجزيرة، ولم يسمح بإنشاء منازل أخرى. لأنه لم يكن يرغب باندثار جمال الطبيعة في الجزيرة ناهيك عن هدوئها وآلاف الأنواع من نباتاتها التي كانت تنتشر في ربوع غاباتها. عندما مات الزعيم أصبح المنزل لابنه البكر. أساساً إن هذا الزعيم الجديد الذي لم يكن له العلاقة الوطيدة بالأشغال والأعمال، فضل الاستمرار في المعيشة في هذه الجزيرة على حياة الإدارة المعقدة في وطنه الأم. ومع تقدم الزمن نسي قاطنو الجزيرة كما حال أمره أن هذه العائلة هي المالكة الأصلية لهذه الجزيرة. وبدوا وكأنهم سكان جزيرة عاديون يسكنون في بيت أكبر فقط. إن تسميتنا له بالرقم ١ ليس بسبب أنه الأبرز في هذه الجزيرة أو أنه القائد أو ملكيته للجزيرة التي نسينا أمرها منذ زمن، بل ينبع السبب وراء عادة غريبة تجري هنا. نحن هنا ننادي سكان الجزيرة بأرقام المنازل بشكل عام.

اهتدى طريق والدي المنهك، الذي عانى مجموعة من خيبات الأمل في الحياة، على هذه الجزيرة متأخراً بعض الشيء عن طريق دعوات بعض المعارف له، ويمكن الحديث عن عائلتنا بالرقم ٣٦ بسبب إيجاده الفرصة بإنشاء المنزل الخامس من الأخير على هذه الجزيرة المحدودة بأربعين منزلاً.

أما صديقي الروائي، بالرغم من أنه لم يكن يملك هنا منزلاً له ولعائلته، كان يذكر بالرقم ٧ بفضل صديقه الذي كان يحبه، والذي وهبه منزله بسبب بحثه عن ركن هادئ ليتفرغ للكتابة. كان الرقم ٧ من المنازل الأولى في الجزيرة. كان في أول الطريق الترابي الذي تغطيه الأشجار الشاهقة على شكل نفق من الظل.

تبدأ المنازل متسلسلةً على شكل ١، ٢، ٣... وحتى ٤٠ عند بداية رأس الرصيف البحري الفوضوي الذي ترسو عليه القوارب الصغيرة المحملة بالمواد آتيةً من سفينة الركاب التي تقترب من الجزيرة كل أسبوع، أو بالأحرى لا تقترب بل ترمي مرساتها في العمق لضخامة حجمها. يوجد بجانب الرصيف البحري بقال يؤمن جميع حاجياتنا كما توجد استراحة تحت العريشة يديره نفس الرجل، ويقدم فيها السمك الطازج اليومي إضافةً إلى النباتات البحرية الأخرى. إن هذا الرجل الكادح الذي أتى مع عائلته منذ عدة سنوات إلى الجزيرة، واستقر فيها، وبات جزءاً لا يتجزأ منها، نسميه اختصاراً بالبقال. لأنه لم يكن يملك رقماً. كان يعيش مع زوجته وابنه المقعد الذي نستطيع القول إنه ترعرع على أيدي سكان الجزيرة في دار صغيرة مؤلفة من غرفتين تقع خلف بقاليته.

نعم. إني أتساءل إن كنت قد قدمت المعلومات الكافية حول الجزيرة قبل البدء بقص الحكاية أم إنه بقي شيء ناقص؟

بكل تأكيد كنت أتمنى أن أروي لكم كل هذا بشكل احترافي أكثر عن طريق استخدام جمل أدبية. لا أستطيع تجاوز نفسي لشرح الموضوع إلا بطريقة بسيطة. لأنني راوٍ بسيط. كنت أحذر نفسي دائماً خلال الساعات التي أقضيها على رأس هذا الدفتر بالقول: "افعل كما يفعل الكتاب الحضاريون، حاول أن تنشأ أساساً تبرز فيه أهمية طريقة القص أكثر من أهمية ما يقص. حاول أن تكون شجاعاً".

ولكن لا أعير الاهتمام كثيراً بهذه الأمور. غايتي ليست إبراز كفاءتي بل قص حكايتنا. في هذه الكلمات أكون قد لجأت أنا أيضاً إلى هذه الطريقة وتسببت بمقاطعة القصة. ولكن أعدكم من الآن فصاعداً سأقول كل ما أريد روايته بشكل مباشر ولن أضايقكم.

يوجد شخص آخر يجب أن أتكلم عليه لاستكمال تفاصيل الحياة اليومية على الجزيرة. أهم جيراننا، السكان الأصليون للجزيرة الذين قطنوا فيها وتزوجوا واستقروا فيها قبل أن نأتي نحن عليها بآلاف السنين. أي النوارس. لا يوجد إمكانية للحديث عن الجزيرة دون التأكيد على النوارس. النوارس التي نعلمم أنها تملك ألسنة من خلال الأصوات والترددات التي تصدرها عندما تغوص في وسط البحر بصرخاتها المتوحشة، فتخرج منه جالبةً إلى اليابسة وأحاسيس النصر تعتريها السمك الذي تصطاده من عمق شبر أو شبرين. النوارس التي لم يزعجها قط أحد من أصحاب الشواطئ الصخرية من سكان الجزيرة التي تضع بيوضها في تلك الصخور وعلى رأسها الأم والأب لا تفارق عيونهم خط الأفق مترقبين إمكانية مجيء عدو محتمل مرابطين بوضعية تملؤها التهديدات. النوارس التي تتمشى في بعض الليالي على تراسات الحجرية منازلنا الحجرية مصدرةً أصواتاً تشبه وقع خطوات رجل ضخم.

كنا تقريباً قد تعلمنا اللغة التي يتكلمون بها فيما بينهم بسبب اندماجنا الكبير بتلك الظلال البيضاء. كنا نفهم متى كانوا يغضبون ومتى كانوا يحذرون بعضهم، ومتى كانوا يصدرون أصواتاً تدل على الحب، ومتى كانوا يوبخون صغارهم.

أذكى عمل قد قام به أوائل من أتوا إلى الجزيرة هو عدم إخافة النوارس وعدم تهديد حياتها. على ما يبدو أنها قامت النوارس بترقب بحذر هؤلاء المخلوقات الغريبة التي تطأ أقدامها الجزيرة لأول مرة مطبقةً نوع من الاختبار دام لعدة أعوام لمعرفة إن كان سيبدر منهم أيّ مكروه على بيوضهم وعلى صغارهم. وفي النهاية تشكل انسجام بين البشر والنوارس. عُقدت اتفاقية صامتة بين هذه الطيور البرية والناس المنزوية الهاربة من الحياة على عدم اختلاط مجالات حياتهم بعضها ببعض.

تغيرت هذه الاتفاقية إلى الأبد مع مبيع أحد المنازل. حتى ذلك اليوم لم يبع أي منزل في الجزيرة. لأنه كان يفضل أصحابها العيش فيها أو إرسال أحد أقاربهم إليها. ولكن عندما تعرض عمنا العجوز الساكن في المنزل ٢٤ أحد الأيام إلى سكتة قلبية، ولم يستطع صديقنا الطبيب الذي يسكن في الرقم ١٨ والذي كان يسكّن جميع أنواع آلامنا بعناية كبيرة، من إبقائه على قيد الحياة، قام ابن المرحوم الساكن في العاصمة بعرض المنزل للبيع.

لم نعرف ذلك نحن من خلال هذا الابن العاق الذي لم يأتِ حتى على دفن والده في مقبرة الجزيرة، بل من خلال زاوية الإعلانات العقارية في الصحيفة. أدى هذا الموقف لحدوث واحدة من أكبر موجات الهيجان في الجزيرة. قام الجميع بالتفوه بما جاء على لسانهم بما يخص هذا الابن العاق الذي عرض المنزل للبيع ليحظى بمزيد من الاستمتاع في ملاهي العاصمة، ويكون بذلك قد ألحق العار بمسموعية والده المرموقة. رغم أنه كان الرقم ٢٤ من أكثر الناس التي كننا لها الاحترام في جزيرتنا. كننا نحن الجيل الثاني الممتد من عمر الثلاثين حتى الأربعين الاحترام الكبير للمرحوم. جاء الرقم ٢٤، وسكن في الجزيرة بدعوة من صاحب الجزيرة لمعرفته به حيث كان معروف خلال فترة حياته المهنية بأكثر المحامين شهرة ووقاراً في البلاد.

كنا لارا وأنا من بين الذين جاؤوا متأخرين إلى الجزيرة. سأحكي لكم من تكون لارا هذه بعد قليل لعدم نجاحي من نطق اسمها بسبب لغصة قلبي.

في الأيام الأولى عندما كنت أحاول معرفة من يكون كل شخص والتعرف عليهم، كان يذكر الرقم ٢٤ أي السيد المحامي باحترام شديد، ويقال لي إنني عندما أتعرف عليه سأتأثر كثيراً. وكنت أسحب حبل التعارف هذا، ولكن ترددت في إخراج السيد المحامي عن نظام حياته المستقرة لتجنب إزعاجه. وبذلك أمكنني التعرف إلى هذا الرجل المسكين الذي قل ما يخرج من منزله، بعد شهر كامل منذ بداية مجيئي إلى الجزيرة. وتم ذلك بطريقة غريبة أيضاً.

في أحد الأيام حيث بدايات مجيئي إلى الجزيرة بينما كنا نسبح في البحر أنا وصديقي الكاتب وأوشكنا أن نعود إلى الشاطئ، رأينا الرقم ٢٤ يسبح في الأمام قليلاً. فنادى

صديقي فجأة أنني صديقه الذي يريد أن يعرفه بي. فبدأنا كلانا السباحة باتجاه السيد المحامي، وهو يجدف باتجاهنا.

وفجأة بدأنا نتبادل في وسط البحر في ذلك الوضع الغريب مصطلحات التعارف المؤدبة مثل "تشرفت بك يا سيدي، أساساً أردت تعرفك منذ زمن، هذا يشرفني" التي لا يمكن أن تحمل معنى إلا في البر وبحالة غير عارية. لأن السيد المحامي الذي ينتمي إلى الجيل القديم كان يتفوه بهذه الكلمات البالغة الاحترام بصوته الغليظ الذي يوقظ مشاعر الاحترام لدى المرء. وأنا كنت أحاول الرد بالأسلوب نفسه.

وفي تلك الأثناء حدثت حالة مشؤومة. وجدنا أنفسنا فجأةً في وسط قمامة من الخضروات التي من يدري من أي سفينة رميت في وسط البحر، وكانت توشك أن ترمي بها الأمواج على الشاطئ. التصقت قشرة خيار على فمي. عندما كنت أحاول انتزاعها عن فمي، حاولتأن أتجنب ابتلاع الماء من جهة، وأن أكرر عبارات اللطافة من جهة أخرى. كما التصقت على جبين السيد المحامي قطعة طماطم مهروسة. وبذلك عشنا حالة تعارف بالغة الاحترام، إذ كنا نحاول السباحة من جهة وتنظيف الخضار من على فمنا ووجهنا من جهة أخرى.

لاحقاً عندما كنا نخوض مسامرات غريبة في التراسات المظللة وفي الليالي العطرة، كنا نتذكر دائماً حفل لقائنا الغريب والمضحك لنضحك معاً. حتى إن صديقي الكاتب قال إنه سيؤلف حكايةً بناءً على هذا اللقاء الغريب، وكان في هذه الأثناء يكرر باستمرار عبارات محترمة ومنمقة، وهو يحاول انتزاع قطعة باذنجان وهمية من فوق عينه.

ولكنه لم يحقق حلمه نتيجةً للأحداث التي سأرويها الآن. وبات تلخيص هذه الحكاية يقع على عاتقي أنا الذي أعد لا شيء مقارنةً به. رغم أن المحامي لم يحدثنا أبداً، ولكني أعتقد أنه كان يحز في نفسه عدم اتصال ابنه العاق الذي كان بعمرنا تقريباً والسؤال عنه. كان يجد فينا أنا والكاتب ما يعوضه نوعاً ما عن ولده ويخفف شوقه له.

قال لي في ظهيرة أحد الأيام قبل وفاته بثلاثة، أربعة أيام إذ كانت الشمس في أوجها أنه سيبدأ بالركض. كان يقول: "قد زاد وزني كثيراً". "هذا الوضع خطير جداً.

قريباً سوف أعاني عندما أتحرك. ولكن انظر إلى النوارس العجوزة، هل تتخلى عن الطيران؟ دائماً ما يطيرون في السماء. يغوصون باستمرار في البحر ويجدون الطعام. يجب على البشر أن تأخذ هذه المخلوقات الذكية قدوة. وأنا سأركض كل يوم".

حاولت تحذيره من مخاطر هذا الإلهام الذي أتاه فجأة، وقلت له بأسلوب واثق: "على الأقل تمشى ولا تركض". فرد عليّ ضاحكاً: "بقولي سأركض، كنت أقصد المشي السريع، وإلا كيف لي أن أركض بعد هذا العمر".

بعد عدة أيام وعند ساعات الشفق وجد الرجل المسكين مستلقياً على طريق ذي أشجار كثيفة. كان فاقداً للوعي. قال الطبيب الذي لم ينجح من إنقاذ حياة المحامي، إن قلبه لم يتحمل رتم المشي السريع.

كنا نطبق إحدى الطريقتين عندما تحدث وفاة في الجزيرة. كنا إما ندفن الجسد في تلة ذات إطلالة كنا قد أعددناها كمقبرة في الجزيرة، أو نرسله إلى بلده بواسطة سفينة الركاب التي كانت تأتينا مرة كل أسبوع. ولكن لم تكن فكرة إرساله إلى بلاده فكرة عملية بسبب الحاجة إلى إبقائه في الثلج حتى مجيء سفينة الركاب وأثناء رحلته الثانية أيضاً. من خلال بعض التسهيلات التي أمنها المحامي المتوفي -بات يذكر هكذا في الجزيرة - منذ سنوات، كنا قد بلغنا وبدأنا بمعاملة الوفاة في دائرة النفوس في العاصمة. أي لم نكن نقوم بأعمال غير شرعية في هذه الجزيرة المنسية. كانت جزيرتنا منطقة سكنية صغيرة لدرجة أن ليس في إمكانها استيعاب إداري مفرز من قبل العاصمة. كانوا قد تناسونا.

آه لهذا النسيان، لهذا التخلي... آه لهذه الوحدة!

يا لها من مصطلحات ثمينة هذه. كم هي مهمة من أجل حياتنا الحمولة هذه. عند كتابتي لهذه السطور، أذكر تلك الأيام القديمة وداخلي رغبة بإقامة مآتم على هذه الجنّة التي فقدناها.

بينما كنا نتذكر كيف للمنزل ٢٤ أن يترك وحيداً مع قدره في وسط الأعشاب المتسلقة التي كانت تحيط به بالأساس من كل جهة، وأن غطائاً نباتاً مؤلماً أخضر اللون

سوف يمتد إلى وسط المنزل مع مرور الزمن ليلتهمه، صدمنا فجأةً عندما أخبرنا أحد جيراننا المتشوقين لقراءة الصحف حتى صفحة الوفيات أن البيت ٢٤ سيعرض للبيع. منحت جزيرتنا مكانة للمديح في الصحيفة تحت عنوان "منزل للبيع في جزيرة جنة الأرض". كان إعلان البيع هذا بمنزلة إفشاء للمجتمع الصغير الذي كنا نحافظ عليه، وخرق حرمتنا وقوض استقرارنا. ولهذا السبب خرج من بيننا من اقترح أن نجمع النقود فيما بيننا لنشتري المنزل ٢٤. ولكن نحن الذين كنا منخرطين في رخاء الحياة في الجزيرة لم نتخذ ونطبق هذا القرار الضروري. لفقدنا اهتمامنا بالأمور الدنيوية. لم يكن في حياتنا زحمة سير ولا بيروقراطية ولا ضرائب ولا ملء استمارات ولا بنوك... كنا نلبس سروالاً قصيراً قديماً في الصباح، ونخرج من المنزل لنلتقي مع الأصدقاء، ونتبادل الأحاديث، ونحتسي القهوة، وأحياناً ندخل للسباحة، وأحياناً أخرى نصطاد السمك. كنا نعيش دون عجلة من أمرنا كماء يجري بثقل. كانت الجزيرة قد خدرتنا.

في أحد الأيام رأينا سفينة مسرعة تشق البحر وتتجه نحونا. كانت السفينة تشبه زورق هجوم مطاطياً. جاءت مقتربة من الرصيف البحري للجزيرة. نزل منها أناس بهيئة وبذات رسمية ونظارات سوداء وأجهزة لاسلكي. بعد تحدثهم لوقت مع البقال أخذوه متجهين إلى المنزل رقم ٢٤. بقوا في الداخل ما يقارب الساعة. قام أحدهم بالتقاط عدة صور للمنزل بواسطة آلة تصوير كبيرة يحملها بيده. ومن ثم جالوا الجزيرة، وركبوا الزورق المطاطي ثانيةً ورحلوا.

دون تسليم وتصبيح علينا. قال لنا البقال الذي تجمّعنا حوله بتشوق بعد أن غادروا، إنهم يعرفون أسماءنا جميعاً. بات واضحاً جداً أن شخصية هامة ستأتي إلى جزيرتنا. شخص من المستوى الرفيع ذو علاقات مع الدولة، أي كما نقول فيما بيننا "شخص من الرؤوس الكبيرة". ولكن حتى أوسع أصدقائنا خيالاً -حيث كان الكاتب- لم يتوقع أنه سيأتي الذي على رأس القمة.

ثم في أحد الأيام جاء "هو". وبذلك تغير تاريخ جزيرتنا ومصيرنا إلى الأبد.

- ٢ -

اجتمع أغلبنا بحيرة كبيرة في الميناء عندما أتت سفينة الركاب البيضاء الكبيرة كعادتها صباحاً أحد أيام الأربعاء. هذه الحيرة لم تكن حول الشخص القادم. بسبب أنه خلال المدة الماضية قدم بعض العمال خلال عدة أسابيع، جددوا طلاء المنزل الداخلي والخارجي، وأصلحوا الحديقة، وبدلوا بعض الزجاج المكسور، وقاموا بصنفرة وتلميع أخشاب الدرابزين. جعلوا المنزل براقاً حتى غدا غريباً عنا.

وعلى رأس هؤلاء الأشخاص شخص ذو لباس جيد. كان يراقب هذا الرجل، الذي لا يمكنه إخفاء أنه عسكرياً لاعتنائه الفائق باللباس المدني، العمال باستمرار. رغم ذلك بتنا نعرف من الشخص الذي سيأتي. فبالنهاية العمال بشر، وقد زلقت عدة كلمات من أفواههم.

سيشرف جزيرتنا رئيس الدولة الذي أقيل من قبل لجنة مجلس الثورة والذي سقط من الأعين بعد فترة حكم بقبضة حديدية دامت عدة سنين. هذا الخبر كان بمنزلة صدمة بالنسبة لنا جميعاً. لماذا يأتي إلى هنا؟ ما عمله هنا؟ ماذا يمكن لشخص معتاد الفخفخة والمراسم والرقي أن يجد في هذه الجزيرة؟

والأسوأ من ذلك أن جزيرتنا ستصبح هدفاً بسبب ما لديه من أعداء بقدر ما لديه من أصدقاء في البلاد. في إحدى المرات نجا بأعجوبة من عملية تفجير قنبلة "سي فور" زرعت على الطريق الذي تمر فيه سيارته المضادة للرصاص، ونجا مرتين من رصاصات الاغتيال.

أذكر حين تحدثنا مرةً طيلة الليل مع صديقي الكاتب، وتشاركنا ارتباكنا قبل مجيء الرئيس. في الحقيقة لم أكن سوداوياً بقدر ما كان هو. لم أجد أن مجيء الرئيس إلى هنا ليقضي حياة تقاعدية هادئة بأنه أمر خارج عن المألوف. من يدري، لربما كان مستاءً من الحفلات والأزمات الحكومية والصحافة، وأراد أن يريح قلبه المتعب لينعم بحياة

بسيطة من خلال لجوئه إلى جزيرتنا. وربما كان أبرز أسباب اختياره للجزيرة هو الأمان. إذ كيف لأحد ما أن يقترب من جزيرة صغيرة لينفذ عملية اغتيال دون أن نراه.

أما صديقي الكاتب فقد اعتقد أني ساذج جداً. بسبب عدم اهتمامي الكبير في السياسة، اعتقدت أنه يبالغ في الأمر، وأن نية الرئيس كانت جيدة عندما "استولى ورفاقه على الحكم لتخليص البلاد من حرب داخلية" كما كانوا يصرحون دائماً. بالرغم من مخاوفهم من تزعزع السكينة في الجزيرة، شاركني الكثير من جيراني الاعتقاد وصرحوا بوجوب تقديم الاحترام اللازم للرئيس. رأينا عند اجتماعنا على الرصيف البحري كيف نقلت الحقائب وبعض الأشياء من سفينة الركاب إلى القارب أولاً. جاء القارب محملاً مع حاجاتنا الأسبوعية أيضاً. بدأ ثلاثة أشخاص كانوا قد ترجلوا من القارب بنقل الحقائب والصناديق إلى المنزل رقم ٢٤.

عاد القارب إلى السفينة. وبقدر ما استطعنا تمييزه أنه نزل عن السلالم عدة أشخاص بلباس أبيض بمساعدة دقيقة من مختصين. على ما أظن أن صاحب القبعة القش هو الرئيس. عند اقترابه تأكدنا أننا لم نكن مخطئين. كان يرتدي الرئيس طقماً أبيض براقاً ناصع اللون. عاقداً لربطة عنق رمادية اللون. اقترب إلينا بوجهه الواثق الذي عرفناه من خلال مئات من صوره التي كنا نراها في الصحف. في النهاية وصل القارب ورسا في الميناء. ومرة أخرى وبدعم فائق من المرافقة وبمساعدة أيديهم التي مدت له باحترام وضع الرئيس قدمه على جزيرتنا.

كان في يده عكازة أنيقة. ترجلت من خلفه سيدة عجوز بزي أبيض اللون نعتقد أنها زوجته إضافةً إلى طفلين. أحدهم ذكر والآخر أنثى بعمر يقارب الاثني عشر أو الثلاثة عشر عاماً. في الحقيقة قد بدونا نحن الذين اجتمعنا في الميناء فتات أمام أناقة هذه العائلة. بعضنا نزل بالمايوهات إلى الميناء وبعضنا بسروال قصير فقط، أكثرهم ترتيباً في مجتمعنا كان يرتدي السروال القصير والشيال. وارتدت بعض نسائنا المايوه، وبعضهن الآخر السروال القصير.

تتغير الناس في الظروف والمناخ الذي تعيش ضمنه. باتت الألبسة كالأطقم وربطات العنق تخنقنا بعد مضي عشرات من السنين في الجزيرة. مع مرور الزمن بدأنا

نلبس كألبسة سكان الجزر الاستوائية دون شعور. ولهذا السبب، لم يمنعنا لباسه وربطة عنقه المعقودة بإحكام تحت حلقه المرتخي والمتهدل من شعور الدهشة التي تولد فينا حتى لو استطعنا أن نخمن كم كنا نبدو غرباء الأطوار بالنسبة للرئيس.

بعد أن وضع الرئيس قدمه بخطوة ثابتة على الميناء اتكأ على عكازته. وصاح بصوت واثق قائلاً: "مرحباً يا أصدقاء" بعد أن رمقنا وكأنه أول فاتح يضع قدمه في القارة الأمريكية، ويلتقى السكان المحليين أشباه العراة. لم يكن صوته غريباً علينا وكأنه منحدر من الأزمنة القديمة وخصوصاً من السنوات التي نفذنا فيها الخدمة العسكرية، فنادى أغلبنا لا شعورياً ودون حساب أننا سنضع نفسنا في موقف مضحك وبصوت واحد وقاس "حاضر" وكأننا جنود يخضعون للتفتيش.

لم يكن الكاتب موجوداً بيننا. ولكنه على الأغلب كان يراقبنا من إحدى زوايا الغابة لأنه رجل شغوف. عندما أتخيل ذلك أشعر أنني لم أكن غير منزعج من ردنا "بحاضر" قبل قليل وحسب. بل كانت تحصل أمور غريبة في الجزيرة، جعلتنا نستمتع بذلك بسبب روتين الحياة اليومية التي مللناها. ثم وقفا في الدور لأن الرئيس بدأ بمصافحتنا فرداً فرداً. كانت زوجته تسير من خلفه، وهي أيضاً كانت تصافحنا. كان الأطفال يراقبون بملل، منتظرين انتهاء ما يحصل. نعم، واحد من المواضيع التي نسيت أن أخبركم بها عند وصفي لجزيرتنا - من يدري كم يوجد بعد مثل هذا الموضوع - هو أنه لم يكن يوجد أطفال في الجزيرة. أساساً لا تستطيع العائلات التي لديها أطفال بعمر الدراسة أن تعيش في هذه الجزيرة. كان يأتي أبناء بعض العائلات أو أحفادهم إلى الجزيرة في العطلة الصيفية فقط، ثم يعودون إلى البلاد. وأعتقد أن هؤلاء الأطفال أحفاد الرئيس. قد أتوا من أجل العطلة الصيفية.

يا جزيرتنا التي أكرمتنا على مدى عشرات السنوات، سامحينا لإساءتنا تجاهك ولاستقبال عدونا بإبداء الاحترام له كما وفوق هذا، انحنينا قليلاً إلى الأمام وصافحناه.

كذلك الأمر بالنسبة لك يا صديقي الكاتب. سامحنا لأننا لم نعر الاهتمام لتحذيراتك منذ اليوم الأول واتهمناك على غير حق بالسوداوية.

أين أنت الآن؟ هل أنت حر أم إنك تجمع المحن في الزنزانة؟ لا أدري إن كنت حياً أم ميتاً ولكن إن حصل ووقعت كتاباتي هذه بين يديك، أريدك أن تعلم أنني أشعر بخجل عميق تجاهك، وأنني أشتاق إليك بقلب مفعم بالألم.

ليته بالإمكان العودة في الزمن وعدم عيش هذا أبداً. ليت الرئيس لم يأت إلى الجزيرة أبداً أو أننا لم نستقبله في الميناء ونشاركه وزوجته الطريق حتى المنزل رقم ٢٤ دون التواني في إبداء الاحترام. لم نكتف بذلك بل قمنا في ذلك المساء بتهيئة حفلة "ترحيب" تحت العريشة البسيطة، ووضعنا أسماكاً طازجة حديثة الصيد ونبيذاً أبيض كنا قد صنعناه بأيدينا.

عندما أذكر ذلك يحمر وجهي ويضيق نفسي. ولكنني مضطر على ذكر الرجل رقم واحد المسالم المحايد عندما رفع في تلك الحفلة نخب ضيوفنا الجدد وأجبرناه على إلقاء كلمة ترحيب باسم سكان الجزيرة. كذلك وقوفنا جميعاً مرددين "أهلاً وسهلاً".

انتصب الرئيس وألقى كلمة رداً على حسن ضيافتنا.

"جيراننا الأعزاء" قالها بصوت متزن. "أقدم أنا وزوجتي لكم الشكر والامتنان على حفل الاستقبال الفريد منذ أول يوم أتينا فيه إلى جزيرتكم. قضيتا الكثير من مواسم الصيف والشتاء والربيع والخريف لدرجة لدرجة إدراكي أن كل زاوية من وطننا هو جنة. ولكن في الحقيقة، لجزيرتكم في الوطن الجنة هذا مكانة مختلفة وجمالية تسكر المرء. أعتقد أنني وجدت أنا وزوجتي المكان المناسب، ولا يوجد مكان أنسب منها لقضاء حياة متواضعة وبسيطة بعد سنوات طويلة من النضال. ولذلك أترحم على صديقي المتوفّى أي على المالك الأول لهذه الجزيرة الذي حدثني عن هذه الجزيرة منذ عدة سنوات، ودعاني لإقامة منزل هنا عندما كان يؤسس منزله".

جميعنا نظرنا إلى الرقم ١ عند هذه اللحظة من الكلمة. نظرنا وحاولنا معرفة إن كان لديه معرفة بدعوة والده هذه أم لم يكن. ولكنه كان ينصت إلى كلمة الرئيس بحيرة لا تقل عن حيرتنا.

"في سنوات النضال تلك، ناهيكم عن تلبية هذه الدعوة، لم أكن أجد الوقت حتى لأرى وأجول الجزيرة. ولكن يجب أن أعترف أن ما قاله بقي محفوظاً في زاوية من عقلي

وشعوري بالندم الخفي بين الحين والآخر. ولذلك عندما تقاعدت -أنوهكم إلى قوله تقاعدت وليس أُقلت - اعتقدت أنه لطف من الله وضعه أمامي عندما علمت من إعلانات إحدى الصحف أنه بوجود منزل للبيع في هذه الجزيرة..."

بقيت الكلمة مستمرة على هذا المنوال. ورفع الرئيس نخبه تشريفاً لنا. وقال لنا كلاماً يداعب مشاعرنا مثل "الآن نحن أيضاً أصبحنا منكم، ولا اختلاف بيننا. ونتشرف بقبولكم لنا كجيران لكم".

كم نحن مخلوقات غشيمة وغبية وجاهلة. فلقد أدت كلمة الرئيس هذه إلى جعلنا نرحب ونستقبل هؤلاء الجيران اللطفاء الجدد على أنهم ناصعو الوجه وعجائز لطفاء بعد أن تحمسنا كما الجماهير في مئات الكلمات السياسية التي ألقاها حتى هذا اليوم.

في حين كنا نشرب القهوة بعد الطعام، كانت نساء الجزيرة ملتفة حول زوجة الرئيس. وكانت مثل زوجها بمزاج تترأس فيه مجموعة النساء. من الممكن أنهم لا يفعلون شيئاً أبداً، ولكن نحن من وضعهم في مثل هذا المزاج. كان الليل جميلاً، والهواء عليلاً، وكانت قطيرات الماء الناعمة المنعشة، التي تهب من البحار وتداعب وجوهنا، رائعة.

ليته لم يحصل. ليت بوسيدون قد زَأَرَ من وسط ظلمات البحار الواسعة، وسلط علينا جميع عواصف الليل الملعونة، ودمر حفل الاستقبال ذلك. ليت وحوش أعماق البحار جميعها تكاثرت علينا (هل كانت هذه إحدى جملي المنمقة يا ترى؟ مهما يكن، فسيقوم المشرف على إعدادها بإزالة المقاطع التي يراها غير لازمة إذا ما لاقت هذه الكتابات اليدوية فرصة الطباعة).

أعتقد أنه من غير الضروري ذكر أن الكاتب لم يحضر هذا الاجتماع أيضاً. بات هو الشخص الوحيد الذي لم يتعرف بعدُ الرئيسَ. وكأنني أسمعه يشتمنا ويسبنا وهو في منزله مهمهماً. ولذلك كنت أشعر بضعف بداخلي. ولكن ماذا عساني أن أفعل، بالتأكيد لم أكن أنا من سيدير الأحداث. كيف يمكنني أن أتخذ مواقف صارمة منذ البداية؟ في النهاية فعلت كما كان يفعل الجميع. نعم، لم أفكر كثيراً في الأمر، سايرت الأجواء. لم يكن هذا شيئاً يدعي للفخر، ولكن ماذا كان بإمكاني أن أفعل.

- ٣ -

لم أَرَ صديقي الكاتب ليومين خلال سير الأحداث. مررت عليه عدة مرات فلم يفتح أحد الباب. هل حقاً لم يكن في المنزل أم إنه لم يفتح لي كي يعاقبني؟ لم أكن أفهم، ولكن من المأكد أنه كان غاضباً مني. لم يتصل ولم يظهر في الأوساط أبداً، وكان يقف بعيداً عن أماكن لقاءاتنا اليومية.

بعد يومين، وجدته صباحاً في مكان نسميه "المياه البنفسجية". كان هنالك عدة أماكن للسباحة مغطاة بالحصى في جزيرتنا. إحداها "المياه البنفسجية" وإحداها خليج يدعى "لارا"، والأخرى "المياه العميقة". كنا بحسب الحالة نجتمع للسباحة، فنختار الشاطئ الذي تكون فيه الأمواج والرياح أخف من غيرها. كانت بقية الشواطئ غير هذه الخلجان الثلاثة مخصصة للنوارس. لم نتدخل في مجال حياتهم أبداً. كانت النوارس في هذه الخلجان تبيض وتنام في الأعشاش وتحمي صغارها. كانت تعيش حياتها كنوع بري لا يقترب من الإنسان أبداً.

في ذلك اليوم كانت تهب رياح غربية. وبطبيعة الحال كان علي أن اختار خليجاً غير "المياه البنفسجية" الذي كان مفتوحاً على تلك الرياح. ولكن بشعور لا إرادي غريب، اتجهت نحو "المياه البنفسجية". ربما شعرت بأن الكاتب سيقوم بهذا الأمر غير المتوقع لأنه لم يُرِدْ أن يرى أحداً منا. وبالفعل لم أكن مخطئاً. رأيت صديقي الذي كان يحاول التقاط شعره الطويل المتطاير في الهواء عندما كان يشاهد ارتفاع الأمواج البنفسجية التي كانت السبب في تسمية هذا المكان. لم يفتل رأسه بالرغم من أنه سمع وقع خطا أقدامي، ولم يلتفت ليعرف من كان قادماً. لا شك أنه علم أنني أنا الذي جئت.

جلست بجانبه دون إصدار أي صوت. شاهدنا لفترة البحر الذي كان يرتفع متجهاً نحونا مكرراً لعبة المد والجزر اللانهائية على الشاطئ، والنوارس التي كانت تغطس وتخرج. وفي النهاية قلت: «هل تذكر، تعرفنا إلى السيد المحامي في هذا الشاطئ؟».

«نعم»

«كم كانت مضحكة أليس كذلك؟»

«نعم»

قلت: «تشرفت بمعرفتك يا سيدي». وفي هذه الأثناء تظاهرت بأنني أخرج قشرة خيار من فمي وأرميها. لم يضحك أبداً. ثم عم الصمت مجدداً. كان يحاول باستمرار رسم مجموعة من الأشكال في الحصى بواسطة قطعة من غصن شجرة كان قد التقطها. ولكن كأنه لم يكن مدرك ماذا يفعل.

أستطيع الشعور بغضبه الكبير وتوتره القابع تحت مظهره الهادئ. كان متوتراً لدرجة كنت أستطيع رؤية كيف أن عضلات جذعه توشك أن تختلج. بعد برهة من الصمت قلت:

«برأيك هل هو صحيح أن يقوم المرء بتطبيق الإساءات التي تلقاها، على الذين أمامه؟»

انتظر قليلاً وكأنه كان يفكر إن كان سيجيب أم لا، ثم قال: «يتوقف ذلك على من يكون»

عدنا للصمت المتبادل مرة ثانية. بعدها جرت هذه المحادثة الغريبة بيننا:

«هل تعني أنه من الصواب الرد على الأشخاص الذين أساؤوا إليك بالأسلوب نفسه؟»

«ماذا تريد القول؟»

«ألا يدل هذا الموقف على تكرار نفس ما كانوا يفعلونه؟»

«هل أنت ساذج إلى هذا الحد أم إنك تمزح؟»

نظر إلي أَوَّلَ مرة عند سؤاله ذلك.

«ربما كنت ساذجاً، ولا أعرف بالسياسة بقدر ما تعرف أنت، ولكن مهما كان الذي فعله...»

«هل أنت فعلاً تعرف عمَّ تتحدث؟»

«... هو إنسان أيضاً»

«أنت مخطئ»

«ربما، ولكن ماذا يمكن أن نفعل في هذه الحالة؟ هل نرمي عجوزين في البحر؟ ومع أحفادهما»؟؟!

سمعت همهمات من بين أسنانه تقول «هذا قليل حتى». أخافني شعور تفاقم الحقد في داخله. كنت أستطيع رؤية حاجز كبير بيننا لدرجة أنه لا يمكن تجاوزه بالنقاش فيما بيننا. ولكن من ناحية أخرى، كنت لا أستطيع الوقوف أمام غايتي في الضغط عليه للتوصل إلى فكرة موحدة وتقارب في هذا الموضوع. لأنني كنت أحبه جداً. ليس بمقدوري قول ذلك له. لم يكن يحب هذا النوع من المديح. ولكن علي الاعتراف، أنه كان أكثر أصدقائي الذين أعزهم في الحياة.

في الكثير من الأحيان كنا نغدو طفلين في "المياه العميقة"، وكنا نغطس من مكانين مختلفين في الماء ثم يجد بعضنا بعضاً في الأعماق ويمسك بعضنا بأيدي بغض لنقفز إلى خارج الماء كمن ظفر بنصر. في البداية كانت تخرج أربع أياد ممسكة بعضها ببعض من الماء. وبعدها في ساعات المساء كنا نتحدث عن الأدب والحياة والناس بينما نرفع الأقداح في حديقته أو في حديقتنا. ولكن لم يكن يتحدث عن ماضيه أبداً. من كان؟ لماذا كان يعيش وحده؟ ماذا كان يفعل قبل أن يأتي إلى الجزيرة؟ كانت هذه المواضيع من المحرمات بالنسبة له. لم يكن يتحدث عن حياته أبداً. كان يغير الحديث بأسلوب غاضب إذا لف الحديث ودار ليستقر عليه.

إن حبيبتي ووحيدتي، التي عشت معها سنواتٍ، أحبته أيضاً، وكانت تريد إيجاد حلٍّ لوحدته. ولكن لم تكن تتوفر إمكانية كهذه في الجزيرة. أصلاً لم يكن الكاتب مستاءً من حالته. وكأنه قد غرز في نقطة من شخصيته رمح فارس من العصور الوسطى. لم يكن بالإمكان العبور من خلاله.

بشكل عام كان رجلاً صامتاً. على وجهه الناعم تعابير شقاء لا تنقص حتى عندما كان يضحك. كنت أراه ينتعش كلما تحدث بالأدب فقط.

يجب علي أن أضيف أيضاً، أنه كان دائماً ناقداً غير منصف. كنت آخذ تجاربي في الكتابة إليه وأسأله عن رأيه بها. وكان يقول لي: «هل اسمك مارسيل؟» أنا: «لا» هو: «ولكنك كتبت مثل مارسيل بروست» ويكمل: «حاولتَ كتابة نصاً بروستياً. ولكن لا تَنْسَ أنه يوجد فرق شاسع بين أن تكون بروستاً وبين أن تكون بروستياً. إن هذا الأسلوب أسلوب خاص بكاتب باريسي يدعى مارسيل كان قد أبدعه في تلك الظروف، فكان صوته. وأنت أيضاً يجب أن تجد صوتك في السرد. وإلا فستبقى كتاباتك كتقليد لبروست حتى لو كانت أفضل من بروست نفسه»

لا أدري لماذا لم أكن لأحزن عندما أتلقى منه هذا التوبيخ، كنت أنعزل في غرفة أعمالي بشهية أكبر، وأنتج نصوصاً جديدةً. وفي المرة الثانية لم يعجبه أيضاً. كان يهز أصبعه بطريقة تهديديه قائلاً: «آه منك أنت!». «هذه المرة عرفت، هل اسمك جورج لويس؟ هل قرأت مؤخراً لبورخيس؟»

عليَّ الاعتراف ووجهي محمر خَجِلٌ، نعم، قرأت لبورجيس وتأثرت به، وأردت كتابة شيء مثله. «لا تَنْسَ» كان يقول ويكمل: «صوتك الخاص! هذا هو أهم شيء. صوتك أنت! أسلوب خاص بك لا يمكن محاكاته مع أي أسلوب أو موضة في العالم. قطعة منك مثل يدك وعينك ونظرتك وابتسامتك».

صديقي العزيز، معلمي الظالم، من يدري كيف ستجد هذه الأسطر لو كان بمقدورك قراءتها. ربما هذه أول مرة أكتب فيها دون القيام بتجربة أساليب كتابة كما كنت تريد. لم أقلّد أحداً. ها أنا أقص الحكاية حتى لو كانت فظة قليلاً، حتى لو كانت تبدو مترهلة، حتى لو بدوت سخيف في بعض الأحيان، حتى لو لم تحمل أي قيمة كتابية. لأن هذه المرة لدي مشكلة وعلي أقصها. أما كنت تقول إن كل حكاية تجد أسلوبها؟ أعتقد أن هذا ما يحصل بالضبط. إن الرواية -يا إلهي كم هي كلمة كبيرة- تشكل أسلوبها أثناء السرد.

على ما يبدو أنه قد تألم من أجلي في نهاية حديثنا المتوتر في "المياه البنفسجية" فقال «انظر، أعلم أنه لا علاقة لك بالسياسة، ولكن ليس من حقك إغماض عينيك على

الدنيا التي تعيش فيها إلى هذه الدرجة. ألا تعرف أن البلاد تنزف منذ سنوات، وتذهب باتجاه الأقطاب، وأن الناس حرضت وانقسمت بعضها ضدّ بعض في معسكرات؟»

«أعرف طبعاً»

«كذلك تعرف أنهم زرعوا بذور الكراهية بين المجموعات العرقية والآثنية الموجودة على اختلافها، وأنهم قاموا بقتل بعضهم بلا توقف، وأن قضايا الثأر قد زادت سعيرها!»

«طبعاً»

في هذه الأثناء من الحديث وقف على قدميه وقال رافعاً صوته:

«تعرف كل شيء يا أخي ولكنك لا تعرف من قسّم شعبنا إلى معسكرات، ومن أراد وخطط وبدأ قضايا الثأر والإنتقام هذه».

بعدها تركتني في "المياه البنفسجية" وَحْدي وذهبت. وبقيت أنا أنظر من خلفك!.

كما يبدو لم يكن وضعنا يسمح بالذهاب إلى المياه العميقة لنبحث عن أيدي بعضنا بعضاً في أعماق البحر.

- ٤ -

لا يوجد الشيء الكثير في مخيلتي، بما يخص الرئيس وعائلته، عن الأيام الأولى من إقامته في الجزيرة. كانوا منغلقين في منزلهم. لم نكن نراهم كثيراً. كأن الجزيرة قد عادت إلى حياتها الروتينية الهادئة الجارية ببطء. الشيء الوحيد الذي تغير هو بقاء ثلاثة أشخاص، أعتقد أنهم عساكر بلباس مدني، في الجزيرة لتقديم العون لعائلة الرئيس، وينامون ضمن سفينة حكومية قد اقتربت من الشاطئ.

كان هؤلاء الشبان، بنظاراتهم السوداء وانضباطهم وهيئتهم الجدية، لا يتكلمون مع أحد ولا يقومون بالتواصل مع أي أحد من سكان الجزيرة، وحتى كانوا يتناولون طعامهم داخل السفينة بالتزام شديد دون التبضع من عند البقال ربما خوفاً من التسمم. كنا نراهم كيف يجولون كل أطراف الجزيرة ويدققونها ويسجلون الملاحظات. من الواضح أنهم كانوا يتفقدون الوضع الأمني للجزيرة والخطر المحتمل على الرئيس.

في الحقيقة لم نكن نأبه كثيراً لهؤلاء الرجال بسبب معرفتنا أنهم مؤقتون وسيغادرون الجزيرة بعد فترة. عادت الفرحة إلينا، لأننا بدأنا نعتقد أن الجيران الجدد لن يقوموا بتغيير شيء في الجزيرة. كذلك لم تكن الجزيرة معرضة لخطر الإحاطة بالصحفيين بسبب بعدها عن البلاد. ربما كان الرئيس قد اتخذ القرار الصائب.

وجدت الفرصة للتفكير مطولاً بما قاله الكاتب عند حديثنا في "المياه البنفسجية". نعم، ما قاله صحيح. للأسف وطننا الأم، الشهير بجباله البنفسجية وسفوحه العميقة وبحاره الزرقاء وشعبه المسالم، كان يتخبّط منذ سنوات في حروب داخلية لم تعرف الخمود، ولم يكن بالإمكان الوقوف بوجه العنف الدائر فيه. كانت قلوبنا تلوى عند قراءتنا للصحف التي كانت تأتينا مرة كل أسبوع، وكنا نعاني من فهم قدرة حب العنف على الانتشار في أنحاء البلاد كلّها. في تلك البلاد الجميلة التي كانت مليئة بالسكينة والهدوء فترة طفولتنا، كانت المجموعات العرقية والمذهبية والمنظمات المسلحة والقوى الإقليمية تتصارع فيما بينها من جهة، وضد الدولة من جهة أخرى.

في بعض الأحيان تتقرب إحدى هذه المجموعات من الدولة، فتقوم مع العسكر بمهاجمة خصمها. بعدها يطرأ تغيير وتتحالف الدولة مع مجموعات أخرى.

كان يأتي باستمرار أخبار الموت تحت التعذيب في السجون التي تضم الآلاف من الموقوفين. كان الإعلام الأجنبي يسلط الضوء دائماً على تجاوزات حقوق الإنسان في بلادنا، وتنتقد الحكومة الانقلابية التي على رأس عملها. لم نكن نفهم كيف للناس الذين كانوا يعيشون بسلام أن يتحولوا إلى أعداء دمويين. ولكن بتنا نفهم أنه من المستحيل لهذه المجموعات أن تعود للعيش بصداقة وبعضها مع بعضٍّ من جديد.

بالرغم من خلق هذه الأخبار طعم مر في حلقنا كان يخطر في بالنا فكرة "حمداً لله أننا جئنا إلى هنا، وتخلصنا من هذا البلاء كله" بأنانية لا يمكن الاعتراف بها ليس لبعضنا فقط بل لأنفسنا أيضاً. في الحقيقة كنا عباد اللهّ المحظوظين.

كنا دائماً ما نقرأ في الصحف عن الرئيس أنه المنقذ بصفته "أبو الشعب". كان من خلال كلمات رسمية يلقيها بين الحين والآخر، يحمل القوى الأجنبية وفعاليات الطابور الخامس للدول المعادية مسؤولية الانقسام والهاوية التي وصلتها البلاد ،وأنهم عزموا على الانقلاب ليعيدوا تحقيق الوحدة الوطنية ولتوحيد البلاد مجدداً.

كنا نراه في الأعياد الوطنية يلقي السلام على الشعب من خلال سيارته المكشوفة أو يداعب رأس طفل صغير. في بعض الأحيان كان الإعلام ينقل زياراته لدار الأيتام أو لدار العجزة. تزين هذه الأخبار صور التقطت بطلب الرئيس حتماً عندما كان يوزع الهدايا على الأطفال والعجزة.

تذكرت تفصيلاً عند ذكر الصور. أحد التفاصيل الذي بقي في مخيلتي في تلك المدة هو التقاط الصور الجماعية.

ها هي حالة أخرى خلقتها الرواية المكتوبة دون تخطيط والتأرجح هنا وهناك، واستكمال الرواية بطريقة التداعيات. رغم أنكم ستدركون لاحقاً الأهمية البالغة لهذه الصورة.

عند انتقال الرئيس إلى الجزيرة بلغنا جميعاً عن نيته في التقاط صورة جماعية مع جيرانه و"تخليدها". كنا سنلتقي في اليوم التالي على رصيف الميناء. ذهبت إلى جاري الكاتب بوجهي الأحمر بناء على هذا الخبر الذي حمله لنا البقال جائلاً علينا بيتاً بيتاً.

قلت له: «في النهاية سوف تتعرف عليه. لن تستطيع أن تختبئ كل هذه السنين. من الأفضل أن تأتي إلى الرصيف بحجة التقاط الصورة. تعرف عليه بشكل مختصر ثم لا تلتقيه مرة أخرى» اعتقدت أنني أقنعته لأنه كان سيلفت الانتباه عليه أكثر ولن يتركه الرئيس بحال سبيله. وظهر في صباح اليوم التالي على الرصيف. في الحقيقة لم يلفت الانتباه حتى لدخوله ضمن الجموع. لأن أحداً لم يتمكن، غيري، من ملاحظة عدم وجود الكاتب في الأوساط. أساساً لم يجد الرئيس الوقت بعد لتّعرف جيرانه فرداً فرداً.

وقفنا بشكل مجموعة، ووضعنا الرئيس وزوجته في وسطنا. وجهنا مرافقة الرئيس بشكل جعلت فيه شمس الصباح اللينة تنعكس على وجوهنا. قاموا بعملهم بحرفية وكأنهم مصورو حفلات زفاف مختصون، إذ هَيّؤُوا وقفاتنا، ووضعونا ضمن مجال الكاميرا بشكل منظم. بعدها قاموا بالتقاط عدة صور لنا من عدة زوايا بواسطة آلة تصوير كبيرة.

يا لعقلي الساذج. يا لضعفي الملعون. كنت أرى موضوع التقاط الصورة لفتة جميلة من الرئيس ودليلاً منه على الصداقة. تعجبت لكيفية التقاط مرافقة الرئيس للصور بدقة فائقة وبكاميرات حرفية جعلت الجميع يظهر بوضوح بشكل دقيق جداً. كنت أرى ذلك على أنها نية رجل عجوز في التقاط صور تذكارية مع الجيران الذين كسبهم في حياته الجديدة.

حتى إنني فخرت بنفسي لاعتقادي بأنني ومن خلال زجّي لصديقي الكاتب ضمن المجموعة أيضاً وقفت في وجه اختلافات يمكن أن تنشب في المستقبل.

لا أعلم إن كنت ستسامحني؟ لو لم أصر عليك إلى هذه الدرجة ذلك اليوم، لما كنت تكون ضمن الصورة، ولم تكن لتصيبك أيضاً الفاجعة التي أصابتك. ربما كانت ستحصل الفاجعة التي عشناها. أساساً لن نتمكن من منع ذلك. ولكن كان يجدر بي معرفة أن موضوع التقاط الصورة هذه كان عبارة عن فخ. كنتُ صديقاً غبياً جلب لكَ الضرر لك أكثر من عدوك الذكي. ولكن قد فات الأوان. لن أجد الفرصة لإخبارك كم أنا نادم وكيف اعتصر قلبي حزناً من ناحية، ولن يكون لذلك نفع لأحد منا من ناحية أخرى.

علي إخباركم بأننا تلقينا أول صدمة صغيرة على الجزيرة بعد يومين من التقاط الصور. هل تذكرون طريقنا المشجر الذي تحدثت عنه سابقاً؟ طريقنا المنعش الذي

يشبه النفق الأخضر، حيث تصطف الأشجار الشاهقة على طرفيه مشكلة فيئاً طبيعياً بتشابكها في الأعلى... عند عودتنا إلى المنزل من عند البقال أو من الرصيف متصببين عرقاً، كنا ننتعش ببرودة هذه البقعة الخضراء من الغابة فور دخولنا ببداية هذا الطريق. كان الفيء الذي فوقنا يضجر الشمس لدرجة أننا لم نكن نراها. كانت هذه التحفة الطبيعية أكبر كنوزنا في الجزيرة.

في إحدى الأيام عشنا تعاسة بدء تشذيب الأشجار في هذه الطريق. شذّبت مرافقة الرئيس الأشجار ببراعة عالية. كانوا يجزونها ويقصونها لتشكل جداراً أخضر. كانت لياقة ومهارات هؤلاء الرجال الرشيقين عالية لدرجة أنهم كانوا يتسلقون الأشجار بهذا المستوى بسهولة، ويقصون الأغصان المتداخلة بسرعة. عند سماعنا الخبر ومجيئنا، كانت قد تشذبت نصف الأشجار. بدأت تتشكل الجدران المنتظمة في كلا طرفي الطريق محيطةً بسكان الجزيرة المساكين المجتمعين في الطريق وتعلوهم نظرات الدهشة. حولت هذه الأشجار التي كانت متروكة بحالتها الطبيعية، إلى تماثيل أشبه بالتماثيل الخضراء التي كان ينحتها بستانيو حدائق فرساي. والأكثر رعباً، أن الظل الذي كان فوقنا لم يبق. كانت الشمس تلفح الطريق بشكل مباشر. كما تتوقعون لقد حاولنا إيقاف الرجال أول ما تجاوزنا الصدمة. ولكنهم قالوا لنا ودون النظر إلى وجوهنا: «إنها أوامر الرئيس! تكلموا معه» وتابعوا عملهم.

أدركنا عدم قدرتنا إقناع الرجال. فسارعنا بعجلة إلى منزل الرئيس وقرعنا بابه. كنا سنقول له عند رؤيته: «أرجوك أوقف هؤلاء الرجال! إنهم يدمرون أشجارنا جهراً». فتحت الباب حفيدته. قلنا لها على عجل إننا نريد رؤية الرئيس فوراً، حتى إنني لأعتقد أن بعض المستعجلين قد حاولوا الولوج إلى الداخل. ولكن الفتاة نظرت إلى وجهنا بغرابة وكأنها تقول "من تكونون أنتم لتأتون بعجلة لرؤية جدي رئيس الدولة". بعدها قالت: «جدي يعمل. ولا يحب الإزعاج».

حاولنا إقناع هذه الفتاة اليافعة وقلنا لها إنه أمر مستعجل ولكن لم نستطع إقناعها. قالت: «ممنوع علينا الذهاب إلى غرفة جدي وقرع بابه عندما يكون يعمل» وأضافت: «حتى أنا لا أستطيع الدخول. عودوا الساعة ١٢».

وأغلقت الباب في وجهنا بكل لطف. نظرنا بعضنا في بعض وركضنا مرة أخرى إلى الطريق. لا فائدة بعد الآن حتى لو رأينا الرئيس. قد فات الأوان. تشذبت معظم الأشجار، وظهرت بشكل واضح حدة انتظام الجدران الخضراء. أريدت البكاء. قال الرقم ١: «يجب أن يكون هناك التباس في هذا الموضوع. لا يمكن للرئيس أن يصدر أمراً كهذا. على ما يبدو أن هؤلاء الرجال أخطئوا الفهم. وإلا لماذا يقوم الرئيس بتدمير طريق جزيرتنا وشريان حياتها دون سبب»

أيده عدة أشخاص آخرين. على ما يبدو هناك سوء فهم مخيف في الأمر. ربما أَمَرَ الرئيس بتشذيب الأشجار في حديقته، ففهم الرجال الأشجار التي على الطريق. في النهاية اشترك الجميع في هذا الرأي. وقالوا: «نعم نعم، هناك خطأ كبير. لا يمكن لرئيسنا أن يصدر أمراً كهذا. من المؤسف أن ما حصل هذا، ولكن ماذا يمكن أن نفعل، ستنمو الأشجار مرة أخرى!»

كان يدور في داخلي أنا فقط هاجس كبير أن الموضوع لم يكن كذلك. لأنني لم أستطع نسيان كلام الكاتب واتهامي بالسذاجة. أساساً أكد الرئيس ذلك عندما ذهبنا لزيارته في تمام الساعة ١٢.

قال: «انظروا يا جيراني الأعزاء» وأضاف: «أنتم اعتدتم بعض الفوضى والخلل والمعمعة التي تحصل أمام أعينكم ربما بسبب عيشكم هنا لسنوات طويلة. تركتم كل شيء في حاله بشكل متسيب. ولكن لا يمكن للمجتمعات الإنسانية العيش هكذا. من واجبات الحضارة أن تعطي لنفسك وللوسط الذي تعيش فيها ترتيب. كان أول ما وقع على ناظري عند مجيئي هو ذلك المنظر المخيف على الطريق الترابي. شقت الأشجار طريقها دون اكتراث. التفَّ بعضها حول بعضٍ. وأقصت المنطقة كمكان حضاري لعيش الإنسان. يجب عليكم أن تمتنوا لرجالي الذين اهتموا بهذا العمل قبل ذهابهم. من الآن فصاعداً عندما تمرون ذهاباً وإياباً في هذا الطريق سترون على جانبيه، الأشجار المشذبة المتعشة والمنظمة حسب تقاليد الحدائق والمنتزهات التي مستها يد الإنسان، وستفتخرون مرة أخرى بجزيرتكم».

كنا في حديقة المنزل ٢٤. كنا نقف على الأرجل. كان الرئيس أعلى منا بقليل حيث كان على الشرفة. كان يرتدي سروالاً أبيض وقميصاً ناصع البياض ونظارة شمسية. في قدميه حذاء أبيض دون كعب. كان يتحدث إلينا بنبرة صوته المؤثرة واضعاً يده في جيبه ورافعاً رأسه قليلاً. كان يوشك أن يضعنا، نحن الذين أتينا إلى لهنا لنشتكي، في حالة "يجب أن نعتذر" بسبب تركنا تلك الأشجار على حالها. لاحظت أنه من بيننا كان الرقم ١ قد لبس سروالاً. رغم أنه كان يجول ليلاً نهاراً بالسروال القصير ولم يكن يرتدي سروالاً أبداً.

خرج شخصان أو ثلاثة من ضمننا كانوا سيعترضون بصوت هزيل فهمهموا: «ولكن الخضرة، الفيء...». نصت الرئيس إلى هذه الهمسات، وأخذ يده إلى أذنه وقال: «ماذا؟ لم أسمع جيداً، هل تكررون ما قلتموه مرة ثانية؟»

بناءً عليه اضطر المعارضون إلى تكرار ذلك بصوت أعلى بخجل وتململ قائلين: «سيدي، كانت تؤمن أغصان تلك الأشجار المتشابكة في الأعلى فيئاً رائعاً. والآن لم يعد ذلك موجوداً. بقينا تحت الشمس مثل حبة القرع».

قال: «أمم» وبعد أن رمقنا بتأمل قال: «هذا يعني وجود اختلاف وجهات نظر فيما بيننا. إننا نفكر بطريقة مختلفة في بعض المواضيع. هذا طبيعي، ومن الجيد أني علمت بذلك. الناس يحلون كل شيء بالتحاور. إذاً أعطوني الفرصة لأفكر قليلاً في هذا الموضوع. جيراني الأعزاء، أعتقد أني سوف أقدم لكم عرضاً قريباً».

كان النقاش قد انتهى. عندما كنا نتفرق إلى بيوتنا تبادلنا الآراء حول ماهية هذا العرض. بات الرئيس يحدد أجندة الجزيرة!

لم يكن الكاتب يشاطرنا الوقت في الآونة الأخيرة حيث رمى نفسه بين الجبال والصخور كأنه نورس بري يقضي وقته بالجلوس على الشاطئ ورمي الأحجار على البحر. عندما ذهبت مساء ذلك اليوم إلى منزله، وقصصت عليه ما أصابنا، قال لي عبارة واحدة: «اللعبة لا زالت في بدايتها يا صديقي الساذج!»

- ٥ -

لم نعتد بعدُ الطريق بحالته العارية. كلما مررنا منه - حيث كانت المرة الثالثة اليوم - شعرنا كأناس حلقت رؤوسهم بالموس حديثاً، ولم نعتد حالة الصلع هذه. كانت الشمس فوقنا بأقصى غيظها. على ما يبدو حيَّر هذا الأمر النوارس بقدر ما حيَّرنا، إذ كانت تنقض على شكل أسراب متجمعة على الطريق وكأنهم أرادت التأكد إن كانت أغصان الأشجار المتداخلة، التي كانت تمنعهم من رؤية الطريق سابقاً، موجودة أم لا. مرت النوارس من فوق رأسي أنا أيضاً عدة مرات كالبرق.

هذه الطيور سريعة جداً، وبالفعل هي تخيف المرء عندما تمر بجانبه. سترتعبون عندما ترون النوارس من بعيد بصدورها البيضاء وانزلاقها الرائع في السماء وبصرخاتها أيضاً. لأنها مخلوقات جارحة بهيئة مفترسة لا تتقارب مع الإنسان أبداً. إضافة إلى ذكائها عطفاً على التجربة التي عشناها في الجزيرة. غريزتها وإمكانياتها على التعلم قوية جداً.

أتذكر أني قرأت عن تجربة أجريت بهذا الخصوص. بدّلوا بيض نوعين مختلفين من النوارس. بُدّلَ بيض النوارس الفضية التي تهاجر كل عام بتسعمئة فرخ خرج من بيض النوارس سوداء الظهر التي لا تهاجر ليتم تَربيتها عن طريق الأمهات الخطأ. ثم تمت مراقبة حركة الهجرة لهذه النوارس.

لحقت صغار النوارس التي لا تهاجر آباؤها في الأصل، آباؤهم غير الحقيقيين وهاجروا إلى إسبانيا وفرنسا. أما صغار النوارس التي ربتها النوارس التي لا تهاجر في الأصل، فقد انجرت لغريزتها وهاجرت. أثبتت هذه التجربة أن الغرائز ومهارات التعلم لدى النوارس عالية جداً. إن نوارسنا تبقى دائماً في الجزيرة لأنها من النوع الذي لا يهاجر أبداً ولم يُرَّ بها الآباء الخطأ أيضاً.

نقرأ هذه المعلومات ونتحدث حول النوارس ولكن لم يكن لأحد منا إمكانية الاقتراب منها. كنا نعيش في زوايانا دون إزعاج بعضنا بعضاً كأننا تقاسمنا الجزيرة. كانت

أكبر علاقاتنا مع النوارس - إن صح التعبير - هي "الرشوة" عند ذهابنا لصيد السمك. كنا قد أوجدنا عادة رمي بعض أسماك التن أو المرجان أو الازمريت للنوارس التي تحيط بمراكبنا المحملة بالأسماك عند عودتنا من الصيد. وهم تعودوا هذا الأمر لدرجة أنهم كانوا يشنون غارات علينا بصيغة تهديدية عندما لا نرمي الأسماك لهم. تحول هذا الأمر إلى لعبة غريبة بيننا. في بعض الأحيان كنا نسمع صوتهم يمشون على التراسات ليلاً.

ولكن عندما شذبت الأشجار كانت النوارس تقوم بانقضاضات حادة لدرجة أصابتنا بالذعر، ربما بسبب فضولهم. كما قلت، لم نكن نأبه كثيراً لها لتعودنا إياها. فلم يسبق لها إيذاء أحد. ولكن للأسف كان يمكن لهذا الأمر أن يسبب الذعر للذين لم يعتادوا النوارس. وقع الفأس برأس حفيدة الرئيس بعد قطع الأشجار. دفعت تلك الفتاة جزاء ذنب جدها.

نفذّت النوارس غارات فوق رأس الفتاة المسكينة عندما كانت عائدة إلى المنزل وهي تأكل بسكويتة الغوفريت التي اشترتها من عند البقال. فأصيبت بالذعر فجأة. وبدأت بالركض محاولةً حماية رأسها بأيديها. فعلقت قدمها في خضم هذه المعمعة بغصن وبدأت بالتدحرج. تأذت يدها اليُسرى بشكل كبير. عندما وجدوها كانت تصرخ وتصيح، معتقدة أن النوارس لازالت في أثرها. لم تكتفِ بهذا الخوف، بل تحول في اليوم التالي لون يدها المتأذية التي التوت بشكل فظيع إلى لون بنفسجي كالباذنجان. لم تتعافَ يد الفتاة بالرغم من قيام صديقنا الطبيب بصرها وتعليقها بعناية فائقة.

أسفنا جميعاً لهذا المكروه. حتى خطر لنا باسم سكان الجزيرة أن نقوم بزيارة الرئيس لنقول له "حمداً لله على السلامة". ولكننا لم نجرؤْ على ذلك. لم نجد الفرصة لنتمنى لحفيدته الشفاء بسبب المكروه الذي أصابها عندما جمعنا الرئيس بعد يومين.

وزَّع البقال بلاغاً على بيوتنا بيتاً بيتاً من خلال تعميم ينفذ لأول مرة في تاريخ الجزيرة كان يرجونا فيه أن نكون في اليوم التالي الساعة ٦ مساءً تحت العريشة. وفي تذييلته يوجد توقيع الرئيس.

خلقت هذه الدعوة الورقية لدي شعور الحنين إلى الماضي. كنت أتلقى خلال سنوات معيشتي في العاصمة كثيراً من النداءات والدعوات وبلاغات الضرائب وما شابه ذلك. ولكن كل هذا بقي في الماضي، فكان هناك من يستقل سفينة الركاب بين الحين والآخر ويذهب إلى البلاد ليبقى عدة أشهر. ولكن لم أذهب منذ زمن طويل. لم أشتقْ للشوارع المليئة بالسيارات بأرصفتها الصاخبة وللبارات ودور السينما والمطاعم المزدحمة. ربما اعتقدت أني لم أشتقْ إليها. إن نداء الدعوة التي أحضرها البقال أعادت صخب المدينة بكامل عظمتها.

اجتمعنا في اليوم التالي - بما فينا الكاتب - مساءً الساعة ٦ تماماً تحت العريشة. كان الرئيس باللباس الأبيض أيضاً. ها هو الرئيس أمامنا بجلده الذي يبرز منه شعيراته الدموية الوردية - البيضاء وبعرقه الجديد وكأنه حديث الحلاقة. دمجت الموائد ورتبت لتشكل لوحة. كان يجلس الرئيس في وسط إحدى الزوايا. لفت انتباهي تزايد عدد الأشخاص الذين ارتدوا السراويل. انضم عدد من جيراننا إلى الرقم ١.

عند مجيئنا إلى تحت العريشة أبلغنا الرئيس وزوجته تمنياتنا بالشفاء العاجل لحفيدته. في الحقيقة حزنا كثيراً لأنهم تعرضوا لمكروه كهذا في بدايات قدومهم إلى جزيرتنا. بالرغم من أنه لا ذنب لنا، أردنا تقديم التأسف والآمال بالشفاء لأحفاده اللطيفين. أساساً كنا نرى هذه الفتاة اليافعة والمتذاكية غير لطيفة بعض الشيء، ولكن هذا ما يجب قوله. قبلوا أسفنا بتعجرف ولكن بأسلوب متفهم. بعد أن أخذنا مكاننا، أخبرنا الرئيس بأشياء مهمة بكلمته الفصيحة. بدايةً أخبرنا عن أفكاره في مواضيع عامة مثل ماهية الحضارة وكيف للمجتمعات الإنسانية أن تعيش وعن النظام والانتظام. وقال بعدها: «عند لقائنا المرة الماضية بخصوص موضوع تشذيب الأشجار، أوضح بعض رفاقكم أنهم يجدون هذا الإجراء خاطئ» وسألنا جائلاً بنظره علينا جميعاً:

«صحيح؟»

«صحيح!»

قال: «جيد» ثم قال: «هذا يعني أن هناك اختلافاً في وجهات نظر حول كيفية العيش على الجزيرة وكيفية إدارتها. هل هذا صحيح؟»

كان ينظر إلى وجوهنا مجدداً، وقلنا بصوت واحد: «صحيح!»

قال: «شكراً!» ولم نفهم لماذا قال شكراً.

«يا رفاق، ماذا يمكن تسمية النظام الذي تختلف أصوات العقول فيه ولا تنتظم الأفكار المختلفة ضمنه؟»

لم نستطع الإجابة عن هذا السؤال بقدر إجابتنا عن سابقه. قال بعضنا بتساخف "معارضة" أو ما شابه. وأحدهم قال "نظام متعدد الأحزاب". وحتى إن أحد التائهين قد ذل لسانه بقول "إرهاب". شعرنا وكأنه يتم التحقيق معنا وعلينا قول شيء. لتربص أعين الرئيس فينا، وعدم الإجابة كان بمنزلة الوقوع بموضع المذنب.

قال: «كلا يا جيراني الأعزاء» وأضاف: «دعوني أقولها، الفوضى، الفوضى! إن النظام الذي تختلف أصوات العقول فيه يدعى الفوضوي! أليس كذلك؟»

قلنا هذه المرة بصوت واحد: «صحيح!» عندما أقول "بصوت واحد" أقصد مجازياً. إلا الكاتب كان ينظر أمامه باستمرار لم يفارق نظره عن نقطة على الطاولة وكأنه يدقق بحشرة وجدها عليها للتو. حيث جلس الكاتب في أبعد زاوية عن الرئيس، وكان الرئيس يرمقه بنظره بين الحين والآخر.

وفي هذه الأثناء، اقترب البقال من الطاولة بطبق يحمل فيه الشاي والماء بطلب من بعض الأشخاص. أوقفه الرئيس بصوت صارم قائلاً: «لا. قم بهذا العمل لاحقاً! نحن نعمل الآن. نحن ضمن اجتماع جدي. لن يموت الإنسان إذا بقي نصف ساعة دون شرب القهوة والشاي. أليس كذلك يا رفاق، أليس صحيح؟»

«صحيح!»

قال: «انظروا، فلنختصر الحديث. لن يريد سكان هذه الجزيرة كما أي مجتمع إنساني أن يعيشوا بالفوضى».

«لن يريدوا!»

«جيد! هذا الأمر يدفعني للتفكير. ما دام هناك اختلاف آراء في المواضيع الرئيسية، أعتقد أن طريقة تجاوزها تكمن في نظام إدارة للجزيرة. حسب ما علمت من جاري العزيز - في هذه الأثناء كان يؤشر على الرقم ١ برأسه - أنه لم يتشكل مجلس إدارة في الجزيرة حتى هذا اليوم. جرى كل شيء بشكل متسيب. أليس صحيحاً؟»

«صحيح!»

بات كل هذا الكم من "الصحيح" يضيق أنفاسنا.

وتابع الرئيس: «إن مجلس إدارة مهم لهذه الجزيرة يا رفاق. سيتخذ القرارات بما يخص الجزيرة عند لزوم الأمر، وسيضمن سير الحياة بطمأنينة وبشكل لن يزعج أحداً. مجلس إدارة سيقف أمام اختلاف الآراء. وثمة أساليب لتأسيس هذا المجلس. وهذا الأسلوب سيكون ديمقراطياً بالطبع. الديمقراطية أسمى القيم. صحيح يا رفاق؟»

«صحيح!»

وفي هذه الأثناء وقع ناظري على المكان الذي كان يجلس فيه الكاتب. انسحب بهدوء دون أن يلاحظه أحد. فكرت بكم هو لإنسان غريب. لمته قليلاً لأنه انسحب وغادر المكان في الوقت الذي يجب أن يعارض فيه الرئيس.

«يدل هذا التجمع على أنه جمعية عامة. يجب على الجمعية العامة أن تنصب مجلس إدارة من ضمنها. برأيي يجب أن يتألف هذا المجلس من خمسة أشخاص».

«نعم صحيح!»

«هل يوجد يا رفاق بيننا متطوعون من أجل هذا الموضوع؟ فليكتبوا أسماءَهم ونحن سنصوت».

جهز رجال الرئيس، الذين كانوا يتجولون حولنا باستمرار، الورق والأقلام التي بيدهم ليسجلوا أسماءً، ولكن لم ينبسْ أحد ببنت شفة. سأل الرئيس مرة أخرى إن كان يوجد بيننا متطوعون. مرة ثانية لم يتكلم أحد. بعدها رفع الرقم ١ يده وطلب الإذن بالتكلم.

قال الرئيس: «تفضلوا، هل تريدون قول شيء؟»

«نعم يا سيدي الرئيس، برأيي أنتم من يجب أن يكون رئيساً لهذه اللجنة.»

صفّق عدة أشخاص، ولكن الرئيس قاطعهم برفع يده قائلاً «توقفوا!». وتابع: «لم يتشكل مجلس الإدارة بعد، يجب أن يتم كل شيء حسب الأصول». وعندما رأى أن أحداً لم يتفوه بكلمة قال: «ولكن، أنا أتشرف بإبلاغكم عن استعدادي لتسخير تجاربي وحبي للمعروف في خدمة جيراني في الجزيرة استناداً إلى تجربتي الإدارية التي منحتها لي السنون، والأعوام التي قضيتها في خدمة الدولة. الوظيفة واجب، لا صغير أو كبير فيها. كل شيء من أجل جزيرتنا!»

قال هذه الكلمات الأخيرة بصوت عال لدرجة أن جميعنا بدأ بالتصفيق. سأل الرئيس للمرة الأخيرة إن كان يوجد متطوعون بيننا ليتقلدوا هذا المنصب. لم يُجِبْ أحد منا. بسبب بعدنا سنوات طوال عن المشاكل البيروقراطية. لم يكن من السهل مجاراة الحالة الجديدة.

قال الرئيس الذي رأى أننا لم نتكلم بشيء: «لدي اقتراح، أقترح صديقنا الرقم ١ بصفته صاحب الجزيرة، للعضوية الطبيعية الدائمة في اللجنة».

زمجرت الجمعية العامية بقولهم: «أووو!»

قبلنا الاقتراح بالتصفيق. انتصب الرقم ١ من مكانه وقال: «يا رفاق، أشكركم على هذه الثقة التي منحتموني إياها. أعدكم أن أفعل ما بوسعي لأكون لائقاً بجزيرتنا الجميلة. كل شيء من أجل جزيرتنا».

رأينا كيف اغرورقت عيناه. سمعنا ارتعاش صوته. أثَّر هذا الوضع فينا أيضاً. كنا سنصرخ معاً "أرواحنا فداء لهذه الجزيرة".

إلى هذه الدرجة تحمسنا.

عاد الرئيس إلى الرقم ١ ،وقال: «مبروك!»، وأضاف: «حسب ما فهمت من تصفيقكم اللطيف أنه اتضح الآن اثنان من أعضاء اللجنة الخمسة. والآن سنختار الأشخاص الثلاثة الباقين ولكنني شخص أؤمن بوجوب أن تأخذ النساء أمكنتهم إلى جانب الرجال في مجتمع ديمقراطي وحضاري. يجب على نسائنا المحترمات، أمهاتنا،

زوجاتنا، وأخواتنا أن يشاركن في الحياة الاجتماعية. يجب أن يتحملن مسؤوليات عالية. ولهذا السبب، أقترح بشدة اختيار عضو من النساء».

طلب الرقم ١ الكلام مرة أخرى وقال: «سيدي الرئيس، أشكركم لمشاركتكم لنا أفكاركم الراقية هذه. أنا أكلف السيدة زوجتكم المحترمة كعضو ثالث. إذ إنها أكثر النساء على جزيرتنا خبرةً واتقاناً لهذه الأعمال.»

صفقنا. قدمت زوجة الرئيس الشكر بهزة رأس هادئة ولم تلقي كلمة. كانت زوجة الرئيس ممتلئة الجسم وعيونها تبدو وكأنها نصف مغلقة.

قال الرئيس له أيضاً: «مبروك لك يا سيدتي!» وأضاف: «بما أنه لم يخرج متطوعين آخرون، سنحدد الشخصين الباقيين عن طريق القرعة». أشار بيده فركض إليه أحد الرجال الصارمين وبيده كيس أسود.

في هذه الأثناء، علق في ذهني الذي أصابه الشك فكرة شيطانية متأثراً بكلام الكاتب؛ فكرت أنه أساساً اتضح ثلاثة من خمسة أشخاص في اللجنة. شككت في أنهم قد قاموا بتدبير ذلك مع الرقم ١. رغم ذلك كنا جميعاً نشاهد ذلك عل أنه تمثيلية مسرحية مسلية. ولم نأخذها على محمل الجد. ماذا يمكن أن يخرج من مجلس إدارة لجزيرة صغيرة مثل جزيرتنا. ربما كان الرئيس يخترع لعبة بدلاً من إدارة الدولة التي خسرها كيلا يشعر بالفراغ. ما كان يجري ليس سوى مسرحية، لا أكثر. ولهذا السبب كنا نشارك في التمثيلية بطريقة ممزوجة بالمزاح بقيامنا بتهليل أكثر. كنا نشجع الجميع بقولنا "برافو!" وما شابه ذلك.

قال الرئيس: «في هذا الكيس أرقام من الواحد حتى الأربعين! أي رقم سيخرج باستثناء "١" و"٢٤" سيتثنى لصاحبه القيام بدوره في مجلس الإدارة.»

ثم رأينا الرجل يغطس يده في الكيس ليسحب ورقة ويخرجها. أعطى الورقة للرئيس، وهو بدوره فتحها وقرأها: «الرقم ٣٧!»

صفقنا.

ثم قام الرجل بإعطاء الرئيس ورقة ثانية.

«٧»

نظر الرئيس حوله، وحاول أن يفهم من هو الرقم ٧. ولكن لم يتكلم أحد، كان الجميع ينظر بعضهم في بعضٍ. سكب الماء الساخن من رأسي حتى أسفل قدمي. لم يكن يخرج صوتي لشدة تلبكي.

قال الرئيس بنبرة صوت عصبية قليلاً: «من هو الرقم ٧ يا سادة؟ فليقم الرقم ٧ واقفاً من فضلكم.»

مرة أخرى لم يتكلم أحد. رفعت يدي. قال الرئيس «تفضل!»

قلت: «سيدي، اضطر صديقنا لمغادرة الاجتماع لأنه قد توعك قليلاً. إذا سمحتم سأعلمه بما جرى.»

صفقوا من جديد. وبذلك دخل صديقي الكاتب العزيز في لجنة الرئيس.

علي الاعتراف أن ضيقاً قد أصابني في تلك اللحظة. حدقت مطولاً، بعد انتهاء الاجتماع، بالشمس التي كانت تغيب في البحر وكأنها كرة لهب وبدأت أفكر. ربما حصل هذا أثر شعوري بهاجس داخلي مشئوم تجاه قدرك. كانت أول لحظة أتكهن فها بعض الشيء حول ما كان سيصيبك. سألت نفسي مرة أخرى إن كانت الناس تتغير حسب الأحداث أو أنها الأحداث تتشكل بحسب الناس. أصبحت مضطراً للوجود مع الرئيس في اللجنة نفسها بالرغم من نيتك في البقاء بعيداً عن المشاكل وتجوالك في الجبال والمنحدرات دون أن تظهر في بين الناس في الجزيرة. ما هذا الحظ!

- ٦ -

بالرغم من شعورنا بوجود الرئيس في حياتنا مع مرور الأيام، كنا مستمرين بعدم رؤيتنا للأحداث وبعدم تفسيرنا للتطورات جراء سلوكنا الساذج مراراً. ربما ما قاله كان صحيحاً، بعيشنا في تلك الجزيرة بعيداً عن المدن والحضارة تحولنا إلى أناس بدائيين. الآن عندما أنظر إلى الوراء، أرى بوضوح أن موقفنا هذا ينبع من كسل وخمول مفرط. لم نكن نحتج على شيء، لم نعترض على شيء. كنا نقول: «فليعش الثعبان الذي لن يلمسني ألف سنة!» ولكن لم نكن نضع في الحسبان أن الثعبان سيلمسنا.

استمر سلوكنا غير المضبوط هذا حتى بعدما أصاب ذاك الولد المسكين الذي يقوم بتقديم الخدمات إلى المنازل. رغم حبنا جميعنا لهذا الولد الشاب الأبكم محدود الذكاء الذي لم يَرَ المدرسة بحياته والذي يقضي وقته، خارج أوقات عمله، في النظر إلى الأفق وبناء الأحلام. ربي على أيدينا. كان كقطعة من منزلنا. كان البقال يُوَزّعُ الأشياء الأساسية مثل الحليب والخبز والجبن إلى المنازل جالبا إياها بسفينة الركاب، وينقلها بالقارب إلى الجزيرة. عند استيقاظنا صباحاً كنا نجد أمام أبواب منازلنا كل شيء كنا قد أوصيناه به قبل يوم.

استمر هذا الأمر حتى رأينا الولد أحد الأيام يبكي في الطريق الرئيسي واضعاً يديه على عينيه. كانت عينه محمرة وكأنه تلقَ لكمة عليها، وستزرق وتغلق في اليوم التالي. لم يستطع إخبارنا ما حصل لأنه أبكم. فضل، كما يفعل دائماً، الانزواء والبقاء وحيداً. كنا أذكياء لدرجة إدراكنا أن للأمر علاقة بالرئيس أو برجاله. ولكن بعضنا لم يبادر، وبعضنا الآخر لم يتجرأ حتى على التفكير.

بقيت الحادثة طي الكتمان حتى وقت البلاغ التالي. كان البلاغ الموزع على بيوتنا - ومن قبل والد الصبي- واضح جداً. يحكي عن قيام ابن البقال بالإخلال بجميع مبادئ الأمن وحرمات الحياة الشخصية المعروفة عالمياً لتجرئه على الدخول إلى شرفة الرئيس في ساعات الصباح الأولى من يوم أمس، ومعاقبته لهذا السبب.

وضعت قوانين جديدة بهذا الخصوص من قبل لجنة الرئاسة:

ممنوع الدخول إلى المنازل أكثر من ٦ أمتار التي تعدُّ الحدود الأمنية للحدائق.

سيوزّع عناصر الخدمات المعنيون اللوازم صباحاً بين الساعة ٩ والساعة ١١ شريطة عدم تجاوز الحدود المبينة.

سيكون بإمكان سكان المنازل معاقبة كل من يخل بهذه القواعد الموضوعة من قبل لجنة الجزيرة بأشد العقوبات.

عندئذ أخبرنا والد الطفل حزيناً وعيونه مليئة الدموع استناداً إلى ما قاله أحد سكان الجزيرة ممن كانوا شاهدين على الحادثة: «في ذلك الصباح حمل الولد إلى منزل الرئيس طلبية الحليب والبسكويت التي طلبت قبل يوم. بدأ بالتوزيع من منزل الرئيس أولاً، ربما لأنه أدرك التسلسل الهرمي الجديد في الجزيرة. وصل إلى هناك مبكراً. وبينما أوشك أن يضع الحليب على باب الشرفة قفز أحد الأشخاص فجأةً من الحديقة ولكمه على عينه مطيحه أرضاً، وسأله من يكون وعما يفعله هنالك بهمس غاضب محاولاً عدم إيقاظ أهالي المنزل. وبعدها أطلق سراحه».

كل هذا كان يظهر الرعب المدهش الذي يعيشه الرئيس، وأنه كان يضع حارساً بعيداً عن أنظارنا حتى في حديقة منزله في جزيرتنا الهادئة. مما أصابنا بالحيرة.

كان القارب لا يزال راسياً على الرصيف. ولم نكن نعرف كم من المدة بعد سيبقى هؤلاء الرجال.

عندما سألت الكاتب الذي بات عضواً في اللجنة الرئاسية إن كان لديه علم أو لا حول هذا البلاغ، هز يده كما يطرد الذباب وقال: «لا يا رجل.فقبّح اللهّ وجهه، لا أريد رؤيته. لم أذهب إلى الاجتماع بعد. ولا أدري ماذا بإمكاني أن أفعل إن ذهبت.»

أخذ التوتر في الجزيرة شكلاً ملموساً باليد بشكل أكبر يوماً بعد يوم حتى لو لم يكن لأحد أن يعترف بهذا. خلق الطريق في داخلنا قلق مدهش ولا سيّما عند حلق رأسه وكأنه امرأة عذراء هتك عرضها ترقد ممتدة تحت الشمس.

وصل هذا القلق ذروته مساء اليوم. استيقظنا على أصوات السلاح وقفزنا إلى خارج بيوتنا نصف عراة لا ندري ما الذي أصابنا. كنا نعيش حالة ذعر غير مسبوقة في الجزيرة. حتى النوارس التي اعتادت الهدوء في الليل كان تطير وهي تصرخ.

بناءً على قول بعض الأشخاص إن أصوات السلاح قد أتت من منزل الرئيس، ركضنا بذلك الاتجاه بفضول وقلق. رغم عدم ترجيحنا ذلك ولكن هل يمكن أن يكون الرئيس محقاً في خوفه من الإرهاب، وتمت مداهمة جزيرتنا؟

عند وصولي إلى حديقة الرئيس، رأيت الرجال والنساء ممن كانت بيوتهم أقرب إلى بيت الرئيس قد تجمعوا في الحديقة. صرح الرئيس أنه "كان هنالك إرهابي يمشي على الشرفة". رؤيتنا له بخير وسلامة طمأنت نفوسنا نوعاً ما ولكنها لم تكفِ لاستبعاد التساؤلات من عقولنا. كيف يمكن لإرهابي أن يأتي إلى هذه الجزيرة الغريبة. أين يمكنه الاختباء. بات رجال الرئيس وفي أيديهم الأسلحة -التي لم يجدوا الضرورة لإخفائها بعد الآن- يرمقوننا وكأننا أعداء. كنا نحمر ونصفر أمام هذه النظرات ونشعر وكأننا مذنبون. حاول جيراني أشباه العراة بشعرهم المنكوش لوهلة إدراك ما حصل. حتى الكاتب كان هناك.

كان الرئيس قد تفادى خطراً كبيراً. وبهيئة شجاعة وكأنه أراد تهدئة شعبه، قال: «لا تحزنوا يا أصدقائي، هذا أمر جدي ولكن حمداً لله كما ترون لم يُؤْذِنا الإرهابي أو الإرهابيون. حاولوا قتلي سابقاً عدة مرات، ولكنهم فشلوا في كل مرة بمساعدة الرب العظيم. بت معتاداً هذا الوضع، أرى ذلك كبدل للخدمات التي قدمتها للبلاد. ولكن علي الاعتراف أن هذه الأحداث تترك آثاراً سيئة على عائلتي ولا سيّما أحفادي الأعزاء. والآن علي إبلاغكم بكامل حزني أنه سيتم تفتيش كل مكان، كل جزر شجرة، كل فتحة، كل مغارة، و- للأسف - كل منزل. تم تكليف عناصر الحراسة بإيجاد وإخراج هؤلاء الخونة من مخابئهم والتحقيق معهم والقضاء عليهم إذا لجؤوا إلى الاشتباك. أعتذر إلى جيراني الأبرياء على الإزعاج الذي سنسببه لهم ولكن إن وجد أحد منهم متواطئاً في هذه الأحداث فسيدفعون الثمن بأقصى شكل كما غيرهم».

كنا متفاجئين ومصابين بالذعر وبحالة دوار. نستمع الكلمة ولا نصدق ما جرى. في هذه الحالة، بات تفتيش منازلنا حقيقة. كنا ننظر بعضنا إلى بعضٍ بحيرة، ولا نستطيع تخمين ماذا سنقول وما الموقف الذي سنتخذه. كان أحفاد الرئيس يحضنون جدتهم. يرمقوننا جميعاً بشك.

سمع صوت في هذه الأثناء: «هل تستطيعون شرح كيف حصلت الحادثة يا سيدي الرئيس؟ هل أُطلقت النار عليكم؟ هل رأيتم شخصاً أو أشخاصاً؟»

وقعت أنظارنا جميعاً على الكاتب. كان يتحدث مع الرئيس لأول مرة. ربما كان أول شخص والوحيد في الجزيرة الذي يوجه سؤالٌ له.

«دعوني أشرح!» قالها الرئيس وتابع: «كان الوقت تجاوز منتصف الليل بقليل. كنت قد خلدت للنوم تواً. وأوشك أن أغفو، فسمعت شخصاً أعتقد أنه بدين بعض الشيء يتمشى على الشرفة. من المؤكد أن شخصاً يأتي إلى شرفتي بهذه الساعة لم تكن نيته جيدة. اعتقدت أنهم اجتازوا الحرس أيضاً، فتناولت سلاحي وتوجهت إلى الشرفة وسألته من يكون. ولكن الرجل لم يجبْني واستمر بالمشي على الشرفة. سألت عدة مرات أخرى "من أنت؟ وماذا تفعل هنا؟" فلم يجبني. واستمر بالمشي مصدراً أصوات بأقدامه دون أن يأبه إلى كلامي رغم تحذيراتي له بالقول "أسألك للمرة الأخيرة، وإلا أطلقت النار". فتمترست خلف العمود، وأخرجت يدي فقط إلى الخارج، وأطلقت النار ثلاث مرات عشوائياً. فانقطع الصوت بناءً على ذلك. أعتقد أنه هرب في تلك الأثناء. أساساً لم يجد عنصر حراستي أحداً على الشرفة التي استكشفها. ولهذا السبب علينا البحث في الجزيرة وإيجاد هذا الإرهابي».

قال الكاتب: «سيدي، حمداً لله على سلامتك، ولكن هل بإمكاني أن أسألك سؤالين آخرين لنفهم الموضوع؟»

يبدو على الرئيس أنه قد أعجب بوجود جار يهتم بصحته إلى هذا الحد، فقال: «أعتقد أني لم أَرَك سابقاً يا سيد.»

قال الكاتب: «نعم يا سيدي» وأضاف: «كنتُ عند التقاط الصور وفي الجزء الأول من الاجتماع تحت العريشة، ولكن ربما لم أحظى بشرف ملاحظتكم لي. علمت

أنه جرى اختياري ضمن اللجنة الرئاسية أثناء مغادرتي الاجتماع نتيجة بعض الواجبات».

قال الرئيس: «هاااا، فهمت الآن، في هذا الحال سنلتقي مكثفاً من الآن فصاعداً.»

أعتقد أنه لم يدرك السخرية المبطنة في كلام الكاتب وفرح لإيجاده حليف صلب آخر في الجزيرة.

قال الكاتب: «سيدي، يمكن رؤية أي قارب يجتاز البحار ويقترب من هذه الجزيرة، كما يمكن سماعه. من غير الوارد الدخول إلى الجزيرة بسرية. لذلك أقترح إلى الوقوف عند احتمالات أخرى أيضاً».

«احتمالات مثل ماذا؟»

«على سبيل المثال، ربما لم يكن إرهابياً من كان يتمشى على الشرفة.»

«برأيكم من يمشي في تلك الساعة في شرفة المنزل دون أن يحمل نية سيئة؟»

«لا أعلم. ولكن بناءً على ما قلتموه، إن هذا الإرهابي لديه هواية في إصدار الضجيج، فهو يمشي ويصدر ضجيجاً كافياً لإيقاظكم. واستمر بهذا الأسلوب رغم تحذيراتكم. غير منطقي، تخبرونه أنكم ستطلقون النار وهو سيستمر بالضجيج. هل هذا طبيعي برأيكم؟»

كان يمكن الإحساس ببدء الرئيس بالغضب قليلاً أمام أسئلة هذا الرجل المتحذلق الذي ظنه صديقاً في بداية الأمر. فقال: «حسناً يا سيادة محقق، نظرياتكم هذه جميلة ولكنها لا تغير شيئاً. أكرر سؤالي: أي شخص سيمشي على شرفتي منتصف الليل، ولا يجيب عن أسئلتي؟ ثم لماذا لم يفصح عن هويته؟»

«سيدي الرئيس، ربما لا يجيد الكلام.»

تعجب الرئيس في بداية الأمر وقال مدهوشاً: «يا رفاق، هل يوجد أحد أبكم في جزيرتنا؟»

بدأنا نفهم شيئاً فشيئاً إلى أين يذهب الحديث، إذ كانت النوارس عدة مرات تتمشى على شرفاتنا، ولكن، اعتدنا الإجابة عن أسئلة الرئيس مركزين بها، ولا نضيف

شرحاً إلى إجاباتنا. قلنا: «كلا، لا يوجد!». لم يكن ابن البقال يتكلم ولكن من المستحيل له القيام بأمر كهذا.

«هل رأيتم؟» قال الرئيس وأكمل: «والآن دعونا نكف عن العبث بالأسئلة السخيفة ولنترك عناصر الحراسة يقومون بالتحريات اللازمة.»

اعتقدنا أن الحديث قد انتهى ولكن على حين غرة سمع صوت الكاتب مرة أخرى:

«عذراً سيدي الرئيس، ربما لم تكن تحمل الأصوات على شرفتكم صيغة تهديدية.»

غضب الرئيس كثيراً بعد أن كان قد لفه الخوف قبل قليل وقال: «يا سيد يا سيد، ما هي غايتكم؟ أي طريق مغلق تنوون تضليل التحقيق الأمني الجدي هذا فيه؟ أجيبوني. أي إنسان يتمشى على هذه الشرفة في هذا الوقت من الليل دون أن يحمل نية سيئة؟ أي إنسان لا يرد على تحذيراتي بإطلاق النار؟» وقف ونظر إلينا ثم ضحك بغضب: «انظروا، حتى إنه لا يوجد أحد في الجزيرة لا يجيد الكلام.»

قال الكاتب: «ربما لم يكن إنساناً من كان يتمشى على شرفتكم. ولهذا السبب لم يكن يجيب عن أسئلتكم».

كنت أستطيع رؤية ابتسامة تنتشر على وجوه جيراننا رغم ظلمة الليل. زَأَرَ الرئيس قائلاً: «ماذا تقول يا رجل! ماذا كان إن لم يكن أنساناً، هل تعيش دِبَبَةٌ كبيرة في جزيرتكم ولا أدري بها؟ ربما كان ديناصوراً؟»

«لا يا سيدي» قالها الكاتب بصوت هادئ «إنه نورس!»

«أي نورس؟»

«النورس الذي تعرفونه. جميع من يعيش في هذه الجزيرة يعرف جيداً أن النوارس تتمشى ليلاً على الشرفات وأن الأصوات التي تصدرها تحاكي خطوات رجل سمين. في البداية يبدو الأمر غريب جداً بالنسبة للذين لا يعلمون. لا يمكن للناس معرفة كيف لهذه الأصوات أن تصدر من كائنات صغيرة كهذه. ولكن ربما يمشون كرجل سمين في صمت الليل نتيجةً لطبيعة أقدامهم. أليس كذلك؟»

كان ينظر إلينا. فقلنا: «نعم، كذلك بالفعل.»

قال الكاتب: «إذا سمحتم سيدي الرئيس فلْنُجْرِ تجربةً على الشرفة. يمكن أن تكون على المدخل الذي تقفون عليه أيضاً.»

ثم بدأ بالسير مصدراً أصوات ضجة أمام نظرات الرئيس الحائرة.

«هل كانت الأصوات تشبه هذه سيدي الرئيس؟»

لا بد أن مزاج الرئيس صار كما القائد الذي رأى تفتت جيشه ولكن كيلا يقع في أعين سكان الجزيرة بموضع الرجل الخائف من النوارس، قام بمحاولة أخيرة وقال: «سخيف جداً! هل أبدو أنني رجل لا يستطيع التفريق بين الناس والنوارس؟»

بات صوته يصدر بشكل ضعيف. اهتزت الثقة التي كان يشعر بها.

كان يرانا نوافق الكاتب الرأي ونؤيده بهز رؤوسنا. وصل إلى نقطة الاستسلام بسرعة عندما قال الرقم ١، أكثر الرجال الذين يثق بهم في الجزيرة: «نعم سيدي، إن النوارس تصدر أصواتاً كهذه بالفعل.» ولكن لم يكن الكاتب قد وجه ضربته القاضية بعد.

ثم عاد إلى الحارس الشخصي ذي نظرات الشاهين وسأله: «هل رأيتم نورساً يطير بعدما أطلق السيد الرئيس النار؟» مع إجابة الرجل بارتباك: «نعم!» فجرنا مجتمعين في الحديقة ضحكات ارتياح من تهديد الإرهاب.

لم يبقَ للرئيس شيءٌ ليفعله. تقبل الموقف شاء أم أبى، وظهرت على وجهه ابتسامة قسرية. تحول الرئيس من موضع البطل المقتدر المستهدف بسبب خدماته التي قدمها للدولة إلى موضع الخائف من النوارس والرجل الذي يطلق النار دون سبب.

سهوةً سأل أحد العناصر: «هل سنفتش المنازل سيدي؟» لم يهمل الرئيس، الذي كان يمشي باتجاه الباب، الصراخ بضغينة: «اغرب عن وجهي هيا إلى مكانك!»

اعتباراً من هذه الليلة، كان يوجد عدوان اثنان للرئيس: أحدهم النوارس التي لم تكتفي بإخافة حفيدته العزيزة، وأدت إلى أذية يدها فحسب، بل وضعته في موضع المضحك وأهانته أمام جيرانه الجدد. والرجل المتحذلق الذي وضح الأمور بأسئلته، أي الكاتب!

بات القليل حتى تبدأ الحرب.

- ٧ -

لا أظن أن أحداً استطاع النوم تلك الليلة. بقيت الأضواء في المنازل مشتعلة حتى الصباح بسبب هذا الكم الهائل من الأحداث المثيرة. لم نتفاجأ. أنا ولارا أيضاً جلسنا، عند عودتنا إلى المنزل، في الأرجوحة التي تتسع لشخصين تحت شجرة المغنوليا وضم بعضنا بعضاً. وبقينا هكذا لمدة طويلة دون أن نتحرك. كنا نخاف حتى من التنفس ونأمل المدد من دفءِ بعضنا بعضاً للاضطراب الغريب داخلنا وبسبب وصول الحدس حول حدوث أشياء سيئة إلى حالة ملموسة. كانت رائحة الصابون النظيف تهب من شعرها الأشقر الناعم الذي يداعبه نسيم الليل العليل.

اكتشفتها منذ عدة سنوات عندما كانت تعمل كنادلة في إحدى المقاهي في العاصمة. كانت تقف مكسورة الخاطر ومجروحة القلب كعصفور صغير طرد من العش لدرجة أنه بدأت الشفقة الكامنة داخلي بالسيل نحوها.

كنت أشعر بلين وأناقة تفتنني في هذه الفتاة النادلة التي كانت تدخل وتخرج دون توقف من المطبخ خلف البار وكانت تشكر الزبائن الذين يتركون لها البقشيش بانحناءة خفيفة كفتاة صغيرة عندما كانت تضع الأطباق على الطاولة بحزن ولكن بابتسامة أنيقة.

لم أكن أعلم حتى ذلك اليوم عن وجود عاطفة داخلي إل هذا الحد. كانت هذه المشاعر واضحة بعيوني لدرجة أن أي زاوية كانت تذهب إليها في المقهى، تعود وتبدأ برمقي. كانت ترصدني وكأنها تريد معرفة إن كنت أنظر إليها أو لا. ذهبت في اليوم التالي إلى ذلك المقهى، ومرة أخرى في اليوم التالي، ثم مرة أخرى، ومرة أخرى.

بتنا يلقي بعضنا السلام على بعض ونبتسم ونتحدث بعدة جمل. كنت أنجر للاعتقاد بأنها تزيد الاهتمام بنفسها يوماً بعد يوم، وتسرح شعرها الأشقر بدقة أكثر، وترتدي ألبسة أكثر جاذبية. فكنت نتيجة ذلك أعطي لنفسي حصة من الفخر. كنت حديث الطلاق من زوجتي في تلك الفترة، فكنت ضمن فراغ. كنت أعيش كرجل

هزيل وجبان، مطلق، ليس لديه أولاد، لم يكن عمله على ما يرام، يعتقد أنه غير محبوب في المصرف الذي يعمل به، يعيش بشق الأنفس على مرتبه الصغير، يحاول البقاء بعيداً عن الصدامات السياسية في الدولة لكنه لم يكن يتلذذ بالحياة.

أكبر صنيعة لي في هذه الحياة النمطية والعادية والخجولة، هي طلبي من تلك الفتاة النادلة للخروج معي للعشاء في يوم أخذت إذناً فيه من صاحب العمل. قبولها دون غنج، كان المكافأة غير المتوقعة لهذا الأمر. ربما انتظاري كل هذه المدة الطويلة بسبب طبيعتي الخجولة، ولد فيها خوف عدم مجيء اقتراح كهذا. ربما لهذا السبب قالت فوراً "نعم" موافقةً.

في أول لقاء لنا كانت ترتدي ثياب برتقالية تليق بها. خدودها بيضاء ناصعة. التمست شيئاً يقلقها عندما قالت "لا يمكنني التأخر كثيراً". ولكن الذي تعلمته عنها في أول ليلة من لقائنا كان كافياً لإدراكي أنها كانت تتخبط ضمن مخالب زواج تعيس. كانت في حالة خوف. لاحقاً عندما رأيتها في المقهى في أحد الأيام، علمت من خلال محاولتها تغطية وجنتها بشعرها، أنها كانت تتعرض للضرب من قبل زوجها. استمرت علاقتنا. صارح بعضنا بعضاً.

كان زوجها رجل فظ يمارس أعمال مشبوهة ويدخل السجن بين الحين والآخر. يضربها في معظم الأحيان عند عودته مخموراً في الليل. تعانقنا بعضنا على الأريكة في منزلي الذي كنت أقطنه بمفردي في الليلة التي أخبرتني بذلك باكيةً. قبلتها بألم مذهل في داخلي. وانجررنا لمضاجعة عميقة، بطيئة، وحنونة تضع المرهم على جروحنا وكأننا أردنا معالجة جراحنا.

لم أعد أفكر تلك الليلة إلا لأخلص الفتاة من هذه الحياة ومن هذا الرجل. لم أعد أحتمل فكرة تعرضها للضرب مرة أخرى. كانت حالتها، الرصينة غير المتذمّرة الراضية لقدرها، تمزق داخلي أكثروأكثر.

تناقشنا كثيراً في هذه المواضيع. قلت لها أن تطلب الطلاق، ولكن أجابتني أن زوجها لن يقبل بهذا الشيء مطلقاً، وأنه سيكسر عظامها. لم يكن هناك حل سوى

اختطافها. ولكن إلى أين؟ أنهكت تفكيري في تلك الليالي ووضعت ألف خطة وخطة. حتى إني فكرت في سرقة البنك الذي أعمل فيه، واستأجر بالنقود التي سأحصل عليها من هنا قاتلاً مأجوراً ليقتل زوجها. ولكن حتى عندما كنت أتخيل وأخطط هذه الخطط، كنت أعلم أنه لن أنفذ أي منها. كانت الأحلام من أجل تعزيتي وتهدئة مشاعر عجزي لمدة قصيرة فقط.

لاحقاً ومن دون سابق إنذار خطرت ببالي الجزيرة والمنزل الذي اشتراه والدي فيها، واللذين تحدث عنهما عمي العجوز قبل أن يموت.

لم يهتم أحد في العالم كله بهذا المنزل لاعتقادهم أن لا قيمة له. لم أكن أعتقد أن مجد هذا المنزل الذي يحكى عنه سيكون مثل الحكايا. إذ كان سينفعنا منزل عتيق في الجزيرة التي لا يزورها أحد ولا علاقة لها بالحضارة.

بات هذا المنزل المنسي مخلصنا. مسحنا أنا ولارا أثرنا من هذا العالم. اختفينا من الأوساط وخلقنا من جديد في جزيرتنا. في الفترة التي خطونا فيها هناك، أردت إثبات أننا تركنا حياتنا القديمة في الماضي على أمل عدم عودتها أبداً، وقررت تسمية حبيبتي "لارا". كان اسم أجمل خليج في الجزيرة. كان خليجاً صغيراً، تضيء الرمال التي في قاعه، مياهه البراقة الشفافة النظيفة تركوازية اللون، كما في عالم الحكايات. مثل حبيبتي تماماً. ما كنا سنستخدم اسمها القديم أبداً. كان اسمها الجديد نوعاً من الفأل الجيد، وبداية جديدة.

أنعشنا تلألؤ الأشعة على سطح البحر وأضواء القمر المنعشة وروائح الياسمين. منحتنا حياة جديدة. أنستنا ماضينا.

ولكن في تلك الليلة على أرجوحتنا في الحديقة شعرنا لأول مرة بالقلق منذ أول يوم أتينا فيه إلى الجزيرة.

همست لارا: «هذا يعني أن العالم السيِّئ لم يعد بعيداً عنا!». أردت تهدئتها بتقبيلها مطولاً. أخذتها إلى فراشنا الذي يعدّ المعبد الصغير لجسدينا التي نداوي بها بعضنا بعضاً، لأمنع عودة الذكريات السيئة.

لم يكن يوجد شخص يداوي الكاتب أو يقدم له الحنان. عندما بحثتُ عنه في صباح اليوم التالي لم أجده. قيل إن الرئيس قام منذ الصباح الباكر باستدعاء لجنة الجزيرة لاجتماع طارئ. بالفعل لم يكن المنتخبون للجنة في الأوساط. كان سكان الجزيرة ينتظرون بحالة قلق. يرمون بين الحين والآخر نظرات قلقة باتجاه منزل الرئيس الذي يعقد فيه الاجتماع. من يدري ما نوع القرارات الجديدة التي ستصدر من هذا الاجتماع الطارئ. لم تعد نفوسنا مرتاحة كالماضي. كانت تهمس هذه المواضيع في الشواطئ والحدائق الملتجئة إلى عتمة الليالي وفي مشاوير المساء.

أجبر سكان الجزيرة على السير تحت أشعة الشمس الحارقة في الطرق المظللة ذات الأشجار الخضراء التي سلبت منهم. وكان جزءٌ كبيرٌ منهم لا يخفون شعورهم بالاضطراب من التطورات حتى لو لم يعارضوا الرئيس بشكل مباشر. كان بعض أصدقاء الرقم ١، الذي أصبح من رجال الرئيس أكثر من قبل، يدافعون عن فكرة أنه أمر جيد مجيء النظام والالتزام إلى جزيرتنا. لم يكن يخفي عدد من الأشخاص، خارج هاتين الشريحتين، شعورهم بالامتنان نتيجة حصول الإثارة في الجزيرة. في كافة الأحوال، خلقت تسلية للجميع.

أستطيع القول أني كنت في ذلك اليوم مضطرب بقدر النوارس. لأنها كانت تنتظر أيضاً بقلق صخور الشواطئ المخصصة لها. جلس الآباء والأمهات عند بيوضهم منتظرين لا تفارق أنظارهم الدقيقة الأفق ثانية واحدة وكأنهم حراس قلاع. لم يكن بوسعنا عمل شيء للنوارس سوى تركهم مرتاحين في عالمهم لأنهم لم يكونوا يطلبون منا أي صداقة أو تقرب.

انتهى الاجتماع بعد الظهيرة وتم استدعائنا إلى اجتماع الهيئة العامة الذي سيعقد مساءً تحت العريشة. ركضت فوراً إلى الكاتب. اعتقدت أني سأجده غاضباً. لم أخطئ. كان يركل السلل والمنضدات ويكفر بلا توقف. حتى عندما فتحنا زجاجتي جعة وجلسنا تحت عناقيد العنب، لم يكف عن سب وشتم الرئيس. كان يقول: «جن هذا الرجل! جن بالتأكيد. إنه شخص مختل! ستحلُّ نهايتنا إذا امتثل الجميع إلى رغبات هذا

المَهُوْس. بدأت تضيق مجالات حياتنا منذ مجيئه. سترى، في نهاية الأمر سنضطر إلى ترك هذه الجزيرة».

بعد سعي حثيث جعلته يصل إلى النقطة التي سيتحدث بها عما يحصل. عند بداية افتتاحه للاجتماع، دخل الرئيس في صلب الموضوع، بحسب ما قاله، وقال إن أكبر تهديد في الجزيرة هو النوارس. لا يكفي أنها تغطي أجمل شواطئ الجزيرة وتمنع الناس هنا من النزول إلى البحر فحسب، بل أيضاً تهاجم هذه الطيور المتوحشة الناس، وتحول الجزيرة إلى جحيم لا يمكن العيش فيه. ولهذا السبب، اقترح الرئيس على اللجنة القضاء على هذه الطيور. عد وأحصى مطولاً أضرار الطيور. كانت اللجنة على وشك اتخاذ قرار القضاء على الطيور كون أغلب أعضائها مقربين من الرئيس، حتى نفذ تحمل الكاتب وطلب الإذن بالكلام ليبين أن مثل هذا القرار لا يمكن أن يحدد من قبل اللجنة، وأن القرار الذي سيتخذ يخص سكان الجزيرة، ولهذا السبب يجب مناقشته في الهيئة العامة. أصر كثيراً حول هذا الموضوع أملاً أن يفكر سكان الجزيرة بطريقة أكثر عقلانية من تفكير اللجنة.

أبدى الكاتب مقاومة مدهشة أمام تصميم الرئيس، الذي كان يكرهه أصلاً، على اتخاذ قرار عاجل. تحدث الرئيس عن عدة أشياء سخيفة لم يفهما حتى هو فإن قراراً كهذا أشبه بقرار حرب، إذا اعتبرنا الجزيرة دولة، يجب على المجالس اتخاذ قرارات الحرب، ولم يتطرق الكاتب أبد إلى تعرض حفيدة الرئيس للذعر غير اللازم وإيذاء يدها، وتخوف رجل بالغ من النوارس وقيامه بإطلاق النار. استطاع في النهاية إقناع اللجنة بهذا الأمر. لأن الرئيس وصل إلى قناعة مفادها أنه بالإمكان تنفيذ الصراع ضد النوارس بإرادة أكبر وأكثر فعالية إذا تم إشراك الجميع.

كان يقول: «بالطبع لن يُقبل قيام هذا المختل بعمل جنوني مثل فتح حرب على النوارس!» وكان واضح ارتياح وجدانه من خلال تكراره بعدها مباشرةً لأقوال تأتي بنفس المعنى.

قال الكاتب: «قف أنت أيضاً وقل شيئاً ضمن الاجتماع! حاول منع هذا الرجل من خداع أهالي الجزيرة. بل تحدث إلى الناس منذ الآن وحاول منع هذا الجنون».

قلت بصوت خافت: «ممكن! حاضر» بإمكاني التحدث إلى أهالي الجزيرة ولكن الوقوف في الاجتماع وإلقاء كلمة لم يكن أمراً ملائماً لطبيعتي الخجولة. لم أكن أثق بنفسي في هذا المجال.

مشيت قليلاً بعد أن فارقته، بعدها جلست فوق صخرة مقفرة وشاهدت النوارس مطولاً. نظرت إلى النوارس التي تنتظر عند بيوضها. رأيت مجدداً النورس العنيدة على ذات الصخرة المحدبة التي اعتاد الوقوف على رأسها ولم يكن يغادر تلك النقطة العالية إلا عند الصيد. باتت هذه المخلوقات بريئة في نظري أكثر من الإنسان والتي لم تكن تعلم بالسجال الذي يجري حولها الآن.

كانت أجنحتها أكثر رمادية عندما تخفضها. لأن ظهرها يمتلك اللون نفسه. ولكنها كانت بيضاء عند سباحتها في الهواء لظهور القسم الداخلي من أجسامهم. ترى من يدري ما هو الصراع الذي يفكر فيه هذا الرجل المجنون ضدهم؟ لاحظت أني بت أصبغ بالرئيس صفة "المجنون". لقد تمكن من إيصالنا إلى هذه النقطة خلال أسبوعين من الزمن.

جلست هناك ما يقارب ساعةً من الزمن. ثم قمت وبدأت أجول على أصدقائي. هذا يعمل في البستان وذاك نائم في الأرجوحة الشبكية وهناك من كان عائد من البقالية. أخبرتهم أن الرئيس على وشك ارتكاب حماقة، حيث قرر القيام بحرب على النوارس. قلت لهم إنه يجب التصدي لهذا الأمر.

أساساً كان الجميع يفكر مثلي. قالوا: «هل يجوز هذا الأمر الجنوني؟ ما ضرر النوارس؟ ما ذنب النوارس إذا كان قد خاف هو؟»

حتى إن صديقنا في الرقم ١٢ قال: «فليذهب ويجد لنفسه جزيرة أخرى إن كان يمارس ألعاب الحرب».

عدت إلى المنزل مرتاحاً بعض الشيء بعد هذه الأحاديث. حدثت لارا بما جرى. قلت لها: «أهالي الجزيرة عقلانيون، ولن يسمحوا بهذا الأمر».

نظرت إلى وجهي بقلق. كانت طبيعتها قلقة وكأن كارثة ستحدث دوماً، قد تزعزعت هذه الطبيعة جداً بالذي فعله الرئيس في الأيام الأخيرة.

قالت بلهجة شك: «آمل أن يحدث هذا!» ثم تابعت:

«هناك شيء تعلمته من الحياة، الظلم قوي جداً في كل مكان وهزيمته تكون أصعب. يبقى الخير أضعف».

قلت: «لا تقلقي. سنقاوم بكل قوتنا. لن يعم الظلم هذه الجزيرة».

لم أرى في عيونها الشهل التي ترمقني إشارة تصديق لما قلته. لذلك وجدت من الضروري القيام بمحاولة أخرى وبإصرار أكبر؛ لأنني لم أكن أتحمل رؤيتها حزينة. قلت لها وأنا أمسح شعرها الأشقر: «يا حبيبتي، ربما أنت محقة، ليس ربما، أنت محقة مئة بالمئة. إن الظلم في العالم ذو تنظيم وتخطيط عال. أساساً يوجد سذاجة في الخير. ولذلك الظلم يغلب السذاجة في كل مكان في العالم. ولكننا في الجزيرة حولنا هذا الأمر إلى نقيضه. انظري، خلال هذه السنين لم يكن بيننا منافسة ولا صراع ولا نزاع. هنا بلد الناس الذين اختاروا السلام. سترين، سيرفض جيراننا هذا الاقتراحات الخطيرة. والرئيس أيضاً سيضيق ذرعاً في هذه الجزيرة. سيلاحظ أنه غير مرغوب فيه. سيغادر من هنا في المستقبل القريب».

«ماذا إن اضطرنا نحن للمغادرة؟»

«لن يحصل هذا الشيء! سنبقى أنا وأنت إلى الأبد في هذه الجزيرة. لن نفترق حتى بعد مماتنا».

كنت أنتظر ارتياحها بكلماتي هذه عندما قامت لارا بأمر أدهشني. بدايةً قبلتني من شفتي بلطف. ثم بدأت بالبكاء. أدهشني انهمار دموعها كالأمطار الصيفية بقدر ما أدهشني حرارة شفتيها.

- ٨ -

اصطففنا حول الطاولات الملتصقة بعضها ببعضٍ في حديقة البقال مساءً. كان الرقم ١ يجلس على يمين الرئيس وعلى يساره تجلس زوجته. أخذ باقي أعضاء اللجنة - بمَنْ فيهم الكاتب الذي زاد تجهم وجهه - مكانهم على رأس الطاولة. لاحظت أن لباس الرقم ١ بدأ يشبه لباس الرئيس بشكل أكبر. الرجل الذي كان يجول عاري القدمين وحاسر الرأس كل هذه السنين، بدأ يرتدي السراويل المكوية والقمصان الناصعة. لم يكن جارنا الوحيد الذي يفعل ذلك. بدأ عدة أشخاص آخرين القيام بذلك.

ظننت أن الرئيس سيفتتح الاجتماع ولكن قام الرقم ١ في البداية.

قال: «أصدقائي الأعزاء، كما تعلمون، اجتمعنا اليوم هنا لمناقشة موضوع مهم جداً يخص مستقبل جزيرتنا الجميلة. جاء رئيسنا المحترم إلى جزيرتنا بالتجارب والأفكار التي أكتسبها بعد تجربة إدارة دولة لسنين طويلة. أظهر لنا بعض المشاكل التي لم يلاحظها أحد منا حتى يومنا هذا، وطرق التخلص منها. أنا شخصياً أقدم لرئيسنا امتناني مرة أخرى وأحييه».

عندما بدأ الرقم ١ بالتصفيق للرئيس واقفاً، وقف باقي الجيران وشاركوا في التصفيق. وشاركت أنا أيضاً لمجاراة الأجواء. بقي شخصان جالسان. اثنان مقرّبان، أرواحي وأصدقائي الاثنان. أحدهم الكاتب الذي تخمينه، والآخر صعب التخمين، هو حبيبتي الخجولة لارا.

اعتراني الفضول لمعرفة إن لاحظ رجال الرئيس، المنتظرون في الجوار، هذا التفصيل أم لا. ولكن لم يكن بالإمكان معرفة أي شيء من وجوههم العبوسة وعيونهم المختبئة خلف الزجاج الأسود.

بعد الانتهاء من التصفيق، عاد الرقم ١ والتفت إلينا مجدداً بابتسامة بعدما كان ينظر إلى الرئيس. «أفهم من خلال تصفيقكم اللطيف هذا أنكم أيضاً تكنون الامتنان

إلى رئيسنا، وبذلك افتتح الاجتماع. كما تم إبلاغكم اليوم جميعاً، سوف نناقش موضوع الشواطئ في جزيرتنا».

تفاجأنا جميعاً أمام هذه الكلمات. ما هي اللعبة التي يلعبونها بالحديث عن الشواطئ بدلاً من النوارس، ماذا يخططون؟

قال الرقم ١: «ولكن، يجب على شخصين كتابة أسمائهم من الآن ممن يريدون التكلم لصالح الموضوع وشخصين ممن يريدون التكلم ضده كي تتم إدارة الاجتماع حسب الأصول. إذ لا يمكننا البقاء إلى الأبد تحت هذه العريشة أليس كذلك؟ قولوا يا أصدقاء، من يريد التكلم بهذا الخصوص؟ لا تنسوا سنعطي الكلمة لشخصين مع الموضوع وشخصين ضد!»

وقف الرقم ٣٢ الذي كنت قد تحدثت إليه صباحاً وقال: «جيد ولكن، كيف يمككنا معرفة إن كنا سنتحدث ضد الموضوع أو لصالحه دون أن نناقشه؟»

بناءً على هذا الكلام بدا صديقنا منذ أربعين عاماً الرقم ١ غريباً عنا عندما ابتسم وقال: «هذه هي القوانين، لا أحد مضطراً للكلام!»

وعليه رفع الكاتب يده وقال: «أنا أريد أن أكون متحدثاً». رمقه الرئيس وأعضاء اللجنة بنظرات استصغار. كانت لارا تعص يدي لتحفذني كي أكون متحدثاً أيضاً. وركز الكاتب أنظاره علي. ولكن ماذا يمكنني القول أمام كل هؤلاء الأشخاص. تجاهلت الموقف ولم أتحرك. أصبح الرقم ٣٢ متحدثاً عوضاً عني. أما الذين سيتحدثون لصالح الموضوع فقد كانوا من أعضاء اللجنة.

بعد كل ذلك جاء الدور إلى الرئيس. وقف الرئيس ورمقنا جميعاً وقال: «الحضارة!... » ثم صمت واستمر بالنظر في وجوهنا. عم صمت ثقيل في الوسط. لم يصدر أحداً صوتاً. لم يكن البقال الذي نال نصيبه في الاجتماع السابق موجوداً في الأوساط. لم يشرك في الهيئة العامة لأنه لم يكن يمتلك منزلاً. بعد أن قام الرئيس بانتظار طويل وتر أعصابنا وبعد أن احتقرنا في كراسينا بنظراته، قال مجدداً: «الحضارة!...» وصمت مجدداً. لم نكن نعرف ماذا نفعل وبأي اتجاه ننظر. أساساً في تجمعات كهذه

عندما أرى أحدهم يقوم بلفتات كبيرة، كنت أخجل عوضاً عنهم، وأتمنى التلاشي والاختفاء. حمداً لله هذه المرة لم يُطِلْ الرئيس علينا:

«هل تعلمون ما معنى هذه الكلمة يا رفاق؟»

وضعنا مجدداً تحت سحره وجعلنا نشعر بأننا طلاب يمتحنون أمام أستاذ صارم. من يدري كم مرة لجأ إلى هذا التكتيك في حياته السياسية. كان عرَّاباً في هذا الأسلوب.

لم يصدر أحداً صوتاً ولكننا هزينا رؤوسنا بمعنى الإيجاب.

«فكروا جيداً، أقول الحضارة. حضارة الإنسان. الأفكار الكريمة التي تميز الإنسان عن الحيوان، المناهج، أساليب الإدارة».

أراد الانتظار قليلاً وكأنه يريد دس ما قاله في عقولنا جيداً، ثم تابع:

«الدساتير، القواعد، السوق الحرة، حرية المبادرة».

هزينا رؤوسنا مرة أخرى بمعنى الموافقة. ثم سأل الرئيس في تلك اللحظة بانتفاضة مفاجئة لا تشبه نبرة صوته اللبقة والهادئة السابقة: «إذن لماذا تفضلون العيش على هذه الجزيرة كمتوحشين قابعين خارج الحضارة؟»

ماذا كان بإمكاننا أن نجيب عن سؤال كهذا؟ هل كان يقترح أن نضع دستوراً، وننتخب برلماناً، ونشكل قوات أمن.

بدأ الرئيس بخطابه الطويل في اللحظة التي اعتقد فيها أننا أصبحنا في القوام الذي أراده:

«انظروا يا جيراني الأعزاء». ثم قال: «بذل الإنسان جهداً كبيراً للوصول إلى المستوى الحضاري الذي وصل إليه اليوم. قدم الدماء في سبيل ذلك. طارت رؤوس، ولهذا السبب، لا يجوز اليوم لأي شخص يقول "أنا إنسان" أن يدير ظهره للحضارة، ويقوم بتصرف يعيد البشرية إلى الوراء. إني أصادف منذ أن جئت إلى هذه الجزيرة الجميلة بعض السلبيات والأخطاء التي يجب تصحيحها. ربما أنتم لا ترونها لاعتيادكم إياها، ولكن عندما نصحح هذه الإهمالات بالتضافر المشترك، ستزداد رفاهية وطمأنينة وثروة الذين يعيشون في جزيرتنا. مصالحنا المشتركة موضع الكلام هنا. لا أحد منا منافساً للآخر».

لم نكن استوعبنا بعد ما علاقة الذي قاله بالنوارس.

«انظروا، قدم والد الرقم ١ المحترم لكم فضلاً كبيراً، سمح لكم بالمجيء إلى جزيرته وتأسيس منزل لكل فرد منكم فيها دون أن يأخذ أجراً من أحد. لم أسمع في حياتي فضلاً أكبر من هذا. كل شيء في العالم يتم بمقابل. الناس سواسية أمام الله ولكنهم يأخذون حصتهم من الحياة بما يناسب ذكاءَهم، ومهارتهم، وتصميمهم، وطموحهم بالنجاح. ولهذا السبب لا توجد مساواة مطلقة. أساساً كلمة "منح" غير ملائمة لطبيعة الإنسان. لا يجوز لأحد أن يعطي شيئاً لأحد. على الجميع أن يكسب. أليس كذلك يا رفاق؟»

ها قد أتى سؤال آخر ونحن نسكت.

أجاب الرئيس: «حسناً» مبتسماً بمرارة. «على أيِّ حال سوف تبرهن لكم الحياة صحة هذه الآراء».

لم يتمالك الرقم ١ نفسه وضحك بصوت عال. نظر جميعنا إليه، فأحس بالخجل قليلاً وسكت. لم نكن نفهم هذا التغير المفاجئ الذي طرأ لهذا الرجل. وكأنه أصبح شخصاً آخراً بعد ما عاشرنا الرئيس.

بعد حلول المصائب علينا، كان سيوضح لنا لاحقاً أحد أعضاء اللجنة النادمين ما حصل. وضع الرئيس منذ أول يوم أتى به إلى الجزيرة الرقم ١ في باله. تكلم معه مطولاً قائلاً له: «أنت تذكرني بوالدك!» قال له: «حزنت جداً على وضعك. لو رآك والدك لكان يحزن أيضاً. انظر إلى حالتك هذه بصفتك نجل عائلة شهيرة بهذه الثروات والصيت. تعيش مجارياً لسكان الجزيرة. لأنهم يعودونك على أفكار المساواة الضارة، الكسل وعدم الدفاع عن حقوقك. رغم أن الناس ليسوا متساوين. يوجد الأقوياء والضعفاء، والحياة عبارة عن الصراع بين هؤلاء. يجب عليك أن تأخذ مكانك بين الأقوياء. هل يمكنك تقدير قيمة هذه الجزيرة في المرحلة التي تطورت فيها السياحة إلى هذا الحد وتتدفق فيها مليارات الدولارات إلى الشواطئ والجزر؟ ماذا؟ هل بإمكانك التقدير؟ خدعك سكان الجزيرة. جعلوك تظن الألماس الذي بين يديك خرزاً. أنت صاحب ثروة، ويجب أن

تتصرف على هذا الأساس. المساواة، والصداقة، والديمقراطية... هذا كله سخافات اختلقها الضعفاء. لأنهم بحاجة إلى هذه المصطلحات كي يتمكنوا من العيش. أما القوي يريد شيئاً واحداً فقط؛ أن يكون أقوى!»

من الواضح أن هذه الكلمات أثرت بصديقنا؛ لأنه لم يعد يلبس مثلنا ولم يتصرف وكأنه منا إضافة إلى أنه يقضي أغلب وقته مع الرئيس.

قال الكاتب الذي رأى إن الكلمة قد طالت، وبدأت تنحرف باتجاه آخر: «لو تأتون إلى موضوع النوارس!»، وكان ذلك فرصة بالنسبة للرئيس. بدأ بالكلام بحرقة قلب. تحدث مطولاً عن حجم الأضرار التي تسببها النوارس على الجزيرة، وعن إخافتها للناس، وعن هجومها الذي كاد يوشك أن يسبب إعاقة لحفيدته. ليس بالإمكان تسليم أجمل شواطئ هذه الجزيرة لهذه المخلوقات. كانت النوارس أكبر عدو للجميع في الجزيرة. ولهذا السبب يجب إعلان التأهب ضد النوارس، ويجب طرد هذه المخلوقات من الجزيرة إلى الأبد. ألم تكن تعني الحضارة السيطرة على الطبيعة والتحكم بها بقدر الرغبة بامتلاكها!

يحتدم وينفعل كلما تكلم أكثر. يصب غيظه على تلك المخلوقات، التي تطير فوق رأسنا غير مدركة ما الذي يحصل، دون إخفاء حقده على النوارس. وفي النهاية أنهى كلامه بإيمانه الراسخ في دعم جيرانه المتحضرين له في هذا الموضوع.

أخذ الكاتب الدور بالكلام بعده. قال بصوت متعب: «نحن، كنا في اجتماع اللجنة. قال هؤلاء السادة إنه يجب علينا القضاء على النوارس في الجزيرة. أنا عارضت. وبناءً على إصرارهم نوهت على ضرورة استشارة جيراننا الآخرين كونه قراراً مهمّاً للغاية. ها نحن أمامكم. لا داعي لإطالة الحديث. يخطط هؤلاء السادة والسادات لقتل النوارس في جزيرتنا وكسر بيوضها وتنظيف الجزيرة من النوارس. أعتقد أنه لا يوجد داع لذكر كم هو أمر جنوني هذا الأمر. إن النوارس هم أصحاب هذه الجزيرة الأولون قبل مجيئنا إلها بآلاف السنين. كم جيل مضى وضعت بيضها خلاله وأنشأت صغارها في هذه الشواطئ وعلمتهم الطيران والصيد. لا ضرر لهم علينا أبداً. أعاني

الصعوبة في استيعاب سبب هذا الحقد الأعمى على النوارس. ولكن أعلم أنكم أنتم، الذين تعرفون الحياة على الجزيرة ولا تريدون تخريب هذا الانسجام، لن تسمحوا بتطبيق هذه الممارسة التي أسمتها اللجنة "التأهب ضد النوارس". لذلك لست بقلق».

لاقت كلمات الكاتب هذه التصفيق الحار. كان يهتف جيراننا "مرحى لك". كان يبدو الرئيس وأصدقاؤه وكأنهم قد خسروا. بعد قيام صديقنا في الرقم ٣٢ بإلقاء كلمة رنانة بعد الكاتب مباشرةً، لم يبقى طرف للدفاع في الأمر.

من الواضح أن سكان الجزيرة كانوا معارضون لهذا العمل المجنون ولم يبق شيء للرئيس ليفعله. كما ارتسمت أيضاً على وجوهنا ابتسامة نابعة من متعتنا في رؤية هزيمة هذا الرجل.

كنا نتهيأ للقيام، فوقفت زوجة الرئيس. أجلستنا مكاننا جميعاً بحركة بيدها ثم قالت: «لقد نسيتم شيئاً يا جيراني الأعزاء. هذه الجزيرة ليست مباحة. إن صاحب هذه الجزيرة هو صديقنا الذي يجلس بيننا. أتيتم جميعكم إلى هنا نتيجة سخاء. أنتم أصحاب المنازل ولكن قانونياً ما زال الرقم ١ هو صاحب الأرض. أي تملكون المنزل ولا تملكون الأرض. الرقم ١ رجل شهم جداً. لا يفعل هذا الشيء ولكن بأي لحظة يمكن له أن يطلب إزالة منازلكم ونقلها إلى مكان آخر. ولهذا السبب أقترح عليكم قبل كل شيء الاستماع إلى الرقم ١ الأكثر أحقية بالكلام بصفته صاحب الجزيرة، بل صاحب السلطة المطلقة في اتخاذ القرار».

كان يستمع الرقم ١ إلى كل هذا بملامح خجل حانياً رأسه إلى الأمام. رأيناه كيف لم يرفض متفاجئاً ما قيل بل وافق عليه بإيماءة خفيفة برأسه. ثم وقف وقال: «أصدقائي، أنتم تعرفوني منذ سنين. ليست مختلفاً عنكم. ولن أكون مستقبلاً. لا أفكر بإخراجكم من منازلكم. ولكن عليكم تقبل حقيقة أن رجل الدولة الكبير رئيسنا المحترم يفتح عيوننا في بعض المواضيع. نيته الأساسية أن ينعم سكان الجزيرة برفاهية أكثر، وأن يكونوا أقوى. لا يرانا لائقين بهذه الحياة الحقيرة التي نعيشها.

أنا أيضاً كنت أعيش دون التفكير في الطاقات الكامنة للجزيرة إلى أن حدثني عن حلم له في اليوم الماضي. ولكن فتح الرئيس عيوننا العمياء بأفقه الواسع. ومنح لنا

إمكانيات جديدة. والآن من بعد إذنكم، أتقدم بالرجاء من رئيسنا، حتى لو سأكلفه قليلاً، ليشارك أفكاره هذه مع جميع جيراننا».

حل صمت غريب على سكان الجزيرة. رأيتهم يرمقون بعضهم بقلق. تم إبلاغ الجميع أن هذه الأراضي ليست لهم، حتى لو حصل ذلك بعبارات مهذبة، ويمكن طردهم من هناك في أي لحظة بقوة القانون. أي إنه تم إظهار جهنم في بداية الأمر، والآن جاء دور إظهار الجنة.

وقف الرئيس مجدداً وقال: «جيراني الأعزاء، عندما أخاطب مجتمع نقي مثلكم، أكون مرتاحاً لمعرفتي أنه لا داعي لإطالة الكلام وأنكم أذكياء ومتطورون إلى درجة تفهمون ما أقول. يعيش العالم المرحلة الذهبية للسياحة. ينهمر كل عام مئات الملايين من السياح إلى الجزر الجميلة ذات البحار الدافئة والخلجان الزرقاء. جزيرتنا، وبطبيعة الحال أنتم، لماذا لا تنالون نصيبكم من هذا المصنع الكبير؟ لا عائق أبداً أمام هذا الشيء. يمكن أن تأتي أكبر شركاتنا والشركات العالمية غداً لإنشاء فنادق خمسة نجوم، صالات قمار فاخرة، ملاهٍ، ومنتجعات ترفيهية على هذه الخلجان الجميلة. يمكنكم جميعاً أن تنالوا نصيبكم من هذه المليارات من الدولارات. ولكنكم تركتم خلجان جنان العالم هذه للنوارس. حولتم الجزيرة هذه الأشبه بالجنة إل مزبلة بالأفكار السخيفة النصيرة للبيئة التي ملئت رؤوسكم بالقول، "فلتضع النوارس بيوضها هناك، وحذاركم من إقلاق النوارس". وتحاولون العيش من دخل لوز الصنوبر الذي تجمعونه. هل تذكرون يا رفاق كلمة الحضارة التي قلتها في البداية؟ لا يمكن لأي إنسان حضاري أي يتصرف هكذا. لا يمكنه تجاهل مصلحته إلى هذه الدرجة. دعونا الآن نتخذ قراراً. ولننقذ جزيرتنا من موضوع النوارس غير الضروري».

نظرت حولي ورأيت أغلب سكان الجزيرة قد تفاجئوا أمام هذه الأقوال. كانوا قد وجدوا "التأهب ضد النوارس" سخافة، ثم تم تخويفهم بتهديدات الطرد من منازلهم، وبعدها تم تشجيعهم على أحلام الثراء. ما عادوا يعرفون ماذا سيصدقون ولا يستطيعون التفكير بشكل صحيح. وكأنهم مخدرون. بلا شك إن تصويتاً سيحصل في مثل هذه الحالة سيحسم لصالح الرئيس. يبدو أن الكاتب التمس هذا الشيء، فوقف

وطلب الكلام مجدداً، ولكن تم إسكاته بحجة أنه استنزف حقه في الكلام. باتت المجموعة جاهزة للتصويت والنتيجة واضحة منذ الآن.

في هذه الأثناء تماماً ارتفع صوت ناعم من جانبي.

طلبت لارا الإذن بالكلام بكل تهذيبها. قالت: «انظروا، تكلمت زوجة الرئيس، ويجب السماح لامرأة من جانبنا أن تتكلم. تقولون حضارة، هذا ما تستوجبه الحضارة».

غضبت اللجنة الرئاسية قليلاً لهذا العائق الأخير الذي كان سيؤخر القرار، بعدها نظروا بعضهم في بعض ووافقوا.

قالت لارا: «سيدي الرئيس، جاء اليوم جميع جيراننا إلى هنا ليعارضون اقتراحكم ولكن الآن بإمكاني رؤية أنهم بدؤوا يغيرون أفكارهم. لأنكم هددتموهم بالطرد من منازلهم وممتلكاتهم، ثم نثرتم بذار الأمل في قلوبهم بوعدكم لهم بالثراء. أهنئكم أمام هذا النجاح. ولكن أريد أن أسألكم بصفتي ساكناً بسيطاً في الجزيرة. بأي أسلوب ستطردون النوارس؟»

قال الرئيس بلهجة ساخرة: «من تحدث عن الطرد؟ سندمرها»

«كيف؟»

«ألم تشاهدي من قبل حفلة صيد؟ سنصطادها جميعها بالبنادق وسنكسر البيوض. أي، نوع من مهرجان الصيد كما تعلمون».

«حسناً، ما دمتم مصرين، ألا نستطيع تجربة طريقة لتوجيه الطيور إلى الجزيرتين التوْءَم دون اللجوء إلى هذه البربرية؟»

غضب الرئيس على مصطلح "بربرية".

قال: «حسناً يا أيتها السيدة الصغيرة. قولي لنا كيف سنرسل النوارس إلى الجزر الأخرى ولنتعلم نحن أيضاً. هل سنوزع البلاغات عليها؟ هل سنقول لها "من الآن فصاعداً مكانكم في الجزيرة المقابلة، هيا من هنا"؟».

إن كثرة الذين ضحكوا على هذه الدعابة دليل على كسب الرئيس للقضية.

في محاولة أخيرة قالت حبيبتي: «نضع السمك بكميات كبيرة في على الجزر المقابلة، وننشئ ملاجئ يخبِّئُون فيها بيضهم، وسيعتادون مع مرور الزمن».

ولكن لم تعد تحتمل الجموع الاستماع لهذه "السخافات". فارتفعت أصوات «فلنبدأ التصويت» وفي نهاية التصويت، إن أغلب جيراننا، الذين جاؤوا ذلك اليوم ليرفضوا الاقتراح، قالوا "نعم".

لم يبقَ عمل سوى التخطيط لبدء المجازر. كانت النوارس ما تزال تطير فوق الجزيرة كما اعتادت منذ آلاف السنين دون إدراك لما كان يحكى.

غادرنا فوراً بعد الاجتماع حتى دون أن نتقابل بأنظار أحد. لم نريد التفكير بالمجزرة المخططة، ولكن كان الحديث يلف ويدور ليأتي إلى هذه النقطة.

إذا كان علي اختيار كلمة واحدة لأشرح تلك الليلة، أعتقد أنها ستكون "الخجل". لأول مرة في الجزيرة كان الناس يخجل بعضهم من بعض وحتى عندما كانوا يلتقون في الشارع كانوا يغضون أنظارهم. لم يبقَ أَيٌّ من أجواء الجيرة والصداقة أيضاً عند تفرق الاجتماع. تفرق الجميع وكأنهم مذنبون أرادوا الهروب والاختباء في منازلهم فوراً. بلا أي ابتسامة أو أي سلام بالرأس. نظرات باهتة، وجوه عبوسة.

نحن أيضاً كنا قد أغلقنا منازلنا علينا.

أول مؤشر كبير على التغير في الجزيرة بعد ذلك الاجتماع هو اندثار جو الصداقة والأخوة فيها التي نشعر بقوة أنها لن تعود إلى سابق عهدها أبداً.

رغم أنه أجمل جزء في الجزيرة، هو أن يقوم الناس بقضاء معظم ساعات اليوم بعضهم مع بعض كعائلة واحدة.

رغم رؤية بعضنا بعضاً كل يوم، كنا نباشر الحديث مع بعضنا بحرارة عند تلاقينا سواء في الطريق أم على الشاطئ. لم تنتهِ أحاديثاً أبداً.

كان هناك بعض الأشخاص القليلين ممن كانوا يلقون السلام أحياناً، وأحياناً أخرى لا يلقونه من ذوي المشاكل الداخلية أو بتعبيرنا "منزوون"، ولكن تعودنا تجاهلهم، أو بالأحرى تقبلناهم كما هم.

لأن أكبر قانون غير مكتوب لدينا هو عدم تدخل أيّ أحد بشأن الآخر.

سَألتُ لارا في تلك الليلة بصوت ناعم: «لماذا قمتِ بتلك المداخلة؟»

«لأني أردت تذكير الناس مرة أخرى بالوحشية التي ينجرون إليها. حسب ما أعلم لا أحد منهم من مناصري العنف. نعرفهم منذ سنوات. فهم لطفاء، مرنون، ومحبّون للسلم».

«ولكن الظروف تغير الإنسان».

«مهما حصل لا أرجح احتمال تحول هؤلاء الناس الذين نجلس ونقوم معاً معهم إلى وحوش. عندما يرون المنظر غداً سوف يندمون ويتراجعون عن قرارهم».

«لم تؤاخذيني أليس كذلك؟»

«على ماذا؟»

«كما تعلمين لا أستطيع التكلم أمام الجموع».

«وأنا أيضاً ولكن للحظة شعرت أنني مجبرة».

تذكرت وقلبي يَدْمَى أن جميع الضحايا الأبطال في التمردات الشعبية ذات النهاية السيئة يقومون بهذا العمل "لأنهم يشعرون أنهم مجبرون". ولكن لن يحل سوء بلارا مثلهم. كنت مصمماً على تركها خارج هذه الأحداث.

لم تكن تخرج همسة من أي منزل مغمور في ظلمة الليل في الجزيرة. لم يعد يسمع الآن أصوات الموسيقا والضحكات الصادرة من الحدائق التي كانت موجودة منذ فترة من الزمن.

حتى إنني لاحظت نفسي عندما كنت أفكر في بعض لحظات تلك الليلة البائسة، كيف يمكن أن تكون جزيرة سياحية، أو بالأحرى عندما حاولت تخيل هذا الوضع أمام عينيَّ.

فنادق خمس نجوم، الطائرات التي تغطس وتخرج من البحر، اليخوت الفاخرة الراسية على الميناء الصغير، صالات قمار الفنادق البراقة، لاعبات الكرة الطائرة

الشاطئية بأجسادهن الجميلة يجلن في الجوار بالبيكيني. الشباب الذين يركبون الأمواج. المطاعم بأنواعها المتعددة، إمكانية العمل للجميع، ثراء... كيف يمكن لهذه الأشياء ألاّ تغري عقول سكان الجزيرة...

كنت أعتقد أن هذه الأحلام لها أثر أكبر على العائلات التي تعيش بعيدة عن أبنائها البالغين. لأنه ليس هنالك أي شاب يريد العيش في هذه الجزيرة المهجورة والمملة. بطبيعة الحال سيؤسس حياة مختلفة تماماً لنفسه. أي انفجار سياحي يمكن أن يجذب كل هؤلاء الشباب إلى الجزيرة، ومن ثَمَّ إمكانية التقائهم مع عائلاتهم.

ليلاً، كنت من جهة أسمع أصوات أنفاس لارا المتزنة والخفيفة، ومن جهة أخرى أحلم بلا توقف.

ثم وجدت "اللماذا" التي تقبع في أعماقي تحت "لماذا فعلت ذلك" وخجلت قليلاً حقيقةً. كنت ألجأ إلى هذه الطريقة كيلا أفكر بالكاتب. حاولت ألّا نلتقي بنظراتنا وهربت من الجلسة فور انتهائها لعدم تكلمي في الاجتماع وعدم معارضتي اقتراح المجزرة رغم تحذيره لي. أنا واثق مثل اسمي أنه يلومني ويشعر بالعار من ضعفي.

ليس بمقدوري رؤيته. كلا كلا ليس بمقدوري رؤيته أبداً! ليس لدي الشجاعة لأنظر في عيني صديقي وأستاذي في الأدب.

- ٩ -

ربما كان هناك الملايين من الطيور في السماء. يرفرفون بأجنحتهم ، يلتفون، يتداخل بعضهم في بعض، ثم يعودون لينفصلوا، على شكل حرف (V)، يعودون فجأة، ويشكلون أسراباً مختلفةً. كانت طيوراً تهاجر إلى البلاد البعيدة، وتجتاز البحار والسهول والبلدان. عند اجتيازهم للمحيطات في نقطة ليتداخلوا ثم يعودون ويلتفون. الأجواء لا تكاد تخلو من أصوات الطيور. هذه الأصوات صاخبة لدرجة أنها على وشك أن تملأ العالم كله. كانوا يبكون ويندهون ويحاسب بعضهم بعضاً، ويبلغون ضعفهم لبعضهم بعضاً.

كانوا يسألون: «أين الجزيرة. أين جزيرتنا. كنا نحط على هذه الجزيرة لنرتاح عند اجتيازنا المسافات الطويلة. فعل أجدادنا أيضاً هذا. ولكن الآن ليس لدينا جزيرة. أين سنحط، أين سننزل؟»

«اختفت الجزيرة. في هذه الحالة ليس بمقدورنا الاستمرار. لا نستطيع الاستمرار حتى الشاطئ».

كنت أفهم هذه المحادثة ولم أكن أستغرب ذلك. حتى غدوت مستغرباً لماذا لم أكن من قبل أنصت حتى اليوم إلى أصوات محادثات النوارس. وكأني كنت أفهم لغتهم منذ زمن بعيد.

بدأت آلاف الطيور تلف وتدور وهي تصيح في الأجواء. لفوا وداروا ولفوا وداروا وأصبحوا غير قادرين على تحريك أجنحتهم. كان يجب عليهم إيجاد قطعة يابسة ليستريحوا ويستجمعوا قواهم كي يجتازوا الجزء المتبقي من المحيط، ولكن ها هي قد اختفت الجزيرة التي كانوا يحطون عليها والمسجلة كمعلومة على شيفراتهم الوراثية. ربما غرقت في قاع البحر بفعل زلزال. داروا وداروا وداروا، باتوا يتباطؤون، ينخفضون. ثم

نفذ نورس منهم بظهره الفضي غطسة مدهشة باتجاه البحر. اصطدم بشكل قاس بوجه البحر الذي يشبه المرآة أمام النظرات الحائرة لباقي النوارس. ومات.

بقي الآخرون يدورون صارخين، ثم انتحر نورس آخر باصطدامه بالبحر، ثم واحد آخر، وواحد آخر، وآخر!...

جميع الطيور التي كانت تطير بالآلاف في السماء حتى نهاية اليوم مشكلين دوائر انتحرت. لم يعد يرى وجه البحر من جثث النوارس التي كانت تنساب مع الأمواج.

بعدها عم صمت عميق في الأجواء. وكأن نهاية العالم قد حلت.

استيقظت وأنا ألهث في هذه اللحظة من الحلم. أحست لارا، التي كانت إحدى يديها وإحدى ساقيها فوقي، باستيقاظي، قالت وهي ترفع رأسها: «ماذا حصل؟ وكأن عزرائيل قد تفقدك يا حبيبي، اهدأ. هل كان حلماً؟»

قلت: «نعم» وحدثت لارا عن الحلم بكل تفاصيله. قلت: «كانت قد اختفت جزيرتنا. غرقت في قاع البحر. ولهذا السبب لم تجد الطيور المهاجرة موطئ قدماً لها عند اجتيازها البحار الواسعة كما كانت تفعل منذ آلاف السنين. انتحروا الطيور واحداً تلو الآخر، ابتلعهم البحر جميعاً».

هدأتني لارا بمداعبة رأسي. قالت: «رأيت شيئاً من هذا القبيل حسب ما أذكر. أعتقد أن أحد البحارة القدماء رأى حادثةً كهذه». إن المعلومات حول الحالة التي تحدثت لارا بشأنها، تدل على أنها كانت عالقة في مركز اللاوعي لدي، ولم تكن تكهنات حول جزيرتنا، بل حادثة غريبة قرأتها في مكان ما.

قمنا وخرجنا إلى الحديقة التي ملأتها روائح الياسمين. شربنا كأسين المريمية ولكن مهما فعلنا، لم نتمكن من تهدئة أنفسنا. في صباح اليوم التالي كنا في قلق كبير لما كان سيحصل.

كان الكاتب محقاً، حتى إنني لا أستطيع التفكير بما كان يقصده عندما قال "اللعبة تبدأ من جديد".

رغم حلول موسم قطاف لوز الصنوبر. وجب علينا في تلك الفترة الانشغال في تشذيب الأشجار التي غدت كالهياكل، وفي تعليمات ماهية مسافة الاقتراب من المنازل، والقوانين العامة، وعداوة النوارس، بدلا من انشغالنا في موضوع قطاف لوز الصنوبر.

هل حدثتكم بخصوص هذا من قبل، هل ذكر لوز الصنوبر قبل الآن؟ ولكن أعتقد... أعتقد أنني لم أحدثكم. قلت لكم، إن مهارتي الكتابية محدودة. الآن تذكرت أني لم أقول لكم هذه المعلومة، وأني تجاوزت هذا التفصيل المهم عندما كنت أتحدث عن المعيشة. سأقع في لهفة قص هذا الأمر قبل هجوم النوارس بالضبط رغم أنه ليس الوقت والزمن المناسب لذلك، لأنه مهم.

المهم، دعوني متأسفاً أقدم لكم هذه المعلومة باختصار. يوجد على جزيرتنا نوع غريب من أنواع الصنوبر؛ "pinus pinea". ينمو على هذه الأشجار المرتفعة لوز نادر. كنا نتسلق جميعاً هذه الأشجار في موسمها ونجمع ثمار الصنوبر التي كانت تدر نقوداً كثيرة، نخرج اللوز من داخلها ونملؤها في أكياس الخيش. التي تُسلم للبقال، وهو بدوره يعطيها لسفينة الركاب بعد عدة إجراءات. يدفع التجار في العاصمة مبلغاً جيداً لقاء لوز الصنوبر. يأخذ البقال أيضاً النقود ويوزعها على بيوت الجزيرة بشكل متساو. تغطي هذه النقود احتياجاتنا المتواضعة من الصحف والحليب وما إلى ذلك. هذا هو مصدر نقود الحياة المتواضعة في الجزيرة.

في تلك الليلة تذكرت ولارا بألم، أن في موسم قطاف اللوز، وأننا كنا سنقضي موسم حصاد سعيداً لو لم تحل بنا هذه المشاكل. التوت قلوبنا.

رغم كون أيام السنة الماضية جميلة في مثل هذه الفترة. كان ينادي من يخرج صباحاً للناس في المنازل التي كانوا يمرون من أمامها. يشارك كل من يلحق بالقافلة، ويسيرون باتجاه غابات الصنوبر. كلٌ في يده شيء. كانت تحمل أطعمة من أجل الغداء، الشراب، الأكياس لملءِ اللوز، والسلل. كان يأتي إلى الغابة لاحقاً من لم يلحق سابقاً.

أساساً لم يكن يحسب لأحد كم ساعة من العمل أو كم من اللوز جمع. يبذل الجميع ما باستطاعتهم وما في نيتهم من عمل.

أكثر الناس الذين يطلبون الوقت المستقطع - ربما لم أحدثكم عنهم من قبل - هم أصدقاؤنا العازفون. كانت ألحان الفلوت والقيثارة تجول الغابة. كنا عند اقتطافنا اللوز نسمع أحياناً أنغاماً نعرف كلماتها. حينها كنا نشارك الفنانين فيها. وأحياناً كانت تعزف ألحاناً لم نعرفها من قبل. لم نكن نسأل، لم يكن يخصنا ذلك الجزء من الأمر. ولكن الموسيقا التي كنا نسمعها منهم كانت مألوفة علينا دائماً.

لم يكونوا مندفعين دائماً للعزف. نحن من كان يطلب منهم في بعض الأحيان. أحياناً كانوا يرفضون بكل تهذيب بقولهم "لاحقاً". ولكن كانوا يظهرون طواعية في أعياد ميلاد أصدقائنا وفي الأيام الخاصة. لبوا طلبات كل الأغاني في أيام قطاف اللوز من السنة الماضية. مرة من المرات طلب منهم مقطوعة لا يعرفونها، فاختلقوا أشياءَ وأضحكونا حينئذٍ.

عدت مرة ثانية تلك الليلة على صوت لارا. كانت تقول: «يجب أن نمنع هذه المجزرة! يجب أن نحذر جيراننا قبل أن نصل إلى نقطة لا عودة منها». نهضت بعدها بكل طاقتي رغم أن الوقت كان قد قطع منتصف الليل بكثير. فقلت: «هيا، انهضي لنذهب».

ثم أمسكتني بيدي، وبدأت تجرني. ذهبنا بدايةً إلى كاتب العدل المتقاعد في الرقم ٢٩. كنا مصممين على إيقاظهم ولكن عند اقترابنا من المنزل لاحظنا أنهم لم يكونوا نائمين أصلاً. حتى إنه جاء الذين في الرقم ٣٠ و٢٧. كانوا يتهامسون في الحديقة.

قرأنا ملامح الفرح على وجوههم، التي أنارها نور مصباح، عند رؤيتهم لنا. ولم نتفاجأ لذلك. وهم بالطبع كانوا يتباحثون في نفس الموضوع، وكانوا يعتقدون بأنه يجب أن إيقاف هذا الأمر.

إن مبادرة ستزعزع الاستقرار في الجزيرة كهذه كانت تلامس مشاعرنا. كنا نعيش طيلة السنين مع تلك النوارس جنباً إلى جنب، اعتاد بعضنا على بعضٍ، لم تكن لدينا أية مشكلة. من غير المقبول قتل هذه الحيوانات البريئة وكسر بيوضها. مهما حصل، كان يجب علينا أن نمنع حدوث هذا الأمر.

قال السيد كاتب العدل الذي يمتلك شخصية متزنة وكلمة مسموعة: «أنا واثق من أن رأي أغلب جيراننا من رأينا، لن يتمنّوا إصابة أي كائن حي بالأذى. ولكنهم لم يعلموا ما وجب عليهم أن يتصرفوا في اجتماع اليوم. صدر قرار كهذا رغم عدم رضاهم فيه».

وعليه في تلك الساعة ناقشنا متعاونين ما يمكننا فعله. أساساً كان بمقدورنا إقناع جيراننا، ولكن كان الوقت قد تأخر كثيراً. كانت ستبدأ المجزرة بعد خمس لست ساعات.

صمتنا لمدة من الزمن، غرقنا في التفكير.

رأيت لارا تنهض وتدخل المنزل. بقيت من ثلاث لخمس دقائق في الداخل. ثم خرجت وبيدها ورقة.

قالت: «سأقرأ لكم شيئاً! اسمعوا».

ثم قرأت هذا الشعر القصير:

الريح لا تعرف الممنوع

لا تُقيد النوارس السلاسل

ولا قلب الإنسان أيضاً.

تفاجأت. لم أفهم انشغالها بالشعر في الوقت الذي كنا فيه جميعاً عاجزين في تلك الساعة. أظن أن الجميع اعتقد مثلي فعم الصمت.

وعليه فكرت أنه يجب علي أن أقول شيئاً وقلت: «جميل جداً. هل كتبتِ هذا الشعر الأن؟»

قالت: «لا لا. أسأتم الفهم، هذا الشعر ليس من تأليفي. عدلت قليلاً على شعر بوشكين، هذا كل ما في الأمر! أساسه كان حول النسور».

سأل كاتب العدل: «إذن ماذا سنفعل به؟»

«سنكتب بلاغاً...»

«ما هذا البلاغ».

«سنوضح كم هو عمل جنوني قتل النوارس. سنضع هذا الشعر في أسفله، وندعي جيراننا للعدول عن هذا العمل.»

«وبعدها؟»

«بعدها سنرمي هذا البلاغ تحت أبواب جميع المنازل خلال نصف ساعة. وسنعطيها باليد للمستيقظين.»

قلت في نفسي: "ها هي حبيبتي لارا". تكمن طاقة وروح نضالية مدهشة داخل جسدها الهش والضعيف. لم تستسلم. لم تفقد عزيمتها القتالية من أجل السلام قبل بضع ساعات من المجزرة. ها هي حبيبتي. ها هي روحي. قلبي. امرأتي! حبيبتي التي تضمد جراح روحي بجسدها الرقيق المشتعل بالنار.

قلت: «هيا إلى العمل! دعونا نكثر البلاغات، ونوزعها على المنازل. أن ننجزها خلال ساعة».

أفاد السيد كاتب العدل والرقم ٢٧ بعدم اقتناعهم بهذا الأمر. أساساً كان قد أعطى قراره. ماذا كان سيغير بلاغ بعد هذه الساعة؟ ولا سيّما أن الشعر شعر معدل لبوشكين... لم يكونوا مؤمنين بأن هذا سيغير شيئاً.

قالت لارا: «الشعر أقوى من السلاح!»، وذهبت مرة أخرى إلى المنزل دون الإنصات لهم، وشرعت بكتابة البلاغ. ذهبت لعندها، قرأت الذي كتبته، وأعربت عن إعجابي به. وآمنت أن الطاقة المنبثقة من داخلها سوف تقنع الجميع.

ولكن لم تكن النتيجة كما كانت تنتظر. أوضح السيد كاتب العدل ورفاقه أنه قيموا الوضع ولكنهم لن يخاطروا بالدخول إلى المنازل ليلاً في الجزيرة التي يملؤها الحراس المسلحين. كان شيء كهذا ممكن في السابق، ولكن ألم نذكر حادثة النوارس في منزل الرئيس ونجل البقال الذي تعرض للضرب؟ ستكون مبادرة خطيرة جداً في ظل هذا الجو المتوتر. من الممكن أن تطلق النار على الناس.

اقترحوا طريقة أخرى بدلاً من ذلك. من الأنسب الانتظار حتى ساعات الصباح الباكرة في الطريق المؤدية إلى شاطئ النوارس وتوزيع البلاغ هنالك. لم تعجب روح لارا عديمة الصبر هذه المبادرة الاحتياطية ولكن لم يكن باليد حيلة.

نمنا في تلك الليلة ساعة أو ساعتين بحالة مضطربة. حتى تعانقنا أنا ولارا في نومنا لم يكفِ لإخماد القلق الذي لف صدورنا.

مع أشعة النهار الأولى، ركضنا إلى الطريق المؤدية إلى شاطئ النوارس. لم يكنْ أحد. بدأت الشمس بإرسال حزم أشعتها البراقة على سطح بحر الصباح الذي يبرق بياضاً. كانت العصافير المبكرة تغرد على الأشجار. كان بالإمكان الشعور بالبرودة الخفيفة التي تبقي رأس الإنسان مُعَافى. كان ندى الصباح ينعش قلوبنا. انتظرنا على هذا الحال لفترة من الزمن، ثم وقفنا عندما سمعنا أصواتاً.

أتى الرئيس، رجاله، الرقم ١، والرقم ٨. كانوا جميعاً يحملون بنادقَ. كان الرئيس مرتدياً نظارات شمسية مثل رجاله. يمشي مبتهجاً باتجاه شاطئ النوارس.

تفاجؤوا عندما رأونا. حاولوا معرفة ما الذي أردنا فعله. لم يعرفوا كيف يفسرون وجود لارا، التي عارضت مجزرة النوارس، هناك. هل يا ترى كانت قد غيرت رأيها. أم لديها غاية أخرى؟

قال لنا الرئيس بابتسامة لطيفة: «صباح الخير!». إذا لم تعرفوا ما الذي يجري ومن يكون هو، من المستحيل تصديق أنكم تقابلون رجلاً مسناً صباحاً يقول لكم "صباح الخير". كان يبدو وسيماً نظيفاً منضبطاً ومهذباً بلباسه أبيض اللون.

سألنا الرئيس: «هل جئتم لتشتركوا معنا؟ لنعطيكم سلاحاً لكل منكم».

قالت لارا: «كلا! نحن لسنا قتلة».

احمرَّ وجه الرئيس لهذا الرد، مرتجفاً من غضبه.

قال: «انتبهي إلى كلماتك يا أيتها السيدة الصغيرة! لا تنسي مع من تتكلمين».

ومع غضب الرئيس، اتجه رجاله نحو لارا. دخلت - بشجاعة لم أتوقعها من نفسي - فيما بينهم. أعطيت البلاغات التي بيدي إلى رجال الرئيس أولاً ثم إلى الرئيس والبقية.

أحس بدهشتهم. نظر الرئيس وقال: «ما هذا؟»

قلت: «بلاغ سلام».

لم يُخْفِ الرئيس حيرته وقرأ البلاغ بصوت عال:

جيراننا الأعزاء

حررنا هذا البلاغ لتحذيركم حول موضوع مجزرة النوارس التي ستتم هذا الصباح. النوارس هم الأصحاب المسالمون لهذه الجزيرة. إنهم جيراننا. سكنوا قبلنا بكثير في هذه الجزيرة، واتخذوا هذا المكان مسكناً لهم قبل آلاف السنين. لا يمكن تفسير قتل هذه الأرواح البريئة، التي لم تصبنا بأذى، سوى أنه انعدام الضمير وشغف القتل. ولهذا السبب، ندعوكم أنتم سكان الجزيرة المسالمين إلى عدم المشاركة في هذه الجريمة الإنسانية وإلى رفع راية السلم والأمان.

توقف الرئيس للحظة ثم تابع:

الريح لا تعرف الممنوع

لا تُقيد النوارس بالسلاسل

ولا قلب الإنسان أيضاً.

نظر مدّةً من الزمن وكأنه لم يصدق ما قرأه. ثم بدأ الضحك مقهقهاً. لم تكن مزيفاً بل حقيقية، بملءِ فمه، لدرجة بدأت معها تجري الدموع من عيونه. انتقلت عدوى القهقهات إلى الآخرين أيضاً، فانفجروا ضاحكين.

كان الرئيس يشارك بقوله: « ولا سيما هذا الشعر، ولا سيما هذا الشعر!» محاولاً القراءة بشكل متقطع عن القهقهات.

«اسمعوا، اسمعوا: قال الريح لا تعرف الممنوع ثم... ثم... قال لا تُقيد النوارس بالسلاسل. هل قرأتم إلى الآن شيئاً معفناً نابياً وسخيفاً لهذه الدرجة ها، ها؟»

قال الرقم ١: «وكأنه جان دارك (Jeanne D'arc) المبارك وليس نورساً». وشرعوا بالقهقهة مجدداً. رجال الرئيس فقط لم يضحكوا واستمروا بمراقبتنا أنا ولارا.

تملكني عجزٌ عن فعل شيء أمام هذه السخريات وعدم حماية الفتاة التي بجانبي، ولكن ماذا كان بإمكاني العمل ضد رجال مسلحين.

هدأ الرئيس بعدما ضحك لمدة من الزمن، واستعاد جديته وقال: «رأيت الكثير من ألاعيب بلاغات السلام هذه. يلجأ جميع المشاغبين، والإرهابيين، والفوضويين الذين يريدون إفساد أمان المجتمع، إلى مثل هذه البلاغات. فنيت عمري وأنا أضع حداً لهم. هذا يعني ظهور مثل هذه النماذج أمامي في هذه الجزيرة أيضاً. لا تقلقوا، سينتهي كل شيء بالطريقة نفسها. ولا سيّما أنه لم يعد أحد يصدق ألاعيبهم الرحمانية النيرة هذه. انظروا إلى هذا الشعر البدائي. لا يكتبه طالب مرحلة ابتدائية. استطيع أن أكتب لك خمسين بيتاً في اليوم من هذا الشعر، لا بل مئة بيت أيضاً».

قالت لارا: «ألكسندر بوشكين من كتبه».

قال الرئيس: «ها هو كل شيء يتضح شيئاً فشيئاً. اعترفت بفمك أنك جزء من مؤامرة شيوعية».

كان الرئيس ينسى شيئاً فشيئاً أنه في الجزيرة. كان يوشك أن يعطي التعليمات لرجاله باعتقال الفتاة المشاغبة التي أمامه.

قالت لارا: «مات ألكسندر بوشكين قبل الشيوعية بسنوات».

قال الرئيس: «وليكن، أساساً لطالما تمتع الروس بروح الشيوعية».

ثم أكمل طريقه وذهب دون النظر في عيوننا. ولحقه الآخرون.

همست للرقم ١ الذي كان يمر من أمامي: «عار عليك! عار عليك ما تفعله!»

توقف للحظة ولكنه لم يلتفت وينظر، ثم سار خلف الرئيس.

أغضبنا هذه اللقاء. ولكن انتباههم إلى هذه الحالة الفريدة حول هذه الهزيمة إلى انتصار.

لم يكن هنالك أحد في الأوساط. بالرغم من انتظارنا للناس القادمين في الطريق المشجر والبلاغات بأيدينا، إلا أن أحداً لم يأت. كانت الأجواء ساكنة.

زاد الفرح بداخلنا عند انتظارنا لمدة أطول. لأنه لم يأتي أحد رغم مضي ساعة من الزمن. فقط الرئيس ورجاله واثنان من سكان الجزيرة. هذا هو كل شيء!

إن عدم مشاركة سكان الجزيرة في هذه المجزرة ملأ قلوبنا بأنوار الأمل. أي إنهم قالوا ما قالوه في اجتماع البارحة لكونهم مجبرين على ذلك، ثم فكروا جيداً واستعادوا رشدهم. إن الثقة التي رسخها سكان جزيرتنا في قلوبنا، جعلتنا ندرك أن هذا السكون ليس إلا مقاومة شعبية.

إن الحادثة الوحيدة التي نعاني في فهمها، هي وقوع الرقم ١ في الفخ بهذه السهولة وانجراره إلى صفوف الرئيس. من الواضح أنه أعجب باستثارة مشاعر المالك الوحيد للجزيرة، وبدأ يرى نفسه ذا شأن أعلى منا. ولكن إذا استمرت الأمور على هذا الحال، من الممكن أن نكسبه في صفنا مجدداً.

كنا نتلذذ بهذه اللحظة حتى سمعنا أول صوت إطلاق نار. كانت التلة التي بقربنا في موضع يرى شاطئ النوارس فيها. تسلقناها على الفور. حيث كانت أصوات الأسلحة قد ازدادت.

كان المنظر، الذي رأيناه عند وصولنا إلى القمة، يستدعي الدهشة. وقف الرئيس ورجاله على الشاطئ يطلقون النار على النوارس، فأصاب كثيراً منها رجالهُ المحترفون.

كانت النوارس تصرخ وتطير في مسارات دائرية تاركةً بيوضها. رأينا كيف اصطدم زوجان منها في الماء مصبوغين بدمهما الأحمر. وكأنهما ينقضّان على المكان الذي توجد فيه الجزيرة المفقودة. كانت الأسلحة تفرقع واحد تلو الآخر.

كان من المخيف مشاهدة هذه المجزرة المروعة دون فعل شيء، فأيدينا وأقدامنا مقيدة. لم تتوقف الدموع المنهمرة من عيون لارا. كانت تتنهد بتقطع، وحيناً أخر تهمهم قائلة :«أيها القتلة الوضيعون».

كانت دوي الأسلحة يسمع في كل مكان في الجزيرة، ولكن لم يكن أحد في الأنحاء. أعتقد أن الجميع انغلقوا في منازلهم. اعتراني الفضول لمعرفة ماذا كان الكاتب ليفعل، لا بد من أنه يشاهد المجزرة من تلة أخرى أو ربما يجلس في منزله مغلقاً أذنيه لأن قلبه لم يطاوعه للذهاب.

استمرت المجزرة عدة ساعات، ولكن النوارس كانت بأعداد كبيرة مما جعل مهمة تدميرها هكذا بعدة بنادق أمراً مستحيلاً. كان بإمكانها الهروب والابتعاد عن الشاطئ، ولكن لا تلبث أن تعود وتدخل ضمن مدى الأسلحة جراء غريزة حماية بيوضها.

بعد قتل الرجال نحو خمسين أو ستين نورساً، إما سئموا إمّا تعبوا إمّا قد غيروا التكتيك. رأيناهم يعودون. عندما تركنا التلة وعدنا إلى منازلنا نرتعش مروعين. كانت النوارس مستمرة بالطيران وهي تصرخ. ولكن بعضاً منهم لم تعد مرة أخرى إلى الشاطئ حيث ترقد بيوضها التي تحمل صغارهم.

- ١٠ -

بمزاج متخبط خرجنا في الحال بحثاً عن صديقنا الكاتب. لم يبق سبب لدينا لنشعر بالخجل. كنا قد كسبنا نصراً حتى لو كان صغيراً. نعم ماتت بعض النوارس ولكن عموماً قد باء هذا الأمر بالفشل بالنسبة للرئيس ورجاله. لا بد أنهم لن يقدموا على هذا الأمر لمدة من الزمن بعد موقف سكان الجزيرة.

لم يشاركنا الكاتب، الذي وجدناه جالساً شارد الذهن في "المياه البنفسجية"، أفكارنا هذه. قرأ البلاغ الذي أعدّته لارا، هز رأسه، أعرب عن إعجابه به، ولكن لم يتردد في القول أن ليس هنالك سبب يستدعي التفاؤل لهذا الحد.

لم يكن الرئيس رجلاً يستسلم بمحاولة أو اثنتين. بالنسبة له ما حصل هنا ليس إلّا أنموذجاً صغيراً مكرراً لما كان يحصل في الوطن الأم. وجد الرئيس لنفسه، عند تقاعده، بلداً مصغراً، وسيتلاعب كثيراً به. سيحاكي جميع تجاربه، وسيطبق كل أساليبه الوسخة.

كنت سأقول: «ولكن الشعب...»

قال: «ما تسميه "الشعب" هو شيء متغير. اليوم يتصرفون هكذا، غداً يفعلون العكس. يتعلق الأمر بالتحفيز والتهديد...»

تحمست في تلك الأثناء لفكرة لامعة خطرت ببالي.

قلت: «انظروا. دعونا نبدأ غداً بجمع لوز الصنوبر. وليباشر سكان الجزيرة كلهم بعمل جمع اللوز. ولنقمْ مهرجاناتنا كما في كل عام. ولنتناول طعام العشاء الجماعي كما في كل مرة عندما ننهي ملأ الأكياس باللوز. وليعزف أصدقانا ألحاناً راقصة بالقيثارة والفلوت، ولنرقص، باختصار لنعود إلى حياتنا السابقة. في جو حماسي كهذا سينسى الرئيس أيضاً واستنفاره الملعون. لن يقول للناس التي على رأس أشجار اللوز "تعالوا لنقتل النوارس"».

ضحكت بصوت عال لشدة إعجابي بهذه الفكرة، ولكن لم يسمع سوى صوتي فقط. لم يشاركني الكاتب ولارا حماستي هذه. كانا يبدوان قلقين.

قالت لارا: «لا أعلم. فبداخلي هاجس مخيف، ولكن دعونا نجرب رغم ذلك».

شاركها الكاتب الرأي. قال: «لن نفرط بالنضال. سنجرب بطبيعة الحال، ولكن لا تنسَ أن أمراً كهذا لن يكون سهلاً على الإطلاق».

لاحقاً، فكرت كثيراً بكلام الكاتب هذا. إن تضحية الإنسان بنفسه رغم معرفته المسبقة بما سيصيبه، لا بد أنها بمنزلة الاستسلام للقدر. قرأت ذات مرة في الأفلاطونية جملة تخص الحكماء، كتبت حسبما أعتقد أن أحد الحكماء قد حذر الشعب من أمطار ستأتي ولكن عندما لم ينصتوا إليه، لم يكن مضطراً لأن يتبلل مع أولئك الحمقى ومِن ثمَّ يمكنه الذهاب إلى منزله والجلوس براحته.

ذهبنا بعد الظهيرة إلى جميع البيوت التي استطعنا الذهاب إليها، دعونا جيراننا لجمع اللوز معاً في اليوم التالي. ربما أبكرنا بضعة أسابيع للقيام بهذا العمل، ولكن لوز الصنوبر قد نضج، ولا مشكلة في قطافه.

لم يصدر أي صوت من الرئيس ورجاله طيلة اليوم، لم يظهروا في الأنحاء، وكأن الجزيرة عادت إلى أيامها الهادئة السابقة متهيئة لمهرجان قطاف اللوز الذي يقام في كل عام.

وزع نجل البقال بلاغاً لكل بيت من بيوتنا. عند بداية رؤيتنا للورقة علمنا أن هنالك مكروهاً. يؤكد البلاغ بشكل صريح مرة أخرى من تعود إليه ملكية الجزيرة، وأن أشجار الصنوبر تدخل ضمن هذه الملكية، وبطبيعة الحال إن اقتطاف حبة صنوبر واحدة سيدخل ضمن نطاق السرقة. إضافةً إلى صورة عن وثيقة ملكية مرفقة مع البلاغ.

أتذكر أنني وجدته عبارة عن "بلاغ مقابل بلاغ". أي "سند تمليك مقابل بوشكين".

كنا نتناول طعام العشاء في تلك الأثناء. والكاتب معنا. تساءلنا ما العمل بعد أن تلقينا الصدمة الأولى. اقترح الكاتب أن نغير خطتنا، وأن نذهب في الساعة المحددة من صباح الغد إلى قطاف لوز الصنوبر.

هذا ما فعلناه. ذهبنا باكراً في صباح اليوم التالي إلى تلك الأماكن المنعزلة من الغابة الجميلة ذات أشجار الصنوبر الممتدة إلى السماء. نحمل بأيدينا أكياساً وحبالاً. كنا ما يقارب العشرين شخصاً. لم يشارك كل سكان الجزيرة في هذا العمل ولكن عددنا كان كافياً. طلبنا من أصدقائنا ممن يتقنون العزف على القيثارة والفلوت العزف بدلاً من اقتطاف اللوز بغية تشجيع من كان معنا وحث الآخرين. كنا سنقطف عنهم أيضاً. آملين أن منظر اقتطاف لوز الصنوبر بفرح في الغابة سيجدي نفعاً. جاء أصدقاؤنا بآلاتهم الموسيقية. وبدؤوا عزف ألحان مرحة. فبدأت طيور الغابة بالتغريد لدى سماعها أنغام الفلوت. في خضم ذلك لم تظهر النوارس في الأنحاء. حتى إنها لم تكن تطير، كانت قد انغمرت في صمت عميق.

كنا نجمع ثمار الصنوبر في الغابة ونضعها في أكياس الخيش. فنتركها لاحقاً لتجف تحت الشمس، وبعد مرور مدة كنا سنكسر الثمار ونخرج اللوز اللذيذ منها ونغلفها. لقد كان عملاً نقوم به كل عام. جمعاً كمية لا بأس بها من ثمار الصنوبر، أخذنا قسطاً من الراحة عندما كانت الشمس في أوجها. شرعنا بأكل الشطائر التي جلبناها معنا.

رأينا في تلك اللحظة قدوم رجال الرئيس إلى غابة لوز الصنوبر. وصلوا ووقفوا بجانبنا.

قالوا: «إنكم تقومون بجمع اللوز في ملكية ليست ملكيتكم. هذا عمل غير شرعي. تفرقوا فوراً!».

«لن نغادر قبل أن يقول لنا ذلك صاحب الجزيرة».

«أساساً نحن هنا بتعليمات من صاحب الجزيرة».

«ليس لديكم الصلاحية بذلك!».

«بلى، نحن تابعون للوحدات الأمنية في الدولة، وهذه الجزيرة جزء من بلدنا. نحن المسؤولون هنا عن تطبيق القوانين. تفرقوا فوراً، وإلا...»

«وإلا ماذا؟»

سحب الرجال أسلحتهم عند هذه النقطة وقولوا: «لدينا الصلاحيات في اعتقال من يخالف هذا الأمر».

ضحك الكاتب بحرقة. «لا يوجد حتى سجن في هذه الجزيرة!».

«تجرَّؤوا على المخالفة وسترون إن كان هنالك سجن أو لا».

خرجت الأمور عن طورها تماماً. لم يكن أمامنا غير التخلي عن جمع اللوز.

غادرنا المكان عاجزين وقد تركنا ما جمعناه من لوز هناك. لم نتكلم أبداً في طريق العودة، سلكنا طرق منازلنا مباشرةً. كسب الرئيس. لن ينال أي أحد حصة من ذلك اللوز الذي يعدّ مصدر دخل سكان الجزيرة. علاوةً على ذلك، كان الرجال مصممين لدرجة أنه كان من الممكن أن نخسر منازلنا في نهاية الأمر.

كان خوف البقاء دون دخل وخسارة منازلنا من جهة، و من جهة أخرى حلم الثروة العظيمة التي سنكسبها من جزيرة ستتحول إلى جنة سياحية. صمت عصيب كان قد حل على الجزيرة. لم تكن حتى للسكاكين أن تفتح فم لارا. غدونا في وضع يتأكد فيه صحة الاعتقاد بأن الظلم ينتصر في كل مكان ويهزم الخير دائماً.

جرب السيد كاتب العدل وبعض الرفاق زيارة الرقم ١ كحل أخير. ذهبوا يرجونه عدم الخضوع للرئيس وعدم إيذاء أصدقائه من سكان الجزيرة، معولين على صداقتهم القديمة. علمنا بذلك لاحقاً.

استقبلهم الرقم ١ بشكل جيد بحسب كلامهم، تلعثم ببداية الأمر ولكن عند إصرارهم الزائد قال: «صدقوني أنا أيضاً ما بوسعي فعل شيء. ظهرت بعض الإشكاليات الخاصة بوثيقة تمليك الجزيرة التي تتعارض مع القوانين. سأخسر وثيقة التمليك من بين يدي إذا ما لم أمتثل لأوامر الرئيس. لم تدفع ضرائب توريث هذه الجزيرة المنسية في وقتها إضافة إلى الضرائب العقارية. لقد ارتفعت مع فوائدها المتراكمة كل هذه السنين إلى مبالغ مرتفعة مستحيلة السداد. باختصار، في اللحظة التي أعارض فيها الرئيس سنضطر جميعاً بما فيهم أنا لترك هذه الجزيرة. ستذهب ملكية الجزيرة للدولة. المعذرة يا أصدقائي، لا حل أمامنا إلا تنفيذ ما يقول».

ثم بدأ الدفاع عن الرئيس: «ثم إن الرجل رئيس دولة عظيم! بالطبع يعرف كل شيء أكثر منا. دعونا لا نكنْ في موضع الصراع مع الرئيس بسبب نوارس متوحشة . لن يتأذى أحد منا إذا امتثلنا لتعليماته، سنعيش بهناء. توجد ثروة هائلة في نهاية الأمر».

عاد الأصدقاء من بيت الرقم ١ منكسة حرابهم منطفئة أحلامهم. عند روايتهم لنا لهذا اللقاء أخبرونا بنبرة حزينة جداً: «قوتنا لن تغلب الرئيس! من الأفضل الامتثال لأوامره».

قلوبنا ملأى بالتمرد، انهمرت الدموع مجدداً من عيون لارا. ركل الكاتب الحجارة التي على الأرض ولكن هذه هي الحقيقة المرة. كنا عاجزين.

جاء بلاغ آخر في ذلك المساء إلى بيوتنا. استدعينا جميعاً للتجمع في الساحة الساعة ٨ صباحاً في يوم الغد للقتال ضد النوارس. لم يخطر في بالي أبداً أننا سنتلقى ذات يوم أمر الاستنفار في جزيرتنا الهادئة تلك. ولكن قد حصل هذا أيضاً.

أكد البلاغ أن الأسلحة ستوزع علينا، وتضمن تعليمات تنص على وجوب ارتداء السراويل والأحذية لكلّ الرجال والنساء. كان بمقدورنا اصطحاب الماء والطعام بشرط أن تكون الكمية قليلة لأننا لن نعود إلى المنازل لمدة طويلة. ويوصى بارتداء القبعات والنظارات الشمسية.

بكيت لارا بصمت ليلاً في الفراش، بللت دموعها خديها مرة أخرى. ثم اقترحت بنبرة صوت يائسة أن نترك الجزيرة. قالت: «فلنذهب من هنا! لم تعد هذه جزيرة، بل معسكر تعبئة».

قلت: «إلى أين بإمكاننا الذهاب! بات كل مكان معسكراً. ثم إن كانت النوارس تقتل هنا، فإن البشر تقتل هناك. هل تعتقدين أن ظروفاً أفضل تنتظرنا في البلدة التي جئنا منها!»

لم تجبْ لارا، واستمرت بهز كتفيها. تقطع قلبي، ولكن ماذا كان بوسعي أن أفعل!

- ١١ -

يا للعجب! بدأ الصراع بالنوارس، ولكن بات الصراع يأخذ منحاً شخصياً وتحول إلى صراع بيننا نحن البشر. مهما كان ذلك مؤلماً، ولكن علي الإقرار بأن هذا الصراع جلب الحيوية لهذه الجزيرة. كانت حماسة الصراع شيئاً افتقدته أرواحنا المتخبطة منذ زمن. أستطيع معرفة ذلك من وجه لارا المحمر غضباً، ومن عظمتي خديها المحمرين. وفي بعض الأحيان من خلال حدة النظرات الكاتب القاتلة.

ماذا عن النوارس عند حدوث كل هذا بين البشر، ماذا كانت تفعل، كيف كانت تداوي جراحها. لم نكن نعلم. فلم يكن لدينا الوقت لمراقبتهم من جهة، ولم يكن بالإمكان فهم شيء من وقفتهم الوقورة دون تعابير من جهة أخرى.

كنت أفكر بعض الأحيان قبل حدوث هذه الأحداث، ووضعت نفسي مكان النوارس وشاهدت الجزيرة بعيونهم. يا ترى كيف كانوا يرون البشر الذين يسيرون في الأسفل، يتكلمون، ويأكلون الطعام، عندما كانوا ينظرون من السماء؟ ما كانت أفكارهم بخصوصنا؟

كنا نحن البشر نفكر حول ماهية الكون، ونتوصل إلى الأحكام ولكن لا نهتم لماهية أفكار الكون بخصوصنا.

لم تكن لكل هذه الأفكار فائدة لنا. لأن الصباح قد حل، وبدأت الشمس تحرق الجزيرة بخيوطها، وتشع على سطح البحر مثل المرآة. بدت أوراق الأشجار أكثر خضرةً بفعل الندى المتكون ليلاً. شرعنا نراقب رصيف الميناء من بعيد بحيرة بينما بدأ ضباب الصباح ينقشع. بداية ظهر رجال الرئيس الذين يعيشون في الزورق، ثم جاء الرقم ١. ثم حضر بعض أصدقائنا الواحد تلو الآخر. لم يظهر الرئيس في الأوساط بعد. ربما كانت ستتم دعوته عند اجتماع الحشود. ربما كانت قوانين الدولة هكذا. من أين لنا أن نعرف!

أحصينا ١٨ شخصاً من سكان الجزيرة، لم يأتِ أحد لاحقاً. أساساً كانوا يراقبون من جاء في الجوار بقلق شديد. كانوا يتلفتون وكأنهم يقولون "ليت فرصة تسنح لنا فنفر من هناك".

جاء الرئيس. رأيناه يلقي خطاباً عليهم. وزَّع رجاله الأسلحة عليهم جميعاً. ثم بدؤوا بالسر. مشى الرجال ذوو النظارات السوداء في المقدمة. كان الرئيس خلفهم مباشرةً. كان سكان الجزيرة يتبعونهم وكأنهم مفرزة منهكة. نحن أيضاً بدأنا نتبعهم من مسافة محددة.

كنت أنظر إلى نورسين يطيران فوقنا تماماً عندما سمعت صوت الكاتب. كان قد ظهر أمام المفرزة في الطريق، ذو الأشجار مشذبة الرأس، صائحاً: «توقفوا! توقفوا! لن أسمح لكم بالذهاب خطوة واحدة إلى الأمام».

سأل الرئيس متفاجئاً من هذه الجرأة غير المعقولة: «ومن تكون أنت؟»

«أنا أعارض هذه المجزرة بصفتي أحد سكان الجزيرة».

«تَنحَّ جانباً قبل أن يؤذيك رجالي!»

«لن أتنحى. لن أسمح لكم بقتل النوارس.»

«وما دخلك أنت بالنوارس؟ انظر، مالك الجزيرة معنا.»

«إن مالك الجزيرة الأساسي هم النوارس. جاؤوا قبلنا بآلاف السنين إلى هنا».

«ولكنهم متوحشون. هل يجوز للمتوحش أن يكون صاحب جزيرة؟»

«إن كانوا وحوشاً، فهل أنت متحضر؟»

«بالطبع. الحضارة هي صاحبة الملكية، مهما عاش الوحوش هناك من آلاف السنين فلن يعدّوا مالكون».

«النوارس هم مالكو الجزيرة!»

«كلا يا سيد. النوارس أعداء الجزيرة. أبعدوا هذا الأحمق من طريقي».

كان اثنان من رجال الرئيس لا يتمالكان أنفسهما رأيناهم يرميان أنفسيهما، بناءً على الأمر الغاضب للرئيس، باتجاه الكاتب، ويُنزلان أخمص البندقية عل رأسه ويجرّانه إلى

جانب الطريق. لا بد كان الكاتب قد فقد الوعي، لأنه لم يكن يتحرك. لم أعرف ما كان بوسعي أن أفعل، بدأت أعض لساني من شدة الانفعال. أمسكت لارا بقوة وقد أرادت القفز إلى الأمام والركض محاولاً منعها من القيام بجنون كهذا. إذا تركتها، سيكون تعرضها لضربة أخمص هي الأخرى أمراً مؤكداً.

ثم سمعنا الرئيس يقول لرجاله: «احجزوا هذا الوغد المشاغب في مكان ما!». حمل رجال الرئيس الكاتب من كلتا يديه وجروه. تابع الرئيس والبقية طريقهم.

نحن أيضاً تبعناهم. وشهدنا مأساة مجزرة أكبر من التي رأيناها يوم أمس.

كانت النوارس تطير وهي تصرخ مجدداً. لتعود غريزياً بعد تركها للبيض والتحليق للحظة لتتلقى رصاصة، فتصبغ بالدم الأحمر. كانت النوارس تتساقط في البحر ككرات ضخمة منفجرة حمراء اللون تاركة الريش يتطاير من خلفها.

إن محاولتها حماية صغارها، جعلت تصرفات قاتليهم أكثر وحشية، قد استثاروا الدمع في عيون الإنسان. كان جلياً أن سكان الجزيرة كانوا أكثر شفقة، وأنهم لم يكن يستمتعون بالعمل الذي يقومون به. أغلبهم كان يطلق النار إلى الفراغ. ولكن الرئيس ورجاله كانوا يطلقون النار دون توقف ويعرضون النوارس المقتولة لبعضهم بعضاً.

على الحال نفسها تقدموا حتى الرمال. ثم بدؤوا يدهسون بعض البيوض تحت كعابهم. لم يكن يبدو علينا ولكن تهشم صغار النوارس التي في البيوض تحت الكعاب أمر مخيف. أغضب هذا الأمر النوارس. بدأت تهاجم من كان على الساحل مغيرة على رؤوسهم ولكن لم يكن بمقدورها فعل أي شيء أمام الأسلحة. استمر الرجال بالقتل والنوارس بالموت.

تشكل راكم من النوارس على وجه البحر. ولكن لم يكن هذا المنظر ذلك البياض المكدس الذي رأيته في منامي فوق بحر أزرق اللون. كانت النوارس تتأرجح برقابها المكسورة وأجنحتها المحطمة بأمواج ناعمة لبحر أحمر اللون.

امتلأت الأرض والسماء بصرخات النوارس. لم تكن تشبه صيحاتها المعتادة. لم تكن تلك أصوات النوارس التي اعتدناها كوننا عشنا في الجزيرة لسنين طويلة. لأول

مرة سمعنا هذا الصراخ وهذا الذعر الذي يمزق القلوب. كانت لارا بجانبي تبكي بارتعاش، وتنزل اللعنات على هؤلاء الرجال.

لم نكن نشبع من الجلوس على الشاطئ عندما يكون البحر هائجاً، فنشاهد تأرجح صغار النوارس معه. قد أذهلنا ركوب النوارس الصغار الأمواج العالية، فترخي بدنها وكأنها تتأرجح في أرجوحة. وقوفها المبتدئ، والمترنح، والحزين كما هو حال صغار الكائنات الحية يملأ قلبنا بالشفقة.

لفت انتباهي للحظة نجل البقال الشاطئ. كان وحدَه يجثو على الأرض وينهض بعيداً عن المجموعة الأخرى بمسافة لا بأس بها. لم أكن أعرف ماذا كان يفعل ولكنني اعتقدت أنه يكسر البيض. يا ترى هل كان هذا نوعاً من مظاهر ميول العنف التي تظهر لدى بعض المتخلفين عقلياً؟ ربما كان يفعل كما يفعل الجميع ويقتل الصغار دون دراية ما كان يفعله.

دهشت لرؤية النوارس تبتعد عن الجزيرة بعد مدّة. وكأنهم توصلوا إلى قرار جماعي أو أنهم قد غيروا وجهتهم بتلقيهم أمراً بذلك. كفت النوارس عن القيام بحملات على بيوضها وطارت باتجاه غرب الجزيرة. اختفت فجأةً عن الأنظار بسبب تقاطع ذلك الطرف مع سفح يؤدي إلى البحر. لم يبق أي نورس في الأجواء، ولم تسمع أصواتهم. حل صمت كامل على الجزيرة.

لم يجد الرئيس ورجاله أمام هذا الصمت غير المتوقع إلا أن ينزلوا أسلحتهم، وأخذوا يتجولون فوق البيض بفرح وحشي. يرفعون أقدامهم ثم ينزلونها بسرعة كبيرة على البيوض. كانت البيوض تتكسر مقرقعةً، فنسمع أصواتها من المكان الذي تكون فيه أيضاً. كان سكان الجزيرة يقومون بهذا العمل أيضاً دون رغبة. لم يهسوا البيض أبداً.

لم يبق لدينا ما نفعله هناك. تفرقنا لنعرف أين قد سجن الكاتب. خطر شيء ما في بال لارا ونحن على الطريق. قالت بصوت أنهكه البكاء: «لنذهب ونتكلم مع زوجة هذا الرجل. ونحدثها عن المجزرة التي حصلت. فبالمحصلة هي أنثى. لديها الأولاد والأحفاد. بوسعها أن تتحرك لإقناع زوجها إذا استطعنا مخاطبة وجدانها».

هكذا كانت لارا، لا تستسلم أبداً. كانت تتخبط لالتقاط شعاع أمل حتى في أكثر الحالات يأساً. وكانت محقة فعلاً. لأنه بالرغم من عشرات المجازر، لم يكن الرئيس ورجاله قد اكتفوا باضمحلال بالنوارس هذا. إن النوارس التي كانت تغطي شواطئ الجزيرة بالآلاف قد قل عددها كثيراً. سنكون قد أنجزنا عملاً عظيماً إذا أوقفنا المجزرة حتى في هذه اللحظة.

فتحت لنا الباب مجدداً تلك الحفيدة البغيضة. كانت ترمقنا هذه الفتاة الطويلة، التي دخلت سن المراهقة، نحن سكان الجزيرة بنظرة استصغار لا متناهية، ولم تكن تجد ضرورة إخفاء هذه الملامح حتى عندما كنا نتقابل بالنظرات. كانت على الحال ذلك اليوم عندما فتحت لنا الباب. سألتنا بنبرة صوت مفتعلة رافعة حاجبيها: «ماذا تريدون؟». لا تنظر إلى ملامح وجهها، كانت وكأنها أميرة "كانكنر" تظهر تواضعها. قلت في داخلي: «اللعنة عليك»، ثم أخبرتها أننا نريد مقابلة زوجة الرئيس.

بدأت تقول الفتاة لنا "إنه ليس بوسعنا أن نأتي إلى ذلك المنزل كلما خطر ببالنا" حتى سمعت لارا تصرخ كالنمر: «أخبريها بسرعة، بسرعة! أقول لك بسرعة!».

أربك هذا الانفعال الفتاة، وقفت بحالة لم تعرف بها ماذا ستفعل، تكشر وجهها، أصبح باكياً. ثم ذهبت إلى الداخل. من حسن الحظ أنها لم تغلق الباب في وجهنا.

جاءت بعد فترة زوجة الرئيس السمينة توزع الابتسامات. قالت: «تفضلوا! تعالوا إلى الداخل يا شباب! هل تشربون فنجاناً من القهوة؟».

تفاجأنا بهذا الاستقبال الجيد، ونظر بعضنا إلى بعضٍ، ثم دخلنا إلى الداخل. جلسنا على الأرائك التي دلّونا عليها في غرفة الاستقبال. لم يكن هذا المنزل مفروشاً بالقليل من الأثاث كما هو حال باقي المنازل في الجزيرة، كان مثل بيوت المدينة تقريباً. كان "مدوكراً". الأرائك الموردة، الطاولات الصغيرة الملمعة، الستائر، أعطت اللوحات المنزل جواً مختلفاً.

قالت لارا بعد أن رفضت عزيمة زوجة الرئيس للقهوة: «سيدتي! هل تعرفين كيف يقوم البجع بإطعام صغارها؟»

قالت المرأة المتعجبة: «كلا».

«إذا أحست بجعةٌ أمٌّ بجوع صغارها، تمزق قطعاً من لحمها وتطعمهم».

«حقاً؟ كم هذا غريب، لم أسمع به من قبل، في الحقيقة تأثرت كثيراً».

«سيدتي، بماذا ستشعرين إذا قتلت بجعة وهي تنتزع لحماً من لحمها لتطعم صغارها؟».

«في الحقيقة سيكون أمراً سيئاً ولكن لا أستطيع القول إني فهمت إلى أين تريدون الوصول. ما السبب الذي جعلني أتشرف بهذه الزيارة يا أيتها السيدة الشابة؟»

«السبب أن النوارس التي تحاول حماية صغارها، تماماً كالبجع تتعرض للقتل الأن. تقتل آباء وأمهات النوارس بالبنادق، والصغار التي في البيض دهساً بالكعاب. أرجوك يا سيدتي، تكلمي مع زوجك، قولي له أن ينهي هذه الوحشية».

لاحظت، عندما كانت تقول لارا هذه الكلمات، تجمد الدم في عروق زوجة الرئيس، ثم التهرب منا بخطف أنظارها عنا. كانت تنظر خارجاً من خلال النافذة إلى نقطة ثابتة، وانقبضت شفاهها الصغيرة.

«أنت أيضاً أُمٌّ، أنت جدة يا سيدة. لن تحتملي رؤية هذه الوحشية. لو رأيت كيف كانت النوارس المسكينة تحاول حماية صغارها وهي تصرخ...»

نهضت زوجة الرئيس بقولها: «كفى» بصوت عنيف. واضطررنا إلى الوقوف نحن أيضاً بناءً على ذلك.

«هل تعلمون كم مرة سمعت هذه الرجاءات خلال حياتي؟ ولا سيّما بحق البشر وليس بحق الطيور».

سكتت للحظة ولكن بطبيعة الحال لم يكن بإمكاننا الإجابة عن سؤال كهذا. ثم أكملت.

«زوجات الموقوفين وأمهاتهم، عائلات محكومي الإعدام، النساء اللواتي يبحثن عن أبنائهن المفقودين، أي عدد كبير من المتوسلين».

«ماذا قُلْتِ لهم يا سيدتي؟»

«كنت أجيبهم الجواب نفسه دائماً. زوجي رجل دولة وأنا لا أتدخل بأعماله بأي شكل من الأشكال. هو من يعرف ما تتطلب مصلحة الدولة. أما داخل المنزل، فهذا شأني».

كنت سأقول: «ولكن هو الآن لا يحكم دولة...».

وعليه غضبت المرأة أكثر وقالت: «لا صغير أو كبير في الإدارة! ما دام زوجي يحكم هذه الجزيرة...».

قالت لارا: «ولكن أنت أيضاً معاونة رئيس! يجب أن يكون لديك أيضاً صلاحيات. كما أن تفكير النساء أفضل من الرجال في بعض الأحيان».

يبدو أن هذه الكلمات الأخيرة لامست كبرياء المرأة. لأن وجهها قليلاً

قالت: «يا بنتي، هناك حدود لما أستطيع فعله. منذ سنين الوضع هكذا. لا أريد أن أجرحك ولكن صدقيني أنا لا أتدخل بهذه الأمور».

من الواضح أنه لا يمكن لهذه المرأة أن تفعل شيئاً. توجهنا نحو الباب يائسين. وقد ظهر على محيّاها ملامح الخيانة مررنا من جانب الفتاة التي كانت قد فتحت الباب لنا وتنتظر، وخرجنا. ولكن في هذه اللحظة تماماً قالت لارا لزوجة الرئيس: «على الأقل ساعدينا لإطلاق سراح صديقنا الكاتب الذي جرى اعتقاله صباح اليوم. آمل أنك لن تحرمي جيرانك من مساعدة صغيرة كهذه».

أعتقد أن كلمة "الجيرة" كانت ذات وقع على المرأة. ذكرناها بوجوب أن تتعامل بشكل أفضل مع الناس الذين ستقابلهم وجهاً لوجه والذين ستقضي الباقي من عمرها معهم.

قالت وعلى وجهها ملامح ابتسامة مؤقتة: «حسناً، لن أعد بشيء ولكن دعوني أكلمه».

سألت لارا عندما خرجنا: «من أين خطر البجع على بالك؟»

قالت: «لا أعلم، خطر البجع فجأة ببالي عندما كنت أفكر كنت أفكر بطريقة لبدء حديث يجذب المرأة».

«هل تطعم صغارها بلحمها فعلاً؟»

«لا أعلم، اعتقد الكثير من الناس منذ عصور قديمة جداً ذلك... حتى أنه لهذا السبب، يشبّه البجع، بلحمه ودمه، بعيسى المسيح الذي يغفر ذنوب البشر».

«ولكن حتى هذا لم يؤثر بالمرأة!»

«صحيح. إن قلوب هؤلاء الناس متحجرة».

«برأيي أن الرئيس لا يستطيع العيش دون أن يقتل أحداً. اعتاد هذا الأمر منذ سنوات. لا بد أنه يشعر أنه عديم الجدوى عندما لا يقتل».

«من يدري. قلب الإنسان مظلم جداً ومعقد جداً».

بينما كنا نمشي باتجاه رصيف الميناء ونحن نتجاذب أطراف الحديث، بدأنا نسمع موسيقا خفيفة. سكتنا فجأةً. وكأن تلك الموسيقا، التي كانت تأتينا متموجة مع الرياح الخفيفة، تدخل إلى عقولنا مروراً بقلوبنا وليس من آذاننا. كان الصوت ضعيفاً ولكنه كان يدوي داخل رؤوسنا. عادت إلينا الحالة النفسية التي استحوذت علينا أثناء مجزرة النوارس مرة أخرى. وكأن الأرض والسماء قد امتلأت بأصوات النوارس.

عندما تقدمنا بالسير قليلاً، رأينا حشداً صغيراً مجتمعاً أمام أحد المنازل. كانوا يستمعون لعازفي القيثارة والفلوت.

كنا قد اعتدنا تجسيد هؤلاء الأصدقاء بآلاتهم للهدوء والفرح والبهجة في بعض الأحيان. جالت الألحان المهمومة أحياناً على مر أيامنا الهادئة على الجزيرة. لم تكن لحظات الفراق، والأحزان، والذكريات المؤلمة غريبة عنا إلى هذا الحد. السنوات المنقضية، البياض الذي غزا الشعر، المشاعر التي لم يفصح عنها... حتى إن لحن الرثاء عزف أحياناً. ولكنها كانت شحيحة مثل هذه المقطوعات الحزينة. ولأول مرة كنا نسمع في الموسيقا التي كانت تعزف تلك الليلة سرد عبارات الصراخ، والهلع الذي يمزق القلوب.

عندما مررنا من أمام المنزل الذي تجمع أمامه الحشد الصغير وبينما نبتعد، بدأت سماع صوت لارا في الألحان التي كانت تلحقنا. كانت تبكي مرتعشة، وتنزل اللعنات على الرئيس ورجاله.

لقد بدأ جمال الجزيرة يتحول إلى مصدر قلق يوخز قلبي. كنت أشعر بعجز كبير.

وفي المناسبة يا صديقي الكاتب العزيز، تذكرت أنك حدثتنا بجميع هذه الأقوال سابقاً، وحذرتنا جميعاً وشعرت بأن شيئاً كسر داخلي. ولا سيّما أنه كسر بشكل غير قابل للإصلاح.

نحن البشر نفتن بعقولنا دون معرفة حدودنا، لم نتعلم، لم نتعقل. وعندما نفهم كل شيء، يكون قد فات الأوان. عندما كنا نتساءل ونحاول إيجاد المكان الذي سجنوك فيه في تلك الليلة، بضيق قوض قلبي التمست نتائج ستزداد سوءاً وكأنه هاجس داخلي.

ماذا بوسعي أن أقول! سامحني!

لا أعلم إن كنت على قيد الحياة أم أنك في قاع بحر تغطيه الطحالب أو تحت التراب على عمق مترين.

لا يمكنك سماع ما أكتب حتى لو كنت على قيد الحياة، ولكن رغم ذلك أريد مخاطبتك بكل جوارحي يا صديقي العزيز، معلمي، رفيقي.

سامحني!

سامحني!

سامحني!

- ١٢ -

لجأنا إلى حديقتنا وإلى أمان الليل بعد ذلك اليوم الحزين نجلس بين روائح العطر، ونحتسي نبيذنا والحزن عميم. فكرت "لماذا كان هذا الرجل سيئاً إلى هذه الدرجة؟". "لِمَ هو سيئ إلى هذا الحد؟".

كان الكاتب الذي أطلق سراحه بعد الظهيرة بفضل مساعي زوجة الرئيس معنا بعدما سجن في مستودع الحطب خلف دكان البقال. قد نال شرف أنه أول موقوف في تاريخ الجزيرة. كنا نتوقع أنه شهد أحداثاً كهذه سابقاً رغم عدم تحدثه لنا عن ماضيه. كان يبتسم بحرقة قائلاً: «حتى هنا تمكنت من جعلهم يعتقلونني». عندما أتى طلب منا دواءً يسكّن فيه صداع رأسه على ما يبدو جراء تعرضه لضربة بأخمص بندقية.

سألتْ لارا نفسها السؤال الذي خطر ببالي قبل قليل وكأنها كانت تتكلم مع نفسها. كانت تتكرر مؤخراً صدف كهذه. أعتقد تخاطراً قد نشأ بيننا لمعيشتنا معاً.

أثير فضولها مرة أخرى بعد صمتها لمدة من الزمن:

«لِمَ هذا الرجل سيِّئ إلى هذه الدرجة؟»

لم يصدر أحدنا أي صوت. كان الليل صامتاً، لم تكن تسمع أصوات النوارس، لم يكن يسمع صوتاً في الجزيرة. يا هل ترى، نجح الرئيس في خطته وطرد كل النوارس من الجزيرة؟ لماذا لم نر ذلك اليوم بعد الظهيرة أو مساءً أي نورس يطير؟ إلى أين ذهبوا يا ترى؟ لم نمضِ قبلاً يوم واحد دون أن نرى نوارسَ أو نسمع أصواتها. لذلك كان الصمت الذي غمرنا فيه مخيفاً. وكأننا لم نكن في الجزيرة إنما في ديار غريبة.

ارتشف الكاتب رشفة أخرى من نبيذه وكسر الصمت: «هذا الرجل يخاف بشكل كبير، هذا هو سبب كونه سيئاً: "الخوف الكبير الذي في داخله!" ستلاحقه الجرائم التي ارتكبها مدى العمر، ستحل عليه كلعنة. حتى في هذه الجزيرة البعيدة التي أتاها للتخلص منها».

قالت لارا الشغوفة بالشعر: «ولكن الأرنب لا يهرب لأنه يخاف، بل يخاف لأنه يهرب!»

يبدو أن الكاتب ولارا خاضا جداً في هذا النقاش. وأنا أكثر شيء أحبه، هو أن هذين الشخصين لن يفهما أبداً ميول العنف لدى البشر، لأنني أعتقد أنهما لن يشعرا بهذا في قلوبهما. بالنسبة إلي كان السؤال سهلاً. يوجد الظالمين والخيرون في هذه الدنيا. بالمناسبة لم أكن أعلم لِمَ يكون الشخص ظالماً أو خيّراً ولكن ها هو الأمر واضح. أردت المداخلة لأفصح عن فكرتي هذه ولكن هذين استمرا بالنقاش دون أن يعيراني اهتماماً، انطفأت كلماتي وذهبت.

حدثنا الكاتب عمّا يعرفه حول الرئيس. كنت أنظر إليه تارةً عندما كان يتكلم وإلى وجه لارا الذابل تارةً أخرى محاولاً فهم ما يدور في رأسها. ترعرع الرجل ضمن عائلة فقيرة، كان والده موظفاً دينياً. كما أغلب أبناء الشعب الذين لا يملكون النقود سجل في المدرسة العسكرية المجانية. يرى الكاتب أن عقولهم قد غسلت هناك، فلقد تم تلقينهم أن وطننا محاط بالأعداء من الداخل والخارج، وأن مهمة حمايته ألقيت على عاتقهم فقط. كان يبحث هؤلاء عن خائني الوطن في كل مكان. ثم أنهى دراسته، تزوج، أنجب الأولاد، وأنجز مهام بدخل صغير في مناطق صعبة في البلاد. وعندما وصل إلى رتبة عليا، لمع نجمه بانقلاب. ووصل إلى رئاسة الدولة.

«كان ذا عقلية تعدّ أن إدارة الدولة تكون بجعل الجماعات السياسية والعرقية والدينية في حالة تتصارع دائم».

في الحقيقة لم أكن أفهم هذه الأمور كثيراً. لا استطيع القول إنني عملت في السياسة أثناء معيشتي في البلاد. كان لدي فكرة عن الانقلاب، ومظاهرات الاحتجاج، والفوضى، والاعتقالات، والشاحنات العسكرية التي كانت تجول شوارع العاصمة، ولكن لم يكن لدي أي علم بأبعاد الأمر أو أسبابه. أخافتنا جميعاً البلاغات الرسمية التي كانت تقرأ في الراديوهات والتلفزيونات، وجعلتنا نؤمن بأننا مقبلون على مواجهة أخطار كبيرة جداً. أخجل من قولها الآن ولكن قضايا الاعتقالات، التعذيب، والموت "أنها تنفذ على الذين يستحقون ذلك!".

سألت الكاتب سؤالاً حيرني منذ مدّة طويلة: «هل جرى اعتقالك في مرحلة حكم هذا الرجل؟»

شحُب وجهه، وبح صوته، وتلعثم بشيء من قبيل: «هذه قضية أخرى!».

أومأت إليَّ لارا بعينيها وحاجبيها لكي أسكت، فسكت. لم نستطيع بأي وسيلة أن نجعل الكاتب يتحدث بخصوص ماضيه. أقام سداً في مرحلة من شخصيته لم يستطيع أحد تجاوزه. ما إن تصلون إلى هناك حتى تصطدموا بجدار ذاك السدّ.

باستمرار الحديث، لاحظت شيئاً فشيئاً أن فكري لا يواكب اسلوب الكاتب أو لارا. كنت كثير التوقف عند الخير والشر لدى الإنسان، وأحاول جر الحديث إلى هذا المنحى. كان يخطر ببالي بشكل مستمر كتابٌ كنت قد قرأته منذ عدة سنين.

قلت: «في الحقيقة واحد فينا عبارة عن تمساح!»

نظروا إلي بحيرة. أجريت مداخلتي بالقول: «"كارل ساجان (Carl Sagan)"، كان يؤمن بشيء يدعى "عامل ر". يأتي حرف الراء من "Reptile" أي من كلمة زاحف. يقول إن بني البشر قد خرجوا من الماء إلى البر، ولذلك فإن آثار عنف الزواحف ما زالت موجودة في بواطن عقولنا، فنصبح ميالين للعنف لحماية مناطقنا. أي إن كل واحد فينا عبارة عن تمساح».

على أيِّ حال، نجحت في شد انتباههم إلى هذه النقطة. حيث تطرق الكاتب إلى موضوع الخير والشر عند بني البشر. وتحدّث عن "إميل" للكاتب "جان جاك روسو". كما تحدّث عن مقالات "فرويد" بخصوص النزعات التدميرية لدى الإنسان.

حدثنا مطولاً عن موضوع " البيئة والتربية". هل كان الإنسان ظالماً منذ ولادته، أم كان يتعلم الظلم؟

قال: «هذه كلها نظريات فردية!» وأردف قائلاً: «أعتقد أنها لا تكفي لتفسير الموقف».

تحدثنا مطولاً عن جيراننا في الجزيرة. في الحقيقة خالجتنا مشاعر متناقضة. انحاز قسم من جيراننا ولو كان صغيراً إلى جانب الرئيس راضخين لتهديداته، ولكن كان

واضحاً أنهم يشاركون في هذا العمل مكرهين. لم يطلقوا النار على النوارس، لم يقتلوا الصغار، لم يكسروا البيض المتواجد في الصخور، وجودهم هناك كان شكلياً فقط. إضافة إلى أن أغلب سكان الجزيرة لم يصغوا إلى هذه التهديدات أيضاً ولم يشاركوا في المجزرة.

دعوني أحكي شيئاً غريباً سمعته ذلك المساء. بعث الرئيس بطلب العازفين، وطلب منهم أن يعزفوا ألحاناً تحمس الجموع التي تدعم الصراع ضد النوارس. ولكن لم يقبل أي أحد منهم هذا الاقتراح السخيف. عزف أصدقائنا موسيقا طبيعية وتلقائية وكأنها مقطوعة من الطبيعة لدرجة أنكم ستنسون أنها موسيقا، وستظنون أنها أصوات الجزيرة الطبيعية. كانت هذه الموسيقا جزءاً من حياتنا. فأصوات القيثارة والفلوت المسموعة في بعض الليالي، كانت وكأنها تدوي منذ بداية تشكل الجزيرة.

خلال هذه الدردشة المسائية في الجزيرة الهادئة، كانت أزهار البيلسان العطرة تنثر أريجها الذي ينعش النفس. فتعبق روائح كانت العطور في الليل، محولة المكان الذي نجلس فيه إلى حديقة فاتنة.

كان الشيء الذي لم أَنْسَهُ للحظة ولم يخرج من بالي خلال النقاش هو الحب الذي يمزق القلوب الذي أكنه للارا. كنت أحبها لدرجة جماً يضني القلب.

تلك الليلة كان قلبي مولعاً. وكأن كل شيء تكلمنا به كان غير مهم مهما كانت جديته وثقله. كنت أشعر أني أعيش كي أنظر إلى وجهها ولأن أسمع صوتها. هل كانت جميلة؟ نعم كانت جميلة بالفعل ولكن كان ذلك تفصيلاً غير مهم بالنسبة إلي. لو أصابها شيء، لو تغير وجهها، حتى لو أصبحت قبيحة، لما كانت ستتغير مشاعري اتجاهها. كان شيئاً يختلف جداً عن الجمال الذي جعلني متيماً بها. شيئاً لا يمكن وصفه، رؤيته أو الحديث به، هالة مختلفة، سلوك مختلف، انكسار خفيف في صوتها، تظلل خفيف في طرف شفتيها، الغمازة الصغيرة التي ترتسم على ذقنها عندما تضحك... هذه الأشياء كلها كانت أشياء جميلة. والأهم من ذلك، كنا توأم روح. كان ملجأً، وجدناه بأنفسنا، لن نخرج منه طيلة العمر، وتمليه الملذات في كل لحظاته.

انتهت هذه المحادثة الطويلة بما قالته لارا بخصوص معتقدات الشرق الأقصى.

فكل تجربة سيئة يعيشها البشر تغلق الشاكرات لديه، وكان يؤدي هذا إلى انتشار طاقة سلبية، هذا هو سبب الشر عند الإنسان.

جهم الكاتب وجهه معرباً عن عدم رضاه عن تعليقاتنا الفردية المبالغ بها.

قال: «هذا يعني أنه لم يبق أي مخرج لهذا الرجل. سُدت كلها»

ثم قال لنا وكأنه يعطينا درساً: «انظروا، إن المشكلة الأساسية التي لا تفهمونها هي كالتالي: الشيء الوحيد الذي يخشاه هؤلاء الرجال هو "السؤال". يصابون بالذعر عندما يُسألون سؤالاً واحداً. أما الذين يوجهون الأسئلة، يشعرون باضطرارهم لهذا الأمر فيستمرون بمقاومتهم حتى لو كلفهم الأمر اندثارهم. مثل عيسى المسيح، مثل سبارتاكوس، والأمثلة كثيرة في التاريخ. ولذلك، لا تربطوا هذا الأمر بالخير والشر لدى الأفراد كل على حده».

«حسناً، إذاً لماذا تقتل النوارس؟ فهي لا تحاكم النظام!»

توقف الكاتب للحظة، استغرب، ولم يعرف ماذا سيجيب. قال بين الجد والهزل: «ربما أنتم على حق. أففف لا تشغلوني!». ثم وقف وقال مدمدماً: «أساساً إذا وجد الظلم في مكان، سيكون الجميع هناك مذنباً بعض الشيء»، وذهب إلى منزله مترنحاً. كان واضحاً من مسكه لرأسه أنه ما زال يؤلمه.

يبدو أن الأخمص الذي تلقاه على رأسه والساعات التي قضاها في مستودع الحطب ذكرته بأشياء مخيفة. شعرنا في نبرة صوته بشيءٍ من الغضب علينا. سابقاً كان يغضب علي بموضوع الأدب فقط. كان يقول عندما يجد الفرصة مقاطعاً "هل اسمك بروست، هل اسمك بورجس؟". ولكننا الآن في حال نتحدث فيه هذا.

بعد أن قام الكاتب، استمرينا في الحديث بالموضوع كما كنا نفعل دوماً. تحدثنا لمدة خمس أو عشر دقائق أخرى، وأنهينا نبيذنا.

قصصت على لارا حكاية عصفور الدوري والصياد قبل أن تنام. من جهة أخرى تحسرت لما لم يخطر هذا في بالي قبل قليل. لأن الكاتب أيضاً كان يحب هذا النوع من

الحكايات. حسب رواية سمعتها في صغري، حطّ عصفور دوري مع صغيره على غصن شجرة. بعد قليل لحظ العصفوران اقتراب صياد تجمد شاربه وتزرف الدموع من عينيه لشدة البرد. قال صغير العصفور: «انظري يا أمي، كم هو رجل رحيم، فعيونه تدمع». حذرت الأم صغيرها بألا يصدر صوتاً وقالت: «لا تنظر إلى الدمع في عيونه بل إلى الدم على يديه!».

لم نكن عصافير دوري وكنا نعرف كيف نتعامل مع الصيادين أيضاً. عندما ذهبنا إلى فراشنا وسط روائح الزهور المنعشة، غرقنا أنا ولارا في هيام كبلسم يداوي جراحنا. إقبالها لي بجسمها الرقيق كأميرة مدللة، وضمها لي، كان أشبه بإدراك بحيرة أنها حقيقية بعد الظن أنها سراب في واحة، واللجوء إلى رحمتها وانتعاشها. كنت أعرف جيداً ماهية الشيء الذي كنت أحس به قبل أن نغط بالنوم بعد معاشرتنا الطويلة، الصامتة، اللطيفة، الحنونة، والحريرية.

"الامتنان!"

كنت كثير بالامتنان لها. في بعض الأحيان، كان امتناناً يجري الدمع الساخن من عيوني.

- ١٣ -

شن أول هجوم للنوارس في تاريخ الجزيرة عند ساعات الصباح الأولى من ذلك اليوم. لم نكن علمنا بعد بذلك عندما قفزنا من الفراش مذعورين ظناً منا أن قنبلة قد انفجرت في المنزل. ركضنا نصف نائمين باتجاه غرفة الضيوف التي كان الصوت يصدر منها. اصطدم نسيم الصباح المنعش بوجهنا، كانت النافذة مكسورة. عندما أنرنا الضوء، رأينا نورساً مغطى بالدماء في وسط الغرفة. كان يرجف محتضراً، أساساً لم يمض الكثير من الوقت حتى فارق الحياة. تمزقت جثته، ووقع رأسه إلى جانبه. كان منظر النورس الملطخ بالدماء مخيفاً للغاية. رأينا النوارس الميتة في البحر أو التي كانت ميتة سابقاً على الساحل، ولكن كان هذا أمراً مختلفاً تماماً. لأنه حصل داخل بيتنا. حيث رقد أمام الأريكة مباشرةً.

كانت لارا ترجف بجانبي. بعدما أزحنا الحيرة عن أنفسنا قليلاً، لاحظنا مجيء أصوات وصراخ من الخارج. كانت النوافذ تتصدع، والقرميد يتكسر، والنوارس تصرخ.

عندما وجدت الشجاعة لأخرج رأسي قليلاً من النافذة المكسورة، كانت كل نوارس العالم قد تجمعت وجاءت إلى جزيرتنا. وكأنهم لا يطيرون في الجو، بل ينجرفون من مكان إلى آخر كقطعة واحدة. محولة غسق الصباح إلى بياض. سمعنا الصيحات تتعالى من المنازل. في المناسبة، بدأت تأتي أصوات من سقف منزلنا أيضاً. وكأنه أحدهم على السطح ليكسر القرميد.

عندما حل الصباح، أدركنا أن هذا كان جزءاً من هجوم النوارس. كانت ترمي الحجارة الكبيرة، التي تلتقطها من الساحل، على أسطح المنازل من مسافة عالية، فتسقط هذه الحجارة الآخذة بالتسارع كالرصاص على القرميد.

قد قرأنا عن النوارس أنها من الأنواع الذكية والمنظمة، ولكن عندما علمنا أنها تفرقت إلى قسم يكسر القرميد، وقسم يهاجم الناس، وقسم آخر من النوارس أخذ على عاتقه مهمة تنفيذ هجمات انتحارية مثل الكاميكازي، لم نصدق لما سمعناه ورأته أعيننا.

كانت النوارس تنفذ على سكان الجزيرة وعلى البيوت التي يعيشون فيها هجمات منظمة، مخططة بإحكام، وتحتاج إلى العقل والتضحية. نفذت بعض النوارس غارات على المنازل من ارتفاع هائل، يصدمون أنفسهم بالنوافذ بسرعة غير معقولة. كان يحدث هذا الاصطدام ما يشبه تأثير القنبلة. موت النوارس سبب تكسر نوافذ المنازل التي اصطدمت بيها، مما أحدث هلعاً وخوفاً كبيرين. بعد مدة توقفت أصوات الأسلحة التي سمعناها منذ بدء هجوم النوارس.

حل الصباح في هذه الأثناء. كنا نخشى الخروج من منازلنا، ولكن بما أننا لن نبقى على هذه الحال، بشق الأنفس أقنعت لارا بأن تبقى في المنزل، ووجدت الشجاعة لأخرج أنفي إلى الخارج. بمجرد وصولي إلى باب الحديقة حلّقت النوارس الغاضبة فوق رأسي. فانقضت تنزل ضربات مناقيرها على رأسي. رميت نفسي إلى المنزل بصعوبة وأنا أحاول حماية نفسي بيدي.

لم نخرج ذلك اليوم إلى الخارج، ولم نتواصل مع أحد بتاتاً. حاولت بين الحين والآخر إخراج رأسي من الزوايا والأركان لأرى ما الذي كان يجري. استمر هجوم النوارس بشكل متقطع. حاولنا إغلاق زجاج النوافذ المكسورة بإسبال الستائر عليها، ولفينا النوافذ الأخرى بما استطعنا من الأقمشة، ثم أسندنا الدواليب إليها لتأمينها، وأقفلنا الباب على أنفسنا في غرفة النوم.

فاجَأنا الشيء الذي أصابنا لدرجة أننا لم نكن نفكر بشكل صحي. لاحظنا شيئاً واحداً فقط، لم يخطر ببالنا أبداً أن نغضب على النوارس. ومقابل ذلك، كانت تزداد كراهيتنا للرئيس الذي جلبَ المصائب علينا. كنا قلقين على الكاتب أيضاً ولكن لم يكن بالإمكان الوصول إليه. يا ترى ماذا كان يعتقد وبماذا كان يفكر بخصوص هجوم النوارس؟

مضى ذلك اليوم هكذا، لم تسمح النوارس لأحد منا بالخروج من المنزل. وكأن طائرات انقضاضية كانت تحوم فوق الجزيرة، وتشن غارات جوية.

عم في صباح اليوم التالي ضباب مذهل على الجزيرة. كان كل شيء في الخارج بلون أبيض كاللبن، لم يكن بالإمكان رؤية شيء، كان يمكن تمييز بعض الأطياف فقط. كان هذا اليوم أحد الأيام الذي حول الجزيرة فيها إلى بلاد الحكايات. لم يفرحنا الضباب هكذا من قبل.

خرجت أنا ولارا كيلا أتركها وحيدةً من باب الحيطة، وبدأنا نسير بحذر شديد. لم تكن تظهر نوارس في الأجواء لكن لا يمكن التنبؤ بأي شيء. لم يكن قادرين على فعل شيء في حال ظهرت النوارس فجأةً فوق رؤوسنا. ذهبنا بدايةً إلى منزل كاتب العدل. رأينا رأينا الكاتب وأصدقاءَنا العازفين وبعض الجيران هناك. كانت نوافذهم أيضاً مكسورة من طولها إلى محرابها.، كان المنزل وكأنه خرج من الحرب.

كما تتوقعون، قضينا جزءاً كبيراً من لقائنا بشتم الرئيس وانتقاده. كان قد دمر جزيرتنا بمجيئه وبأفكاره الغبية. لم يكن للنوارس أي ذنب بذلك. والآن ماذا كان سيفعل يا ترى؟ من الأفضل له مغادرة الجزيرة، أن يجمع كل أشيائِهِ مع حفيديه البغيضين المغرورين وزوجته القاسية. غضبناً كثيراً، وشحذنا بعضنا هما لدرجة، بدأنا نشعر بحاجة، لا يمكن الوقوف أمامها، لقول ذلك بوجهه.

شاركنا الكاتب الرأي أيضاً، إذ أراد أن يبلّغَ الرئيس آراءَنا. كان المتحدث الخاص بنا من تلقاء نفسه.

خرجنا معاً من المنزل، واتجهنا نحو منزل الرئيس. كان الضباب كثيفاً جداً كأن غيوم العالم كلها هبطت تجول على أرض الجزيرة. لدرجة أنني كنت أستطيع رؤية تناثر البخار عندما كنت أهز يدي. انضم إلينا بعض من جيراننا الآخرين ونحن في الطريق. كان أهالي الجزيرة يلتقون ويتجمعون وكأنهم قد تواعدوا مسبقاً. كان الجميع في حالة غضب عارم على الرئيس.

عندما وصلنا أمام منزل الرئيس، كان أول منظر وقعت أعيننا عليه هو منظر الرجال المسلحين على الشرفة. كان رجال الرئيس يحرسون المنزل متجهمي الوجه

والأسلحة بأيديهم بيد أن غضبنا كان قد وصل إلى ذروته لدرجة أننا لم نكن لنعير الاهتمام للأسلحة.

قلنا معاً إننا نريد مقابلة الرئيس. «أخبروه بسرعة، فليأتِ إلى هنا!» أظهرنا تصميمنا بناءً على التصرف الخجول لسكان الجزيرة وإصرارهم على مقابلته. «فوراً!»

ظهر الرئيس بعد قليل في الشرفة. لم أعلم إن كان قد ابيض وجهه أو أنني ظننت ذلك، ولكن من الواضح أنه كان شديد التفاجؤ.

قال: «هاهو قد بان كم هي النوارس مخلوقات خطيرة، أليس كذلك يا جيراني؟ كنتم تتغاضون عن الأمر عندما كنت أحاول أن أشرح لكم. كنتم تدافعون عن هذه الطيور المتوحشة ضدي. قولوا لي، ما فرقها عن الإرهابيين؟ ما فرقها!»

قال الكاتب: «ألا تخجلون؟ من أين تجدون الشجاعة لقول ذلك؟ ألم تروا ما الذي فعلتموه؟ ألم تروا حالة الجزيرة؟ ألم تروا الحالة التي وضعتمونا فيها؟ ماذا ماذا ماذا؟»

فقد الكاتب أعصابه، وكان على مشارف نوبة عصبية وهو يقول: "ماذا ماذا ماذا". ونحن كنا نؤيده ونهز أيدينا بصيغة غاضبة في وجه الرئيس. كان رجال الرئيس في حيرة من أمرهم لا يعرفون ماذا سيفعلون. كانوا لأول مرة في حالة تردد منذ أول يوم أتوا فيه إلى الجزيرة.

شعرت بالفخر ذلك اليوم بموقفك الذي تحدى الرئيس وكنت قد أخفته تقريباً. كنت منتصباً أمامهم بلا خوف تحاسبهم.

قال الرئيس: «والآن تحملونني المسؤولية؟» ولكن لم يكن صوته قويّاً كما سبق. «هل أنا من كسر النوافذ والقرميد؟ هل أنا من وجهت القذائف الحية التي هاجمت منازلكم؟ أنا من حبسكم في الداخل؟ العدل، العدل! إن وقاحتكم هذه لعار. نتهم بعضنا بدلاً من أن نفكر معاً كيف سنتخلص من هذا البلاء كأناس حضاريين».

صاح الكاتب: «قتل صغار الطير ليس تحضراً! إن مهاجمتها بلا سبب، وقتل صغارها، وكسر بيوضها، يأتي في طليعة الوحشية».

بانت النوارس الغاضبة فوق رؤوسنا عندما كنا نصيح جميعاً: "نعم، نعم!"، بشروا غاراتهم ينهالون علينا بضربات مناقيرهم. لم نرى بالضبط ما حصل لمحاولتنا الهرب بينما نحمي رؤوسنا بأيدينا. كانت صرخات النوارس قد اختلطت بصيحات البشر، وسمعت أصوات الأسلحة. هربنا لا شعورياً باتجاه منزل الرئيس كأقرب ملجأ. شكل الرجال متاريس على طرف الشباك يطلقون النار دون توقف على النوارس. رأينا سقوط عدة طيور منها.

لم نلحظ، عندما كنا نتجادل مع الرئيس، انقشاع الضباب قليلاً وازدياد مجال الرؤية. إضافةً إلى أننا شكلنا هدفاً لافتاً للنظر بتجمعنا بعضنا مع بعض وصراخنا.

خاف الجميع لدرجة أن المحادثة الأخيرة قد انقطعت فجأةً. بدايةً، يجب التخلص من هذه البلية. قد أجل نقاش من كان مذنباً.

قال الرئيس: «هل لدى أحدكم فكرة!».

في ظل هذه الأثناء توقف إطلاق النار، قال الكاتب الذي تبنى موضوع النطق باسمنا جميعاً: «ليس هناك ما يمكن فعله، فلنذهب عند حلول الظلام إلى بيوتنا دون لفت الانتباه كثيراً ولننتظر أفول غضبهم. لا بد أنهم لن يهاجموا إلى الأبد».

لم يشاركنا الرئيس الرأي. كان يدافع عن اعتقاده بوجوب مقابلة الهجوم بهجوم أعنف. أي مع فكرة أنه "لن يتم التنازل للإرهاب". من الضروري استخدام عنف مهيب، كاسر للعزيمة، وساحق. ليس هناك حل آخر، وإلا فستزداد الأوضاع سوءاً. من غير الوارد ترك هذا الهجوم دون معاقبة. لا يمكنني الحديث عن كمية إصرارنا والإلحاح الكبير، ولكن لم نتمكن من جعله يتخلى عن فكرته الدموية هذه.

كان يرمقنا جميعاً بسمة سلطوية قائلاً إنه يجب إبداء التصميم في مثل مواقف كهذه. لم يكن بإمكاننا الوقوع في موضع الضعف أمام العدو. إن كنا نريد الجلوس بمنازلنا آمنين، يجب علينا أن نجازف بهذه المعركة. سأل: «هل نسيتم يا سادة أنني كنت القائد الأعلى لهذا البلد لسنين؟» ثم قال: «دعوا هذه الأمور لأعالجها أفضل منكم».

قالت لارا: «أساساً صار ما صار لأنكم شغلتم منصب القائد الأعلى.» ولكن الرئيس بدأ يعلن خطط الحرب دون أن يأبه لها كثيراً.

كانت قوته المحاربة الطليعية -أي رجاله- ستقوم بإنشاء كمين يطل على الشاطئ مستفيدين من عتمة الليل. سيكون شيئاً بسيطاً ولكنه كان سيكفي لمنع تأذي المجموعات النارية التي ستأخذ مكانها في هذا المكمن ليلاً، وستبدأ بإطلاق النار عندما يحل الضوء وستقضي على النوارس. وسيتم نقل العتاد اللازم لهذا العمل ليلاً.

كنا ننظر بوجهه بتأمل نتساءل هل كان جاداً بما يفعله أم إنه كان يسخر، ولكن رأينا للأسف أنه كان جديّاً للغاية. انقبضت شفتاه الصغيرتان واستقرت في عينيه نظرات "تصميم".

من يدري كم اعتقدت بداخلي "لماذا هذا الرجل ظالم إلى هذا الحد!". لدي عادة قديمة في تشبيه الناس بالحيوانات. برأيي كل إنسان يشبه حيواناً. فمنهم من وجهه يحاكي العصفور، ومنهم الخروف، وبعض الناس يشبهون الحصان، فتكون وجوههم طويلة مثل الأحصنة تماماً، بعضهم يملك وجهاً ذئبياً. أعتقد أن الناس تأخذ شخصية الحيوانات التي تشبهها. ما أدراني، ربما هذا ما يريدون فعله، هذا ما يشعرون به. هل يمكن سؤال خروف "لماذا تتصرف بخضوع هكذا؟" أو سؤال الذئب "لماذا أنت مفترس هكذا؟"

في تلك اللحظة وجدت ماذا يشبه الرئيس. إن شفتيه الصغيرتين المقبوضتين، تبدوان مثل شق في القسم الأسفل من وجهه، وطرفيهما مسحوبان إلى الأسفل قليلاً. عظمتا وجنتيه البارزتان، والنظرات الفارغة في عينيه تحاكي سمكة القرش تماماً. تعجبت لماذا لم ألحظ هذا من قبل. فكرت أن "هذه طبيعته هو أيضاً". "فطرة سمك القرش". إن سؤاله "لماذا أنت ظالم إلى هذه الدرجة"، يبقى سؤالاً سخيفاً مثل سؤال سمك القرش "لماذا تملك أسناناً مفترسة". كان يرى العالم هكذا، وهكذا كان يفهمه. كنت سأبلغ لارا والكاتب بوجهة نظري هذه بأقرب وقت ممكن، ومِن ثمّ سيأخذ موضوع الخير والشر في البشر بعداً آخراً، ولكن حينئذٍ لم يكن الوقت والمكان مناسبين لذلك.

تركنا القرش عندما حل الظلام وحيداً مع لعبته الحربية وعدنا إلى منازلنا.

كان النورس يرقد في غرفة الضيوف متيبِّساً. لم أكن أدري ماذا سأفعل به. هل تدفن النوارس، أم إنها ترمى في القمامة؟ حملت النورس، قالت لارا: «أووف ماذا تفعل؟». قلت: «إني أفحص النورس الميت».

عند النظر من قرب رأيت منقاره وقد انكسر. كان جزء من منقاره معلقاً يهتز في طرف ليف لحمي صغير. اعتقدت أنه يبدو مسكيناً برقبته ومنقاره المكسورين. إن العمل الذي قام به، لم يستحق أن يموت من أجله. كل ما هنالك أن نافذة كسرت. رغم صعوبة إيجاد الزجاج في الجزيرة كان بالإمكان جلبه بسفينة الركاب وتركيبه مكانه.

إن أساس ما امتلكته هو التخويف وبث الذعر في القلوب لقاء ثمن هذا الموت الصعب. في الحقيقة، حتى من أجل ذلك فقط لم تكن تستحق الموت. لأن شعور الخوف مؤقت. يخاف الإنسان يوماً وينسى في اليوم التالي، يمكنه أن ينغمس في تفاصيل الحياة ويضحك.

خطر ببالي شيء وأنا أمعن النظر في النورس الذي بين يدي. ربما كانت نوارس القنابل الانتحارية قد اختيرت من بين الذين قد خسروا صغارهم. حتى ربما هم من أقدموا على هذا الأمر طواعيةً. كانت هذه طريقة للتخلص من مرارة فقد الأبناء.

على أي حال، لا يمكن القول إن نورس ميت يبدو لطيفاً. أو ربما أنا بت أعتقد ذلك وبدأت أرى النوارس بمنظور آخر. أساساً حتى أحياء النوارس لم تكن تبدو قريبة من القلب. لديها ذلك الوقوف المحدود والباردة. لا تقترب منكم ولا تأخذ الطعام من أيديكم. ولذلك تغنى البشر بالبلابل، عصفور الكناري، الغرانيق، الطيور الخرافية كالعنقاء، حتى بالغربان واللقالق ولكن لم يخرج أحد ليتغنى بالنوارس. بالأحرى، كتبوا أغاني تحكي عن منظر النوارس المجتمعة على طرف البحر، وليس عن نورس واحد.

مهما حصل، فلا يمكن أن يكون كل ذلك سبباً لقتلهم وإهلاك صغارهم. حتى إن في الهيئة الجامدة والقاسية لتلك المخلوقات، يوجد شيء يلامس قلب الإنسان أي في تضحيتهم بأنفسهم.

لم نخرج من البيت في اليوم التالي أيضاً. هذه المرة لم يتم هجوم النوارس، كان الأجواء تبدو قد استقرت، رغم ذلك بقينا في المنزل تحسباً لأي شيء. ومن الجيد أننا فعلنا ذلك، لأنها حدثت كارثة مساء ذلك اليوم.

أثناء خروج صديقنا عازف القيثارة في الرقم ٤ للتفسح في الجبال، تعرض لهجوم النوارس وسقط إلى الأسفل. عندما وجودوه، كانت قد كسرت يده وقدمه وانشق صدغه بجرح عميق. نام لأيام عديدة متألماً، والأسوأ من ذلك، أنه لن يكون قادر على عزف القيثارة مدّةً طويلة. أدت هذه المأساة الصغيرة إلى حزن كبير لدى سكان الجزيرة. ازدادت أعداد الناس من بيننا التي بدأت تعتقد أن النوارس باتت تبالغ في هذا الأمر.

لم يكن أحد يخرج إلى الخارج في وضح النهار إن لم يكن هناك أمر ضروري. إن اضطروا وخرجوا، كانوا يأخذون بيدهم طنجرة أو مقلاة ليضعوها على رؤوسهم إذا اضطر الأمر. يجول بعض أصدقائنا الموسوسين واضعين الطناجر على رؤوسهم تحسباً من قيام النوارس بهجوم مفاجئ. إذ كانوا يرمون رؤوسهم إلى الوراء، ويتحملون عناء رؤية الطريق بطرف أعينهم.

كانت تسمع أصوات أعمال البناء ليلاً. ظهرت بعد عدة أيام خطط سمكة القرش الرئيس الحربية إلى العلن. قام رجاله بإنشاء مربض من الأشجار وبعض الدواليب القديمة والأبواب الخشبية في موضع محكم الرؤية يطل على شاطئ النوارس. إذ يمكن لعشرة رجال عندما يدخلون إلى هذا المتراس أن يكونوا في مأمن داخل الدولاب المغلق من كل الأطراف. ومن ناحية أخرى، سيتمكنون من إطلاق النار من خلال النافذة العرضية الضيقة.

عندما استحوذ رجال الرئيس على هذا المربض، لم يتأخروا في إفراغ أسلحتهم مرة أخرى على النوارس. بدأت الجزيرة تجلجل في صباح أحد الأيام، بأصوات دوي الأسلحة. كان واضح أنهم اختبؤوا ليلاً في المربض خلسة، وبدؤوا الحرب مع بزوغ ضوء الفجر. بدأت النوارس مرة أخرى تتساقط في البحر ملطخة بالدماء. حسب ما علمنا لاحقاً، أن بعض سكان الجزيرة كانوا يطلقون النار من صميم قلبهم ويظهرون براعتهم في الرمي. استمرت هذه المجزرة حتى المساء. حينما ذهب الجميع إلى منازلهم.

كانت الأحداث قد خرجت عن السيطرة ولم يبق شيء يمكن فعله لأن الحرب بدأت تأخذ شكلاً حقيقياً. كنا نجلس في منازلنا عاجزين، نحاول إقناع جيراننا بالتخلي عن الحرب التي فتحت على النوارس، ولكن كره سكان الجزيرة للنوارس كان يبدو واضحاً شيئاً فشيئاً.

أمر يستدعي الغرابة ولكن لم يحدث شيء في اليوم التالي. بقينا كما نحن ننتظر بقلق على النافذة هجوم النوارس صباحاً. كان هناك صمت مطبق، يمكن لشخص أتى حديثاً إلى الجزيرة أن يظنها مجدداً بأنها جنة الأرض، وأنها ميناء السلام بأشجارها الغزيرة والمنازل المختبئة بين الخضار.

في اليوم التالي أيضاً لم يحدث شيء، وفي اليوم الذي بعده، وفي عدة الأيام التالية. ربما نجحت أساليب الرئيس سمك قرش، وتمكن من إخافة النوارس. بدأت نظريته القائلة "يمنع العنف بعنف أكبر منه" وكان يكررها دون توقف، تلقى العديد من الموالين لها. في المناسبة، بدأ الناس يخرجون شيئاً فشيئاً إلى الخارج منهمكين في إيقاع الحياة اليومية المملة ولكنها لطيفة. عندما تلقون النظر من بعيد بين الحين والآخر، ترون النوارس تنتظر بيوضها بهدوء، وبعضها كان يصطاد بالغوص والخروج في الماء. قد انتهت الحرب على ما يبدو.

أرسلنا بطلب زجاج جديد بواسطة رسالة بعثت إلى سفينة الركاب مستفيدين من حالة الهدوء هذه. أصلحنا منازلنا، عندنا نحتسي النبيذ وسط روائح التافلان والعطر والياسمين. زرنا صديقنا عازف القيثارة عدة مرات وحكينا له بعض الطرف المضحكة عيسى أن نخفف الحزن عنه قليلاً. ولم نر الرئيس ورجاله أبداً.

استمرت هذه الأيام الهادئة على هذا المنوال، حتى تقديم أول شهيد بهجوم النوارس.

كان صديقنا الهادئ المنطوي على ذاته، الذي يعيش في المنزل رقم ١٤ وحده. لم يكن يتواصل كثيراً مع أحد منا، وكان في كل صباح يركب قاربه ويبحر للصيد فيلتقط الشباك التي نشرها منذ الليل. يبدو أن صداقة سيجارته التي لم تكن تفارق شفتيه كانت كافيةً له.

كان رجلاً بحدود الخمسين لكن منظره يوحي بأنه أكبر عمراً من ذلك، يحبه ويحترمه الجميع. كان يتقن أعمال النجارة، يساعدنا بكل حب في الإصلاحات التي لم نكن نتمكن منها. سمعنا أنه كان يملك ورشة نجارة، إذ جاء إلى الجزيرة، واستقر فيها بعدما فقد عائلته في حريق.

تعرض صديقنا هذا لهجوم النوارس عندما ركب قاربه وأبحر. أنا لم أشاهد ما جرى، ولكن بناءً على كلام الذين شاهدوا الحدث بدهشة من الشاطئ أن مئات من النوارس تهافتت على رأس الرجل الأجرد الذي كان في القارب، وبدؤوا ينقرون الرجل مطلقين صرخات مخيفة. كان يمكن رؤية تلطخ رأس الرجل بالدماء من الشاطئ. ركض عدة أشخاص إلى منازلهم، تناولوا الأسلحة، وحاولوا إطلاق النار على النوارس، ولكن عندما وقف الرجل داخل القارب محاولا أخذ رأسه بين يديه سقط المسكين في الماء فاقداً توازنه. لم تترك أسراب النوارس الرجل حتى ضمن الماء. استمرت تلك الهجمات الفتاكة المخيفة مع كل محاولةً منه لإخراج رأسه خارج الماء. بدأت تتشكل هالة من الدماء حول رأس الرجل. حاول عاجزاً حبس أنفاسه، كان يغطس ويخرج، وأيديه أيضاً كانتا ضمن الدماء.

هكذا، فقدنا أخانا الكبير النجار. بعد عدة ساعات، عندما أخرجت جثته وجاؤُوا بها ولم تكن انجرفت إلى الأعماق بعد، أصابنا جميعنا حزن كبير. كنا نستوعب حديثاً كم من الممكن أن تكون النوارس متوحشة. فملأت قلبنا بالكراهية على ما فعلته بإنسان بريء. ربما لم نكن سنحزن لو آذت النوارس الرئيس أو رجاله، ولكن تحول هذا الأمر إلى مأساة يقع فيها الأبرياء ضحاياً بدلاً من الذين أشعلوا فتيل الحرب.

دفن النجار مساء اليوم التالي بعد حلول الظلام. دفنّاه إلى جانب جيراننا الذين توفوا سابقاً بأسباب طبيعية، ولم تكن لهم الرغبة في نقلهم إلى بلادهم. ذعر كبير أصاب بعض جيراننا جراء هذا الهجوم، إذ جاؤوا إلى مراسم الجنازة والطناجر على رؤوسهم والأسلحة بأيديهم.

أغرقنا القدر المخيف للنجار المسكين بالدموع. كان الجيران يتهامسون قائلين: «اللعنة على هذه النوارس، ماذا أرادوا من هذا الرجل المسكين!». لم يتكلم الرئيس

ورجاله طيلة مراسم التشييع، راقبوا الأحداث بصمت. لم تكن السكاكين لتفتح أفواهنا لأننا لم نعلم ماذا يجب أن نتكلم. كنا مدركين لتثاقل أجواء الحداد في أوساطنا وللحقد المميت على النوارس. وبهذه الحالة لم يكن ليخرج أحد ويقول: «ولكن نحن من بدأ الهجوم على النوارس. وهم ردوا، نحن المذنبون وليس هم!»

فقدت التحليلات حول من بدأ الحرب ومن المحق فيها، كلٌّ قيمها أمام ثنائي الحقد والخوف اللذين باتا مملّين. الجميع أراد الانتقام. كان الحقد يغذي الخوف والخوف يغذي الحقد. في الحقيقة أنا كنت تائهاً، لم أكن أعرف ماذا سأقول ولكن عندما ذهبنا إلى المنزل، قالت لارا التي بكت بهدوء على قدر النجار التي لطالما أحبته: «الرئيس من هيج النوارس، هو القاتل الحقيقي!»

قلت: «إياك أن تقولي هذا لأحد! لن ينصت أحد لهذه الكلمات المتعلقة أمام فيض الحقد هذا. أرجوك اصمتي، أمسكي لسانك. من أجلي أنا».

كنت أعرف أن النوارس قد باتت العدو الأكبر لسكان الجزيرة، بات الجميع يفكر في طرق لإبادة هذه المخلوقات التي غدت مخيفة بأنظارهم. ولكن لم يكن سهلاً إيجاد هذا الطريق. لم تدأب النوارس، لم تستسلم أمام العنف، وأخذت بالانتقام في كل فرصة. في هذه الحالة، أي هجوم جديد سيتم، سيثيرهم أكثر، وسيجعل الحياة لا تطاق على الجزيرة.

كان العجز يربط أيادي الجميع وأرجلهم. فقدت الحياة جاذبيتها بالنسبة لسكان الجزيرة الذين كانوا يمشون مسرعين بالطناجر التي وضعوها على رؤوسهم، ويمسكون هذه الطناجر بين الحين والآخر من طرفها وكأنها خوذة ويرفعونها إلى الأعلى يترقبون بخوف مجيء النوارس من عدمه. كانت الناس مجتمعة على الشاطئ تراقب بأعين مليئة بالحقد النوارس التي تغطس وتخرج من البحر وتنفذ الغارات في الجو. كانت تهامسات التخطيط للقضاء على النوارس تحكى في الليل. وما الذي لم يكن موجوداً بين هذه الخطط. أفكار مختلفة جداً من صب البنزين على شاطئ النوارس وحرقه وصولاً إلى طلب المساعدة من وحدات الجيش.

في الحقيقة حار عقلي أنا أيضاً. لم يتهم الكاتب ولارا النوارس أبداً في يوم من الأيام. لم يتجاهلوا كيف بدأت الأمور. ولكن أنا لم أكن أشاركهم الرأي ضمناً حتى لو لم أتكلم بشيء. وكأنه كسر شيء بداخلي عندما رأيت وحشية النوارس. صحيح أنهم من بدأ الحرب، ولكن لم يكن بالإمكان العيش في هذه الحالة. ليته لم يحصل أي شيء من هذا.

ماذا أفعل يا صديقي العزيز، لم أكن أبداً ذات يوم مصمماً ومنطقياً مثلك. لم تكن لدي الشجاعة لأفكر بعيداً عن الجماعة وأبقى وحيداً بعيداً عنها. كنت محقاً كما في كل مرة. كان الدفاع عن الحقائق بشجاعة أهم سبيل يجب اللجوء إليه لتلقي أقل الأضرار في المستقبل، ولكن أستطيع الآن أن أعترف بأن وحشية النوارس أخافتني أنا أيضاً.

لم يبق بداخلي ذرة تعاطف تجاههم بسبب طرحهم لصديقنا عازف القيثارة في الفراش، وقتلهم لصديقنا النجار بوحشية. ربما يفضل قلبي المتردد الغضيض بشكل رومانسي الضحايا الأبرياء كمقياس للمقاتلين.

بلا شك إن حقد سكان الجزيرة على النوارس وبحثهم عن سبل للتخلص منهم، أسعد الرئيس جداً. بوصولهم إلى النتيجة التي أرادها، فحول عدوه إلى عدو مشترك.

أعرب عن أفكاره هذه في اجتماع أجري في منزله لأننا لم نعد نجتمع في الهواء الطلق تحسباً لهجمات النوارس. كان يجب عليه أن يجرب تكتيكاً جديداً في الصراع ضد النوارس. إن القاعدة الأولى في الحرب، وضع قوى معادية أخرى أمام العدو وجعلهم يصارع بعضهم بعضاً.

أفصح سمكة القرش الرئيس عن إستراتيجيته الحربية بعد أن صفق الجيران على هذه الفكرة العبقرية **(!)** كان سيجلب الثعالب إلى الجزيرة. ستسرق الثعالب بيوض النوارس وتأكلها، ومِن ثمَّ ستؤمن انخفاض تعداد النوارس. إن عدم وجود الثعالب في الجزيرة أدى إلى تفاقم أعداد النوارس وتزايدها مثل "أسراب قطعان الكلاب". لن تتمكن النوارس من التمتع بهذه الإمكانية بعد الآن. وسيؤمن سكان الجزيرة تصادم هذين النوعين بعضهم مع بعضٍ للتخلص من العدو مستخدمين أفضلية الذكاء دون تعريض أنفسهم إلى الخطر.

لاقت كلمات الرئيس هذه التصفيق الطويل وكلمة "مرحى". لأول مرة يتنفس سكان الجزيرة الصعداء. على الأقل أصبح لديهم أمل بالمستقبل. كان يرى الجميع بالثعالب المنقذة. ستأخذ الثعالب بانتقام النجار المسكين الذي وقع ضحية النوارس المتوحشة.

لم ينصت أحد للكاتب الذي وَصَمَهُ بالمنافق سكانُ الجزيرةِ عندما قال: «ولكن التوازن البيئي...»، رمقه عدة أشخاص بنظرات عدوانية. وبات ينظر على تحذيراته على أنها "ثرثرة فكرية".

قال الرئيس في نهاية الاجتماع بسمة غرورية: «أما بالنسبة إلى كيفية تأمين الثعالب... دعوا الأمر لي يا أصدقائي الأعزاء، أرسلت عبر الهاتف الفضائي بطلبية ١٠ ذكور و١٠ إناث من الثعالب لأنني توقعت أن قرارنا سيكون بهذا المنحى.

سيرسل لي القرويون الذين كنت أخرج معهم إلى الصيد سابقاً، الثعالب بأسرع وقت ممكن. سنتخلص قريباً جداً من هذه المصيبة بالكامل. ثقتي كاملة بأن جزيرتنا ستتخلص من هذه المصيبة بفضل موقفكم الحازم. أنا فخور بحبكم جميعاً للجزيرة. فلتَحْيَ جزيرتنا، اللعنة على النوارس».

غادرنا المكان بهدوء وسط الحشد الذي كان يصفق لهذه الكلمات من جهة، ويهتف "اللعنة على النوارس، اللعنة على النوارس" من جهة أخرى.

بقينا أقلية. كنا، حتى لو لم نكن نعترف بذلك، نخشى من تجمّع أي من جيراننا وأصدقائنا.

بالمناسبة، بتنا نعرف شيئاً، هذا يعني أنه يوجد على سطح القارب أجهزة اتصال فضائية، حيث كنا نظنها رادارات.

- ١٤ -

لن أنسَ أبداً اليوم الذي صرختَ فيه على جيراننا المندهشين قائلاً: «هل أنتم مجانين؟» وكأن لحيتك المهلهلة أخذت ترتجف من الغضب، فاتحاً يديك على كلا الجانبين وتنظر في عيون الجميع فرداً فرداً وتصرخ متسائلاً: «هل أنتم مجانين، مجانين أنتم؟»

قد رأينا غيظك بين الحين والآخر ولكن لم أشهد مسبقاً نوبة غضب كهذه باستثناء يوم جدالك مع الرئيس. شدة غضبك قد أدهشتنا جميعاً. لم تكن شخصاً مرحاً على الإطلاق، فكثيراً ما كانت تحوم حول وجهك ظلال الكآبة. يصيبك التوتر بين الحين والآخر، وكنت أعتقد أن لديك سراً لم تَبُحْ به وأنّ لديك جرحاً عميقاً في داخلك. حتى إننا كنا نتحدث أنا و لارا بين الحين والآخر بهذا الشأن، كنا نتساءل عن سبب كون صديقنا العزيز مهموماً إلى هذه الدرجة، ولكن غضبك هذه المرة كان مختلفاً جداً. على ما يبدو أنك أيقنت ذلك اليوم أننا فقدنا جزيرتنا إلى الأبد. أما نحن فلم نكن ندرك بعد ماذا يعني فقدان الجزيرة.

إن ردة الفعل التي أبديتها على إهمال الشعب، ذكرني بحكاية عيسى المسيح الذي فر إلى الجبل. تلك الحكاية الجميلة التي تكلمنا بخصوصها أنا وأنت سابقاً. سأل الذين رؤوا النبي عيسى يركض نحو الجبل: «يا عيسى، هل تهرب من الأسد؟» قال: «كلا». سألوه: «هل تهرب من النمر أو التنين؟» قال مجدداً: «لا» وأضاف: «أنا نبي، لا أهاب الأسد والنمر». سألوه: «إذاً لماذا تهرب؟» قال عيسى: «أهرب من الحمقى، لأنني لا أقدر عليهم».

كان الأصدقاء يصمتون أمام أسئلتك الغاضبة، أساساً ماذا بإمكانهم القول... دهشوا بسبب ما أصابهم في الأيام الأخيرة. منهم من كان يضع طنجرة على رأسه، ومنهم من كان يمسك مقلاة بيده وبحالة من القلق يستمعون لكلماتك وهم يترقبون السماء بخوف وذعر.

أكملت كلامك قائلاً: «لو تستخدمون عقولكم قليلاً يا أصدقاء، هل كانت النوارس عدوة لنا؟ هل نشبت أية واقعة صغيرة بيننا طيلة هذه المدّة؟ هل عانيتم من أية مشكلة صغيرة حتى أتى هذا الرجل إلى جزيرتنا؟»

هز عدة أشخاص رؤوسهم بمعنى "لا".

ولكن كنت أعلم أن أغلبهم لم يتكلم بشيء في وجهك وكانوا يتكلمون من خلف ظهرك. فقد طن في أذني من هنا وهناك كلام بحقك.

«انبرى علينا محام للنوارس»

«هل تجوز مصادقة النوارس؟»

«أيظن نفسه أستاذاً على سكان الجزيرة.»

«وكأن الشخص طريح الفراش ليس بصديقنا!»

«ألم يروا كيف قتلت تلك النوارس النجار المسكين!»

«يظن نفسه سيدافع عن هذه المخلوقات المقرفة المتوحشة!»

«كل هذه الأضرار والجراح...»

حاولت الدفاع عنك ولكنني كنت موقناً أن أحداً لن يتراجع عن كلامه. كان الخوف قد استحوذ على عقولهم لدرجة أضحى إقناعهم أمراً غير ممكن. ربط الجميع آمالهم بالثعالب، رأوا فيهم المنقذين. ستأتي هذه الثعالب، وتأكل بيوض النوارس، وسيبيدون هذه المخلوقات المتوحشة. ستلقى النوارس التي لم يتمكن سكان الجزيرة من القضاء عليها مصيرها. سنرى إن كانت النوارس ستفزع كما أفزعت الناس.

أمضى سكان الجزيرة ذلك الأسبوع بتشوق منتظرين قدوم سفينة الركاب القادمة. في النهاية أتى اليوم المنتظر، وبانت السفينة البيضاء الكبيرة في الأفق. تجمعنا، متحمسين لانقطاع هجمات النوارس، على الرصيف البحري. أخذ الرئيس مع رجاله مكانهم في مقدمة الرصيف، وأنظارهم مركزة على الزورق الذي يجلب الحاجات من السفينة.

أخرجوا من الزورق، الذي اقترب من الرصيف بعد مدة، علباً من الورق المقوى والزجاج الموجود ضمن محافظ خشبية إضافة إلى الأطعمة. لم يكن في الأوساط شيء يشبه أقفاص الثعالب. كان الرئيس يترقب وهو يفكر بعمق مقوساً حاجبيه.

سأل رجاله الموجودين على الزورق أين هي الثعالب. وهم بدورهم أخرجوا علبة كبيرة من الورق المقوى ووضعوها أمام أقدام الرئيس. فتح الرجال العبوسون العلبة بأمر طرف عين الرئيس. أخرجت فراء ثعالب من داخلها. كما يوجد داخل الصندوق رسالة مكتوبة تخاطب الرئيس. قرأ أحد الرجال الرسالة بصوت عال.

بدأت الرسالة بمقولة "سيدي الرئيس"

تحرك صائدونا فوراً بناءً على أوامركم، وألقوا القبض على عشرون ثعلباً. قتلناهم بالسم كيلا تتأذى فِراؤهم واعتنينا به من أجلكم. تقدم لكم كامل شعوب المنطقة العرفان لتذكركم لنا بعد كل هذه السنين، ولتنفيذنا لأوامركم التي أمرتم بها.

ركل الرئيس العلبة صارخاً: «أغبياء! ما الفرق بين الذكر والأنثى إن كان فراءً. هذا ما لم أفهمه أيضاً».

ضحك شعب الجزيرة لأول مرة على هذه الأقوال بعد أيام قضوها من التوتر. من الواضح أن هذا الضحك أغضب سمو الرئيس أكثر.

صرخ قائلاً: «أوجدوا لي هذا الأبله الذي يسمى الوالي!» ودخل إلى الزورق المطاطي الذي لم يغادر الرصيف البحري أبداً.

بعد وهلة سمع صياح الرئيس الذي كان يتكلم بالهاتف. كان صرخ قائلاً: «طلبت منكم ثعالبَ حية وليس فراءً. ماذا، ماذا؟... لو كان هكذا هل كنت لأقول عشرة ذكور وعشر إناث؟ هل يكون الفراء ذكراً أو أنثى يا رجل!...»

عندما عاد إلى الرصيف، كان وجهه قد ازرق غضباً. نظرنا إلينا جميعاً بتجهم، وقال: «طرأ تأخير صغير في برنامجنا. ستأتي الثعالب الأسبوع القادم!» ثم ذهب.

قضينا ذلك الأسبوع بهدوء. كانت النوارس لا تزال تنتظر بيضها في شاطئها، وتطير، ولكن لم تكن تؤذي الناس. وكأنه إعلان مؤقت لوقف إطلاق النار. تخلى

سكان الجزيرة بعد مدة عن وضع الطنجرة والمقلاة على رؤوسهم. دخل صديقنا عازف القيثارة مرحلة التعافي بأسرع ما كنا نتوقع بفضل العناية الفائقة لطبيب الجزيرة. على الرغم من أنه لم يتناول جيتاره بيده، دأب صديقنا عازف الفلوت على التردد إلى منزله يعزف له المقطوعات والألحان.

حدث شيءٌ لفت انتباهي ذلك اليوم. أساساً كان الشيء الذي لا ينبغي أن يلفت الانتباه. كنت قد حدثتكم سابقاً عن ابن البقال. ذلك الغلام الأحدب، ذو الإعاقة الخلقية، وغريب الأطوار. كانت عيوننا معتادة رؤيته لدرجة أننا لم نكن نلحظ وجوده. ولكن ذلك اليوم كان قد لفت انتباهي بتصرفاته غير الاعتياديّة. وكأنه كان يخبئ شيئاً داخل سترته، بينما يجول بارتباك ويراقب الجوار بين الحين والآخر بنظرات حذرة.

كنت عند أكواز لوز الصنوبر، بمستو أعلى منه. وبطبيعة الحال لم يكن يراني. اعتراني الفضول فتعقبته بصمت. اختفى الغلام خلف البقالية، وعندما ظهر بعد فترة لم يكن يخبئاً يهز يديه وقدميه بأريحية. ذهبت إلى خلف الدكان بعد أن ابتعد.

كان هناك مدجنة كبيرة. اعتدنا أن نشتري من البقال البيض والدجاج الذي يربيه في هذه المدجنة. في بعض الأحيان تحت العريشة كان يحضر الدجاج بدلاً من السمك. كان لدي الفضول لأعرف ماذا أخفى الغلام في تلك المدجنة. نظرت مطولاً فلم أَرَ شيئاً غير اعتيادياً. كانت الدجاجات تجول داخل المدجنة ، مقرقرة، وتلتقط الطعام بمناقيرها. ولكن عندما نظرت مطولاً، رأيت أنها لم تكن تهتم بالطعام فقط. كانت متجمعة حول عدة بيضات. لفتت انتباهي الهيئة المختلفة للبيوض. وكأنها كانت دائرية أكثر وبيضاء أكثر. فتنبهت فجأةً، وكأني تلقيت ضربة مطرقة على رأسي، ما كان يريد الغلام المعوق أن يفعل. تراءى أمام عيني مشهد جثوه على الأرض ثم نهوضه يوم حصلت مجزرة النوارس. لم أعطي ذلك اليوم أي معنى لحركته تلك، ولكنني علمت الآن أن الغلام أراد إنقاذ البيض، وأنه حملها سراً إلى المدجنة ووضعها تحت الدجاجات.

فكرت ما أغرب الإنسان، ما هو مكنون الأشخاص الذين لا تتوقع ما يضمرونه. يا ترى هل كانت الدجاجات تتقبل بيض النوارس، وهل كانت تضعها تحتها لتدفئها بحرارتها؟ لم تكنْ أي دجاجة فوق البيض الذي رأيته بين القش ولكن لم أرَ ماذا يوجد

تحت بعض الدجاجات الجالسة. بطبيعة الحال عرف الولد الدجاجات أكثر مني لأنه الوحيد الذي كان يدخل المدجنة ويخرجها وهو الوحيد الذي كان يجمع البيض. من يدري، ربما كانت حركة الإنقاذ السرية تجدي نفعاً.

قلت لنفسي: «أحسنت أيها غلام! كم أنت رجل!»

كنت أحترق شوقاً لأحكي للكاتب ولارا عن اكتشافي، ربما كان سيصبح موضوع حكاية جميلة.

على أي حال، يبدو أنني قد فقدت طرف الحديث مجدداً، وتأخرت في النقطة الأساسية التي كان يجب أن أرويها لكم.

نعم، وكما كان منتظراً، جلبت سفينة الركاب الكبيرة في الأسبوع التالي قفصاً على متنها إلى الجزيرة، وشعر الرئيس وسكان الجزيرة بالنشوة عندما رأوا الثعالب تدور وتلتف حول نفسها في القفص الذي كان قد أخرج من الزورق. وكأن ملائكة أتت إلى الجزيرة وليست ثعالب. صفق الجميع بفرح.

كان وجه الرئيس بثيابه البيضاء يشبه قرش البحر أكثر من ذي قبل، وكانت عيونه متقاربة بعضها من بعضٍ. فألقى خطاباً. كانت ستنتهي سلطوة النوارس المتوحشة في هذه الجزيرة. كانت ستحل هذه المشكلة من جذورها بوضع عدو آخر أمام العدو بإستراتيجية عالية المستوى. كان يمكن لسكان الجزيرة أن يتنفسوا الصعداء، وأن يتطلعوا إلى مستقبلهم بأمان. قريباً جداً ستصبح كل أنحاء جزيرتنا بحالة آمنة، وسيتحرر شعبنا من مخاوف الإرهاب.

قوطعت كلمة الرئيس عدة مرات بالتصفيقات. ثم فتح باب القفص ضمن المراسم. توقفت الثعالب في البداية قليلاً، التي كانت قد أعطيت الضمانة أنهم كانوا عشرة ذكور وعشر إناث، لأنها كانت تعاني دوار البحر، تسللت ببطء نحو باب القفص، أخرجت رؤوسها وأدخلتها بخوف عدة مرات، ثم بدون سابق إنذار ركضت الثعالب جميعها باتجاه الغابة كالبرق مختفية عن الأنظار. بذلك أضيف صنف آخر على الأحياء في الجزيرة.

استمر الرئيس بالضحك كثير التفاخر، بينما كانت الثعالب تركض وهي تهز ذيلها الكبير، والشعب كان مازال يصفق للأبطال المنقذين.

بعد المراسم تفرقنا إلى بيوتنا. فهدوء حدة هجوم الرئيس، تعني انتهاء مرحلة العنف في الجزيرة. بات كل شيء وكأنه غارق في الصمت. لم يَبْدُ أن شيئاً قد تغير، إذ استمرت الحياة اليومية بروتينها المعتاد، مازالت الناس مازالوا تلقي السلام بعضهم على بعضٍ ويتبادلون الأحاديث اليومية ولكن كان هنالك تغير في أجواء الجزيرة يكاد يكون ملموساً باليد. لم يعد هناك أثر للفرحة وللصداقة وللرفقة غير المشروطة بلا تفكير أو حساب كما كان الحال في السابق.

ولا سيّما أن القليل ممن كان يصادقنا، أي الكاتب وأنا ولارا، كانوا يظهرون سلوكاً أقل ما أستطيع أن أقول عنه تقريباً إنه تهميش لنا. كنا نسمع عن انعقاد الاجتماعات في منازل الجيران في بعض الليالي من غير أن نُستدعى إليها أبداً.

أساساً شعر الكاتب بالضغينة اتجاه جميع سكان الجزيرة. ولم يُرِد التقابل مع أحد منهم وجهاً لوجه. كانت عزلته ووحشيته وغضبه قد تفاقمت بالمجمل.

لم نتذمر أنا ولارا من هذا الوضع كثيراً، فكلانا لديه القدرة على اللجوء إلى الميناء ملاذنا الآخر، ولكن للأسف لم يكن يحظى الكاتب بفرصة كهذه.

إن أهم حدث لون تلك الأيام الراكدة، هو ولادة فرخي نوارس في المدجنة التي كنت أزورها بين الحين والآخر لأراقب خلسةً ما كان يجري. هذا يعني أن الغلام قد نجح في مسعاه، وتمكن من حماية روحي صغيرين. كان هذان الفرخان يفتحان أفواههما على مصراعهما بجوع أبدي وكأنَّهما أرادا التهام العالم بأسره. أما بالنسبة لكيفية إطعام هذين الفرخين، فبقي ذلك سراً بالنسبة إلي.

لم نَرَ الثعالب مرة أخرى بعد ذلك اليوم. يبدو أنهم وجدوا أوكاراً لأنفسهم في الغابة. أما بالنسبة لأكلهم لبيض النوارس من عدمه، فلم تكن هناك إمكانية للتحقق من ذلك. أساساً لم يعد أحد يتمنى الذهاب وإلقاء نظرة على شاطئ النوارس الذي يجلب الذكريات المريرة إلى الأذهان.

- ١٥ -

مرت الأشهر الثمانية اللاحقة برتابة دون أحداث بقدر صفحة كتاب فارغة.

- ١٦ -

حتى استيقظنا في أحد الأيام بعد الظهيرة على أصوات امرأة تذكرنا بأيام الذعر في الجزيرة.

كما قلت سابقاً، نحن سكان الجزيرة نحب الاستلقاء وأخذ غفوة صغيرة بعد وجبة الغداء. أساساً لم نكن نعتبر عادة القيلولة إضاعة للوقت؛ لأنه لم تكن لدينا أعمالٌ كثيرة. منا من كان يستلقي على الأريكة التي في الحديقة أو على الأرجوحة الشبكية، ومنا من كان يلجأ إلى انتعاش الفراش بوضع قطعة قماش قطنية رقيقة عليه.

عندما كان قد حل علينا رخاء ما بعد الظهيرة قفزنا واقفين على أقدامنا عندما سمعنا صوت صراخ. فركضنا باتجاه الصوت، إذ رأينا الناس بدأت بالتجمع أمام المنزل رقم ٢٢. عندما وصلنا إلى هناك كان الطبيب يسحب الدم بمساعدة مضخة صغيرة من قدم سيدة عجوز تسكن في ذلك البيت. في الظهيرة عندما دخلت المرأة المسكينة فراشها لتنام لدغتها أفعى. كانت الأفعى قد خرجت من القماش القطني المثني على طبقتين والممدود فوق الفراش.

بحث قسم من جيراننا عن الأفعى. في النهاية حاصروها تحت الخزانة وقتلوها. أرانا أحد جيراننا الشجعان الأفعى التي علقها على طرف عصا كان يمسكها بيده، إذ كانت هذه الأفعى مخلوقاً ملوناً غريباً قد بث رعشة خفيفة في قلوبنا جميعاً. لا أعلم لماذا جعلتني الألوان المفعمة بالحيوية أعتقد أن الأفعى سامة للغاية. لم يمضِ الكثير حتى اتضح أني لم أكن مخطئاً. وضح بعض الأصدقاء العارفين بهذه الأمور أن هذا النوع من الأفاعي يكون ساماً جداً وخطيراً جداً.

صدمنا بالأخبار التي سمعناها، لأننا لم نكن معتادين سابقاً حوادث كهذه. إذ اعتدنا النوم بأمان وأبوابنا ونوافذنا مفتوحة. كنا نواجه خطراً مختلفاً عن هجوم النوارس التي باتت تتلاشى ذكرياتها الأليمة بعد مرور كل هذه المدة.

لم يكن يوجد هنا أنواع حيوانات وأعشاب سامة تعرض حياتنا البسيطة للخطر. بالأحرى كنا نظن ذلك حتى ذلك اليوم. ولكن الأفعى المعلقة على رأس العصا التي بيد زميلنا، والحالة المؤسفة للمرأة المسكينة التي تحترق في نيران محاولة رمي آثار السم من جسدها، كانت تمزق حالة الأمان هذه التي بداخلنا. هذا يعني أننا سنفتح الشراشف ونتفقدها قبل النوم وسنتفقد سقف الحمام وأسفل الخزن، بالمختصر كنا سنضطر للعيش باتخاذنا عدداً من الإجراءات كي نشعر بالأمان.

حسناً ولكن كيف ظهرت هذه الأفعى الملونة، السامة، الغريبة؟ كيف دخلت المنزل؟ نمنا تلك الليلة بخوف وقلق وعقولنا مليئة بتلك الأسئلة. كان في داخلنا هاجس سيّئ وللأسف لم يَطُلِ الوقت حتى تأكدت صحة مخاوفنا المستقبلية.

عندما استيقظت قبل لارا وسط نسيم الصباح وخرجت إلى التراس أمدد جسدي لأذهب السكينة التي أحلها النوم عليه، فتلت رأسي إلى اليمين ورأيتها. أفعى حمراء خضراء مبرقشة نصف جسدها منتصب إلى الأعلى تفح نحوي وتهز لسانها المشقوق مهددة. كانت شبيهة تقريباً بالأفعى التي رأيناها منذ يوم. لا أعلم إن كان تجمدي في تلك اللحظة يؤكد صحة الأساطير بما يخص الأفاعي أو أنه شيء يخص شعوري برعشة في قلبي. لا أذكر لحظة قبل الآن تيبست فيها أطرافي بهذا الشكل.

كانت الأفعى تنتفض إلى الأمام والخلف، وتقوم بحركات غاضبة أظن أنها كانت تتهيأ للقيام بهجوم. أردت الجري بأقصى سرعت هرباً منها، ولكن لم أستطيع القيام بذلك كأنه كان هناك تفاهم خفي بيننا في وقوفنا وجهاً لوجه بهذه الطريقة، وأنني إذا تحركت فستتحرك هي أيضاً...

حصلت معجزة في تلك اللحظة. رأيتها تصرع أرضاً بضربة أنزلت في وسط جسمها ساحقة جزءاً منها فلم تبت تشكل تهديداً علي. لمحت في نفس اللحظة لارا التي وقفت جانبي بقميص نومها الناصع تضرب الأفعى بلا توقف بالكريك الكبير التي بيدها. أتذكر أني فكرت بأنه "أمر رائع" في تلك اللحظة التي امتزجت فيها مشاعر الفرح، والنجاة، والتفاجؤ، والخوف، والإثارة، والقلق، وأغلقت فمي. "إنه أمر رائع، لارا أنقذت حياتي، أنقذت حياتي، أمر رائع!"

هل كانت هذه حبيبتي التي كانت تنزل ضربات الكريك الضربة تلو الأخرى، ولم تكتفِ بسحق الأفعى بالقسم العريض من الكريك فقط، بل فتلت الجزء الحاد منها وقطعت رأس الأفعى بضربات شاقولية؟ هل كانت هذه لارا الهشة الناعمة الخائفة من الحياة والرقيقة؟ أعتقد أني كنت أفهم حجم الغضب الذي صبته على الأفعى بأنه مقياس حجم حبها لي. كان يفرحني بشكل غريب رؤية كم كانت تخاف علي مع كل ضربة تنزلها على الأفعى، وكيف كانت تصارع ضد الخطر الذي كان من الممكن أن يأخذ حبيبها منها.

لاحقاً عندما أخذت الكريك من يدها بقوة، هدأت وكأنها استيقظت من حلم عنف، وانفجرت بالبكاء تهز كتفيها وكأن مطر استوائياً زخّ فجأة. تعانقنا ودخلنا المنزل ولكن لم يعد يبدو المنزل آمناً في أعيننا، كذلك الحديقة. وكأن خطراً سينبثق في أي لحظة من أي مكان. كان يمكن لأسفل الفراش، داخل الخزانة، المنشفة المعلقة في الحمام، قعر الأدغال، بين شقوق البلاط، وكل الأمكنة المظللة والمنعزلة كما خشبات العريشة، أن تكون كميناً يتربصنا فيه العدو السام.

أعددنا القهوة لاستعادة وعينا. واحتسيتها بصمت دون أن نتكلم أبداً. لاحقاً رميتُ ما تبقى من الأفعى في القمامة باستخدام المجرفة نفسها. كنت لا أزال أشعر بفزع غريب، لم أستطيع النظر إلى الأفعى المسحوقة، ولكن لا يمكنني أن أترك هذا العمل للارا.

كانت تجلس لارا على الأريكة التي في الحديقة وقد لفت قدميها تحتها وضمت ركبتيها بأيديها، وكانت تنظر إلى نقطة ثابتة. كان وجهها ناصع البياض. لاحظت أننا لم نتكلم ذلك الصباح أبداً ولم نَقُلْ أي كلمة بعضنا لبعضٍ.

في تلك الأثناء تماماً، سمعت الصرخات التي كنت أنتظرها بحدس مشؤوم. كانت تتصاعد الصرخات والجلبة من الجزيرة وبتنا نعرف ما كانت تعني هذه الصرخات. كان أحدهم قد لدغتهُ أفعى، أي إن حفلات قتل أفاعي بدأت تحدث في بعض المنازل كما حدث عندنا. نظرت لارا بغلٍّ إلى وجهي وقالت: «ماذا سنفعل؟»

قلت: «لا أدري». كانت الأفاعي قد غزت جزيرتنا ولم نكن ندري كيف سنتخلص من هذه المصيبة.

ماتت السيدة العجوز في الرقم ٢٢ بين أيادي الطبيب العاجز وهي تهذي من حرارة الحمى. دفناها في اليوم التالي إلى جانب النجار، الذي فقدناه في هجوم النوارس، وسكان الجزيرة قد ابيضت وجههم كالكلس من شدة الخوف وزوجها الذي كان يبكي بلا توقف ولم يكن يصدق ما الذي حل به.

كانت المنازل تعج بالأفاعي، ولم يكن لدى الطبيب السيروم والعلاج الكافي. لم نكن نجد حلاً إلا انتظار سفينة الركاب. لم يتوانَ البعض في ركوب السفينة ليهجر هذه الجزيرة المشؤومة. كنا غاضبين ولكن لم يكن هناك طائل من غضبنا.

لم يسترح رجال الرئيس، وكانوا يحرسون ليلاً نهاراً رغم أنهم قد قتلوا أَفْعَيَيْنِ قد حاولا دخول المنزل.

كان الرئيس وزوجته فقط في المنزل. أرسل أحفاده خارج الجزيرة بواسطة سفينة الركاب بعد حفل وداع مؤثر مع بدء الفصل الدراسي. لم يسمع صوت الرئيس كثيراً بعد ذلك اليوم. بالرغم من كل ذلك التدقيق، قد لدغت أفعى الرئيس من يده بعد أسبوع واحد بالضبط من بدء جائحة الأفاعي.

كما روي، تلقى اللدغة عندما كان يقوم ببعض أعمال الحديقة، إذ كان يمد يده لشجيرة البيتسبورم ليشذبها. أحضر رجاله الذين ركضوا على أصوات الصرخات، مجموعة من المضخات والأدوية والسيروم بسرعة كبيرة من الزورق، وتمكنوا من إنقاذ الرئيس. كان قد تجاوز خطر الموت رغم نومه لعدة أيام وهو يعاني ألماً شديداً وحرارة مرتفعة. قد كشفت هذه الحالة أن الذين في الزورق مهيّؤُون لكل الحالات ولكنهم لم يستخدموا الأدوية التي لديهم من أجل سكان الجزيرة. بالرغم من ذلك، كان بعض سكان الجزيرة لا يسمحون التكلم ضده، ولم ينصتوا للمعارضة التي كنا نتبناها مستفيدين من هذه الحالة.

كم أصبحنا في جزيرة غريبة كهذه. تم نسيان الاجتماعات التي كانت تعقد مع أول وصول الرئيس إلى الجزيرة، تشذيب أشجارنا، تعرض نجل البقال المسكين الرؤوف

للضرب، والمهانة التي تعرضنا لها، ومهاجمة النوارس. يتذكر معظم الناس أن هذه الأحداث بدأت مع هجوم النوارس الدنيئة. وكأن يداً قد أتت في إحدى الليالي ومسحت ذاكرة شعب الجزيرة بينما كانوا نياماً. عندما كنا نتجادل مع جيراننا في بعض الأحيان ويذكر هذا الموضوع، كانوا لا ينكرون الحق - لم يكونوا يلومونا كثيراً أنا ولارا- إضافةً إلى أنهم كانوا يتفوهون بألفاظ غريبة وكأنهم يحملون الكاتب مسؤولية الأحداث. بالنسبة لهم، "أنه" ثرثر كثيراً و"هو" من كان السبب في حلول هذه الفاجعات علينا.

أساساً منذ البداية لم تربط الكاتب صداقة أو علاقة جيدة مع سكان الجزيرة، كما يقولون "يتيم زمانه"، إنه رجل منغلق على نفسه. كان من الواضح أن لديه سراً يحزنه ويبقيه مختلفاً عن باقي الناس، كان هنالك ظلال شك حول حياته، فينعكس ذلك أحياناً على وجهه.

هذا ما كانوا يقولونه بحقك يا صديقي العزيز. لم تجدي نفعاً محاولتنا في الدفاع عنك أنا ولارا بكل قوتنا وقولنا فيك كأكثر الأشخاص نزاهةً وحكمةً قد عرفناهم.

ليس هذا قولاً لمجرد الكلام. حقاً أنت كنت أكثر الأشخاص نزاهةً وحكمةً ووقاراً ممن عرفناهم. لن أنسى أبداً ما تعلمته منك ليس من أقوالك فقط، بل من تصرفاتك ومروءتك ومن شخصيتك العنيدة في بعض الأوقات أيضاً، إذ إن ذلك يفهمه الجميع على أنه غرور. علي القول عند هذه النقطة من الحديث "رغم أنني لم أطبق هذا دائماً...". لأنني أعرف أنك لن تتقبل "الحيلة الأدبية" التي حصلت في الفصل السابق. أعرف أنك ستعتقد بأنه تشوه النص حتى في خضم الحديث عن إثارة زحف الأفاعي إلى الجزيرة، وحتى إنك ستغضب علي وستتركز تلك النظرات الغاضبة في عينيك.

أعرف كل ذلك على أية حال، ولكن كنت آمل منك أن تسمح لي بالقيام بالقليل من هذه الحيل. لأنه بلا شك أن الإنسان يَسأَمُ قليلاً، أليس كذلك؟ تحدث، وتحدث، وتحدث... الجمل والأوصاف نفسيها، التخيلات، الرموز، التشابيه المستعارة. أحداث تسرد بالشكل ذاته منذ مئات السنين. ما ضرر القيام بالقليل من التجربة.

وكأنني أسمعك تقول لي: «بدلاً من محاولتك الحديث عن سير الحياة الرتيبة في الجزيرة بصفحة فارغة، تحدث في الفصل السابق عن الثعالب التي أتت إلى الجزيرة أيها

الغافل». فعلاً بقي ذلك الجزء ناقصاً. عشرة ذكور وعشر إناث من الثعالب انتشروا في الغابة مثل البرق يهزون أذيالهم، ولم يرهم أحد بعد ذلك، كنت قد قلت ذلك سابقاً أليس كذلك؟

بحسب ما قاله الخبراء وبحسب المعلومات الواردة في الموسوعة التي في المنزل، أن هذه الثعالب لا تتحرك بشكل جماعي ومنظم كالنوارس، إنها تصطاد وتعيش وحدها. لها طباع خبيثة. تستغل كل الفرص التي تتاح لها، وتأكل في اليوم الواحد ما يعادل كيلو غرام واحد. تشكل الدجاجات، والبيوض، وحتى العليق والفريز هذا طعاماً لها. كما أنهم يتكاثرون بشكل كبير ويكون لديهم صغار عديدة.

هل قاموا باصطياد بيض النوارس الذي كان سبباً لجلبهم إلى الجزيرة؟ لم نكن شاهدين على هذا الشيء لأننا لم نَرهُمْ أبداً. من الواضح أنهم كانوا يسرقون ذلك البيض خلسةً، وكانوا يلتهمونها حتى دون علم أباء وأمهات النوارس البيوض. حتى كان هناك من يدعي أن الثعالب كانت سبباً في تناقص عدد النوارس كثيراً.

بات يحكى كثيراً عن الثعالب في تلك الآونة. هناك من تتطرق إلى هذا الموضوع عندما اجتمعنا ذات مساء تحت العريشة بعد توزيع الرئيس بلاغات على المنازل. جيد أن اجتماعاً قد حصل وتفتحت عيوننا. تموضع سكان الجزيرة مجدداً حول الطاولات الملتصقة. أخذ مجلس الإدارة مكانه.

ولكن كان هناك كرسي فارغ من بين الكراسي المخصصة لمجلس الإدارة. لم يأتي الكاتب إلى الاجتماع. بات لم يعد يختلط بالجموع، حتى إنه كان يتجاهلنا أنا ولارا رغم معرفته أننا كنا نحزن لحاله.

كان أصدقائنا العازفون في إحدى زوايا الحديقة. كانوا يصدرون بين الحين والآخر بعض الأصوات بالآلات التي بين أيديهم، وينظرون من حولهم بنظرات استغراب.

فرحت لتعافي صديقنا عازف القيثارة بهذا الشكل. يبدو أن الرئيس طلب منهم أن يعزفوا شيئاً قبل الاجتماع. ولكن لأول مرة كانت هذه الأصوات التي يصدرها هؤلاء الأصدقاء غريبة علي. عندما دققت جيداً استطعت تمييز أن المقطوعة التي يعزفونها كان أشبه بالنشيد.

جلس الرئيس في الوسط بثيابه البيضاء الناصعة وبسلوكه السلطوي المعتاد. إن الفرق الوحيد عن حالته الأولى عندما أتى لأول مرة إلى الجزيرة، هو ذلك الضماد على يده اليمنى. بدأ الاجتماع بترك العازفين لآلاتهم وبأخذهم لأمكنتهم على الطاولة.

تذكرت أول اجتماع لنا عندما كان الحديث جارياً. ذلك الاجتماع الذي تم فيه انتخاب مجلس الإدارة، الاجتماع الذي أدى إلى هيمنة القوانين البيروقراطية على الجزيرة، ولاحقاً اجتماع آخر كان يحاول الرئيس من خلاله إقناع سكان الجزيرة بمهاجمة النوارس. كان يبدو كل شيء متشابهاً ولكنه كان مختلف جداً. لم تعد الثقة والفرحة القديمة بين سكان الجزيرة موجودة. حلت ظلال الكآبة على وجوه الجميع. كان الجيران يرمقون بعضهم بعضاً بنظرات الشك. كانت الأجواء مثقلة بالحزن والهواجس التي تطبق على صدور الناس.

أخذت هذه الحالة شكلاً أوضح مع قيام الرئيس بدعوة الجميع إلى الوقوف دقيقة صمت على روح أخونا النجار الذي فقدناه، ومن أجل السيدة التي ماتت بلدغة أفعى. تركت الكراسي التي اعتاد أصدقائنا الجلوس عليها فارغة، ووضعت صورهم على الطاولة. وقد جرت دموع البعض أثناء دقيقة الصمت.

في تلك الأثناء رمق سكان الجزيرة بنظرة كراهية عدة نوارس كانت تطير فوق البحر. ألقى الرئيس إحدى كلماته الحماسية كما جرت العادة، تكلم مجدداً عن الأعداء، أطلق اللعنات على النوارس، أما الأفاعي، فحاول تفسير وجودها على أنها كانت نتيجة لعدم تحضر الحياة في الجزيرة.

بالنسبة له، كان الصراع ضد النوارس ناجحاً، والآن بنفس العزيمة والتصميم سوف يتم التغلب على الأفاعي. لن يتمكن أحد من ترهيب سكان الجزيرة. رغم ظهور بعض الانهزاميين الذين يريدون إحباط المعنويات العالية للشعب في هذا الصراع، فلم يتمكنوا من تحقيق آمالهم النكراء، ولم ينالوا من وحدة الشعب. كان من الواضح هنا أنه يقصدنا مع الكاتب. رمقنا عدة أشخاص بنظرات عبوسة.

اتخذت الرئاسة التدابير الضرورية اللازمة في الصراع ضد الأفاعي، طلب عن طريق الهاتف الفضائي ما يكفي لجميع المنازل من الأدوية الطاردة للأفاعي. ستأتي هذه

الأدوية في سفينة الركاب بعد يومين، وسيتم توزيعها على كل المنازل، ومن ثَمَّ سيمنع دخول الأفاعي إلى المنازل.

قوبلت كلمات الرئيس هذه بالتصفيق. ظهر لأول مرة بريق الأمل في أعين الناس الذين ينظرون إلى أسفل الطاولة بحزر، مرتدين القفازات والأحذية طويلة الساق تحسباً لهجوم الأفاعي، وممسكين للعصي بأيديهم. كانوا ينظرون إلى رئيسهم بامتنان. هذا إن الرئيس سيخلصهم من بلاء الأفاعي الحمراء الخضراء إذا صمدوا قليلاً.

حصل شيء نزع طمأنينتهم بينما كان الجميع غارقاً في سكينته. تصاعد صوت من الخلف وقال بسخرية: «ألن تشرح لماذا غزت الأفاعي الجزيرة يا سيادة الرئيس؟»

كان قد جاء الكاتب. وقف هنالك كأنه ولي هارب من حجرة الاعتكاف كان قد نحل كثيراً كإبرة وعيونه قد غارت إلى في وجهه، وبدأ يوجه الأسئلة مثل البرق على الرئيس أولاً ثم على جميع سكان الجزيرة.

كيف يمكن تعليل غزو الأفاعي الجزيرة، كيف ظهرت هذه الأفاعي فجأةً رغم أنها لم تكنْ موجودة كل هذه السنين، دخول الأفاعي إلى كل بيت، تضاعف الأفاعي في الجزيرة إلى مئات أضعافها؟ أي حادثة طبيعية أدت إلى ذلك، وكيف يمكن لموضوع مهم كهذا ألا يناقش؟ أم إن هناك ما يريد الرئيس الذي يتأرجح باضطراب في كرسيه أن يخفيه؟

انتهت هذه الزخات، التي نزلت على الاجتماع كالرصاص، بسؤال:

«هل تفضلون توضيح الموقف أنتم أم أحكيه أنا؟»

كان الرئيس يتذمر مصرحاً أنه لا يوجد شيء ليقال عندما قال الكاتب إنه ما زال عضواً في مجلس الإدارة، وله الحق في التكلم بينما توجه إليه رجال الرئيس بنية إسكاته. توقف الرجال ذوو النظارات السوداء بحركة من يد الرئيس.

قال الكاتب متوجهاً نحو وسط طاولات الاجتماع: «انظروا يا رفاق، تذكروا كيف بدأت الأحداث. فكروا بأيامكم السابقة، تذكروا تلك الفترة السعيدة التي كنا نتعايش فيها مع النوارس كما جميع الأحياء في هذه الجزيرة. لا يمكنكم أن تنسوا كل شيء، تلك المرحلة التي كنا نشاهد فيها انسياب النوارس في الهواء كالعرائس، نستأنس

بها، الفترة التي كنا ننصت فيها إلى أصوات القيثارة والفلوت التي ينثرها أصدقائنا العازفون ألحانها كلوحة من الطبيعة. الأيام التي كنا نسير فيها تحت ظلال الأشجار بطمأنينة دون أن نشعر بأي خوف...».

وتابع بعد أن رمق سكان الجزيرة الذين كانوا ينصتون إليه بنظرات فارغة:

«ألا تذكرون هذه الأشياء؟ ثم مجيء هذا الرجل، تشذيب أشجارنا، القوانين، السلطات، البلاغات الموزعة على المنازل، وأخيراً الهجوم الذي شن على النوارس البريئة».

إن عبارة هذا الرجل في هذا الجزء من الكلام أغضبت رجال الرئيس، فتحركوا قليلاً ثم توقفوا بإشارة منه وتابع الكاتب كلامه. في المناسبة، أبدى الرقم ١، الذي تحول إلى واحد من أصدق رجال الرئيس، اعتراضاً: «ما علاقة ما قلته بالأفاعي؟»

قال الكاتب الذي نظر إليه بنظرات الشفقة: «يا صديقي القديم، له علاقة، وعلاقة وطيدة أيضاً»، ثم توجه إلى كل الذين كانوا في البهو وتابع كلامه: «جلبتم الثعالب إلى الجزيرة لإنقاص عدد النوارس، كنتم مضطرين لوضع قوة معادية أخرى أمام العدو بناءً على نظريات الرئيس انطلاقاً من منطق "عدو عدوي صديقي". من جهة أنقصت الثعالب نسل النوارس بأكل بيضها، وزاد عددها من جهة أخرى. مع ازديادها نقص عدد النوارس وكانت النتيجة كهذا».

صرخ بعض الجيران الغاضبين عديمي الصبر وهم يرمون نظرات عابسة: «ماذا حصل؟»

«يا أصدقاء، ألا تفهمون، تفاقمت أعداد الأفاعي إلى هذه الدرجة بإخلالكم للتوازن البيئي. ففي السابق كانت النوارس تصطاد الأفاعي. ولهذا السبب بقيت أعداد الأفاعي في الجزيرة ضمن مستوى محدد. حتى إننا لم نكن نصادف هذه الأنواع السامة. هذا يعني أنها كانت تعيش بعيداً عنا في الطرف الآخر. كثرت الأفاعي عندما أنقصت الثعالب أعداد النوارس، وها هي الأن قد بدأت تدخل منازلنا. أي إن الثعالب التي وضعتموها أما النوارس التي اعتبرتموها عدو، شكلت خطراً جديداً لم تتوقعوه أبداً».

عم صمت. من الواضح أن الجميع كان يفكر "هل صحيح يا ترى؟"، لأن ما قاله الكاتب قد كان يحاكي العقل. حتى إن السيد كاتب العدل وقف وقال: «ما يقوله

صديقنا صحيح. إن العبث بالتوازن البيئي يجلب الكوارث دائماً!». بدأت أقدام الجميع تلامس الماء قليلاً عندما قال هذا الشخص المحترم ذلك.

سأكون كاذباً إذا قلت إننا لم نستغرب عندما رأينا الرئيس لا يعترض على هذا الكلام، بل أكده بإيماءة برأسه. ما الذي حصل حتى أصغى قرش البحر إلى هذا الكلام المنطقي. مع أنني كنت أتوقع أن يقف ممطراً الحقارات على الكاتب، وأن يدعو سكان الجزيرة لعدم الإصغاء إليه ومن ثمّ يعطي الأوامر لرجاله لاعتقاله. هذا يعني أن المناورات الدبلوماسية عبر السنين قد علمته التراجع في بعض النقاط، أي بالمعنى القديم، أن يبدو على حق.

وقف وقال: «يجب علينا أن نقبل بحقيقة ما قاله صديقنا. نحن لا نظلم أحداً. الحق حق والباطل باطل. كان علينا أن نناضل ضد النوارس. يجب ألّا يحاول أحد أن يعترض على ذلك مستصغراً لقضيتنا. ما كان بمقدورنا أن نسلم جزيرتنا الجميلة لهذه المخلوقات المتوحشة التي تبث المرض، كما أننا اتخذنا هذه القرارات بشكل ديمقراطي بإجراء تصويت، أليس كذلك يا رفاق؟ جرى كل شيء بما يتناسب مع القرارات الديمقراطية، تمت مهاجمة النوارس بقرار الأكثرية. ولكن ماذا عسى أن نفعل، قد تظهر نتائج غير متوقعة في أي صراع كان. يتم النظر في الموقف وتتخذ التدابير بناءً على ذلك. ما يهم حقاً هو التصميم، والوحدة ،والتضامن، وإبقاء المعنويات مرتفعة».

قال الكاتب بلهجة ساخرة أكثر: «إذن ماذا تقترحون الآن سيادة الرئيس؟ هل سنشن الآن الحرب على الثعالب كي نزيد عدد النوارس قليلاً؟ هل سنتناول الأسلحة ونذهب لصيد الثعالب؟»

أجاب الرئيس عن هذا السؤال: «لا» مستخدماً أكثر تعابير وجهه قسوة وتصميماً. «لا ألف مرة. ليس من حقنا أن نفعل شيئاً يزيد عدد النوارس مرة أخرى بعدما اقتربنا من تحقيق النصر. فهؤلاء أعداء الجزيرة وأعداؤنا جميعاً». وتابع رافعاً صوته قليلاً: «لم ننس بعد كيف قتلوا النجار المسكين بوحشية، وكيف أنزلوا ضربات مناقيرهم على رأس جارنا البريء، هل نسينا يا أصدقاء، ماذا هل نسينا؟»

صاح بعض من الجموع: «كلا لم ننسى!».

أطرى الرئيس صوته قليلاً وقال: «ولكن يا جيراني الأعزاء، من المؤكد أننا لن نجلس مكتوفي الأيدي لأن الحال هكذا، هناك عمل يجب أن ينجز. بداية دعونا ننتظر هذه السفينة ونجلب الأدوية ونخلص بيوتنا من تهديد الأفاعي».

خلال هذا النقاش، شردت عيني للحظة في الأفق. كانت الشمس تغرب مجدداً كقرص أحمر يغطس في البحر، كان خط الأفق يعكس ألف لون ولون تتدرج من اللون الأحمر إلى البنفسجي بمشهد يلوي القلوب. كانت النوارس تنزلق في السماء بطريقة تذكرنا بجزيرة سياحية هادئة وآمنة. كانت الجزيرة كأيامها السابقة، وكأن شيئاً لم يتغير بها على الإطلاق، نحن كنا قد تغيرنا.

لم تكسر لارا صمتها التي انغمرت فيه حتى في ذلك الاجتماع، لم تكن السكاكين لتفتح فمها. لم أجد حلاً، عندما ذهبنا إلى المنزل، غير أن احترم صمتها هذا. من الواضح أنها كانت تقاسي مشاكل كبيرة لا يمكنها أن تفصح عنها. كانت تتخبط أثناء نومها في الليل، تصرخ صرخات صغيرة، وتتأرجح في السرير من هنا إلى هناك بشكل مضطرب.

كان واضحاً أن كل ذلك كان يتعلق بقتلها لتلك الأفعى. إذ رأيت بأمِّ أعيني كيف أن لأكثر الأشخاص في العالم معاداة للعنف أن تتحول إلى آلة للقتل عندما تضطرها الظروف. لم يفارق أعيني أبداً مشهد تمزيقها لخاصرة الأفعى أولاً، وسحقها لجزء من جسمها، ثم قطعها لرأسها بالطرف الحاد للكريك. هذا يعني أنه يمكن للخوف أن يجعل الإنسان يفعل كل شيء. قد جالت عقدة "الخير والظلم" في رؤوسنا أكثر وازدادت تعقداً. لاحظت أنه لا يوجد لهذا السؤال أجوبة بسيطة كما كنت أتوقع سابقاً.

في اليوم التالي تركت لارا وحيدةً في المنزل، وخرجت لأتمشى في أنحاء الجزيرة. لأنني رأيت أنها كانت بحاجة إلى هذه الوحدة، يجب أن تبقى وحدها وربما كان يجب عليها أن تقوم ببعض الحسابات التي تراها لازمة بهدوء.

أساساً أنا أيضاً كنت بحاجة إلى القليل من الوحدة والتفكير، لأن تجمدي في اللحظة التي رأيت فيها الأفعى، وإنقاذ لارا لي، كان يفصح بشكل لا مفر منه عن سؤال يجرني لإمعان النظر ولكن لم أكن أجرؤ للتفكير به. هل كنت أنا شخصاً جباناً؟ لماذا لم أكن أرفع صوتي في الاجتماعات رغم إصرار الكاتب ولم أعترض على الرئيس؟

ذهبت إلى "المياه البنفسجية" متخذاً لقرارات تتعلق بهذه الأفكار وآملاً أن أجد الكاتب، لم يكن موجوداً. ثم مشيت إلى أن لجأت إلى برودة أشجار لوز الصنوبر العملاقة الواقية التي تبث الطمأنينة في قلب الإنسان.

هناك أيضاً لم يكن الكاتب، ولكن كان نجل البقال الأحدب غارقاً في نوم هنيء عند جذع إحدى الأشجار. تكسرت تحت أقدامي إبر الصنوبر وثماره. تمكنت من الجلوس بجانبه دون أن أصدر صوتاً قدر الإمكان. كان الغلام نائماً بأمان غير متناهي وكأنه لم يكن في الجزيرة خطر نوارس أو أفاعٍ. لم يرهق أحدنا عقله بالتفكير بهذا الغلام الذي لم يتكلم ولم يتواصل مع أحد وحتى لا يواجه أحداً. ونحن أيضاً لم نحاول أن نفهم أي نوع من الناس كان. اكتفينا بمعرفة كونه النجل المقعد للبقال ذي التفكير المحدود. كان غلاماً يتصرف بغرابة وكأنه يتخبط في الماء عندما كان يوصل الطلبات إلى المنازل. ولذلك معرفتي بمحاولته إنقاذ صغار النوارس أصابتني بالدهشة، وجعلتني أركز انتباهي عليه.

ربما أحس الغلام بوجودي واستيقظ بعد مدة، استقام فوراً، فرك عينيه، وارتسم عليه تعبير وكأنه كان يعتذر.

قلت: «كنت تنام بعمق، فلم يطاوعني قلبي على إيقاظك».

حاول الغلام، الذي لم يكن معتاداً أن يحادثه أحد، أن يشيح بأنظاره المندهشة عن عيني.

قلت: «كيف أهلك؟»

بقي صامتاً كما في كل مرة، كان يبدو خائفاً.

قلت: «تلك النوارس التي في القن. هل أنقذت المزيد من النوارس غير أولئك الصغيرين؟»

غادرني راكضاً. لم يفاجئني إدراك امتلاء داخلي بالرحمة والاحترام العميق عندما كنت أنظر إلى هذا الغلام المسكين المقعد الذي كان يركض ويعرج من كتفيه حتى قدميه.

- ١٧ -

يمكن التعبير عن المشاعر، الأفكار، حتى المناظر، والأفعال عن طريق الكتابة ولكن لا أعلم كيف يمكن التعبير عن رائحة دواء الأفاعي الآتي بالسفينة الذي يكسر وتيرة الأنف برائحته. لا تكفي الكلمات للتعبير عن الرائحة التي نشرها هذا الدواء المنشور في حدائق المنازل، وأسفل التراسات، ومداخل أبواب الشرفات. هل يكفي إذا قلت إنكم إذا راكمتم مئة حيوان ميت بعضهم فوق بعضٍ وتركتموهم تحت الشمس لأيام ربما كانوا سيصدرون هذه الرائحة؟ لست واثقاً.

ربما كانت هذه الأدوية، التي جلبت بالبراميل ووضعت في عدة أماكن في الجزيرة، تطرد الأفاعي ولكن أصبح الدخول إلى المنازل والممتلكات ظلماً بالنسبة لنا. حتى تلك العطور الجميلة وروائح الياسمين لم تكفِ لكبح هذا الاشمئزاز. لم تُجدِ نفعاً أبداً الكولونيا التي رششناها في جميع مطارح المنازل، المستحضرات التي دهناها، وأثقل أنواع العطور التي أخرجتها النساء من صناديقهن واستخدمتهن. خفف البعض الرائحة في منازلهم بتنظيفهم للأماكن التي سكبت فيها الأدوية بالماء والصابون قائلين: «فلتأتِ الأفاعي إذا كانت ستأتي، فذلك أفضل من الموت بهذه الرائحة!».

سكان الجزيرة المساكين!

إن هؤلاء الأناس المساكين الذين وضعوا الطناجر على رؤوسهم خوفاً من هجوم النوارس، وارتدوا الأحذية طويلة الساق الضخمة في ذلك الحر خوفاً من الأفاعي، يا ترى هل يجب عليهم أن يضعوا مشبك غسيل على أنوفهم ليتخلصوا من الرائحة؟

حتى إن البعض بدأ يتحدث عن كون الجزيرة مشؤومة وأنها باتت ملعونة. مهما حاولنا لم نتمكن من إرجاع هؤلاء المؤمنين باللعنة عن فكرتهم، وتذكيرهم أن جزيرتنا كانت أجمل مكان في العالم حتى مجيء الرئيس إليها. كانوا يصرون بأنها لعنة لا شيء

غير ذلك. هذا يعني أن ذلك موجود في قدر الجزيرة. حتى إن بعض العائلات غدت تفكر بركوب السفينة والعودة إلى ديارها.

بعدما قلت الرائحة في منازل الأصدقاء الذين غسلوا الأماكن المرشوشة بالدواء، باشرنا نحن أيضاً بفعل الشيء نفسه. ففي النهاية ستكون الأفاعي قد هربت إن كانت ستهرب، ونحن كان بإمكاننا أن نفعل شيئاً لم نقم به منذ زمن طويل، أي أن نستنشق نفساً نظيفاً إلى صدورنا.

اعتقدت أني لو كنت أفعى ما كنت لأمر بجانب هذه المنازل مرة أخرى ولكنني كنت مخطئاً، ظهرت الأفاعي مجدداً في عدة منازل بعد أن قل تأثير الأدوية. لم تكن قد دخلت المنازل ولكنها ضبطت في الحدائق أو في التراسات. أي إن مشروع طرد الأفاعي بالأدوية لم ينفع.

بناءً على ذلك، لجأ سكان الجزيرة العاجزون لمجلس الإدارة مرة أخرى. بكلمات أوضح، شرحوا مشكلتهم للرئيس، لأن مجلس الإدارة يعني الرئيس.

قال الرئيس وعلى وجهه تعابير التصميم إنه سيوجد حلاً لكل شيء، وإن خبيراً استُدعي من البلاد لتخليص الجزيرة من مشكلة الأفاعي، وإن هذا الخبير الذي سيأتي مجتازاً البحار سيخلصنا من جميع هذه المشاكل. كان هذا الخبير الكبير قد صنع المعجزات في أماكن أخرى، وحل المشاكل والأزمات، فلماذا لا يحلها في جزيرتنا. أنهى كلمته بالقول: «فكرت رئاستنا ووضعت حيز التنفيذ كل أنواع التدابير اللازمة من أجل أمن الجزيرة ورفاهيتها ورخائها».

شعر الشعب، الذي سمع هذه الكلمات، بالإثارة الكبيرة، وبدأ يترقب مسير هذا الخبير القيم. ولكن بالطبع لم يكن هذا الخبير يعمل بالمجان. حتى يمكن القول إنه يعمل بأجر مرتفع بعض الشيء. رغم أن الأجر الذي سيتقاضاه يجب ألا يعدّ مرتفعاً عطفاً على العمل العظيم الذي سيقوم به. توجب على كل منزل أن يدفع مقداراً معيناً من النقود يقدم له مع أول وطأة قدم له على الجزيرة. قال البعض منا: «دعونا نَرَ ماذا سيفعل، وبناءً عليه ندفع النقود»، ولكن نظر بقية الجيران إلى الذين قاموا بهذه التحذيرات بنظرات عبوسة.

لم أفتح فمي بكلمة لأن ما عشته بالأشهر الأخيرة، علمني شيئاً كدرس في الحياة لا يمكن أن أخرجه من عقلي. افعل ما شئت فعله لكن لا تسرق أحلام سكان الجزيرة، لأن حاجة الناس المخنوقين في اللجوء إلى أمل حتى لو كان كذباً، يؤدي إلى كره الذين يقولون الحقيقة. حتى لو قُضِيَ وقت من الزمن ومن ثُمّ اكتُشِفَ أنك كنت محقاً، فذلك لن يجدي نفعاً. ففي ذلك الوقت يكونون قد نسوا الظروف التي كانت في البداية. أساساً بأي طريقة يمكن تفسير تحول الكاتب إلى شخص مكروه إلى هذه الدرجة رغم عدم اختلاطه مع الناس وعدم تحدثه معهم!

لذلك وجدت من الأنسب أن أدفع ما يقع على عاتقي من النقود، وأن أُصمت دون أن أقول كلمة أمام مبادرة "الخبير" هذه. لم أعترض أبداً على الذين تجمعوا ضمن مجموعات ثلاثية أو خماسية يتحدثون عن الخبير أنه كم كان رجلاً مذهلاً، وأنه أنقذ عدة بلدان من الفاجعات، وأنه سيجد حلاً جذرياً لمشاكل الجزيرة. اكتفيت بالاقتراح على لارا أن نبدأ بالتفكير ماذا سنفعل إذا باء موضوع الخبير بالفشل. ربما علينا نحن أيضاً أن نهرب من هذه الجزيرة ولكن فكرة الهرب من هنا كانت تخيفنا بشكل كبير. توجب علينا كِلينا أن نجد عملاً نمارسه بعد كل هذه السنين من الحياة المريحة والصافية. ناهيكم عن كيفية انسجامنا في المدن المليئة بالعنف، كيف ستحتمي لارا من زوجها الذي سيجدها عاجلاً أم آجلاً.

عندما كنا نفكر بذلك كنا نقرر البقاء في الجزيرة بالرغم من الأفاعي، ولكن كنا ننساق وراء أفكار بأن هذا المكان بات لا يطاق العيش فيه، ومن ثمّ كانت أيامنا تمضي موصومة بالتردد.

شاركنا الكاتب في إحدى الليالي مخاوفنا هذه، وسألناه بما يفكر. يا ترى هل كان صديقنا المحاط بحلقة من الحقد يفكر شيئاً فشيئاً في ترك جزيرة الفاجعات هذه والعودة إلى وطنه الأم؟

لم تخرج من عقلي تعابير وجهك في تلك اللحظة يا صديقي العزيز. كانت غيوم القلق تطوف في عيونك. كنت قد فكرت مطولاً ثم وكأنك فتحت غطاء صندوق الأسرار بقولك: «لا يمكنني العودة إلى هناك!»

قد قلت ذلك بنبرة صوت قلقة لدرجة فهمنا أنا ولارا أن حالة "استحالة العودة" هذه ناتجة عن مشكلة في بالغ الجدية. ثم أضفت: «لن يبقوني على قيد الحياة إذا عدت إلى هناك».

اقشعر قلبي وكأنني التمست ما كان سيحصل لاحقاً. يبدو أني نظرت إلى وجهك بقلق شديد قائلاً: «هيا، لا تحمل الأمور أكثر من أوزانها. ها نحن هنا حالياً. نعيش بأمان صفاً لصف مع رجال الرئيس والأفاعي. من منهم أخطر، لا أعلم...»

لم تأثر بي الكلمات التي قلتها، بل المرارة التي كانت في ضحكتك.

في الفترة الأخيرة حتى البحر الذي يحيط بجزيرتنا بات يتراءى لأعيني على أنه خطير أيضاً. أرعشت قلبي مشاهد المد والجزر التي كنت أراقبها مستمتعاً وأنا جالس على الشاطئ نمارس لعبة ترقب الموجة الكبرى بعد عد سبعة أمواج. كنت أحس بأن هناك ظلماً وتهديداً في تموج البحر. مع ازدياد كمية القلق الذي في داخلي، بدأت أفكر في أعماق البحر المظلمة وليس في وجهه البراق. كيف يمكننا تفسير أن تكون قروش البحر ظالمة، وأن تكون الدلافين خيرة وهي تعيش في نفس البحر وفي نفس الظروف البيئية؟ ربما لا يوجد شيء يسمى ظلماً وخيراً.

قلت للارا: «آه! يا حبيبتي، بت حائراً، لم أعد واثقاً من شيء أبداً كما في السابق، لا أستطيع الوثوق بنفسي ولا بكتاباتي. الشيء الوحيد الذي يجعلني قيماً في هذه الحياة هو أن أكون معك. ليس لي أهمية أو أي قيمة أخرى».

كانت بالفعل، حينما تعانقنا كدمعة حزن يحميها ستار من المتعة والشفقة، أغلى - وربما الوحيدة - لحظات حياتي.

كان أكبر نقص في حياة الكاتب، أنه لا يعيش مع امرأة مثل لارا. كنت أشفق عليه كثيراً، يا ترى ألم يقع في الحب أبداً، ألا يوجد من يحبه؟ بالرغم من تقاربنا الشديد كنت أشعر أني لن أتطرق إلى هذه المواضيع، ولن أسأل أسئلة كهذه، فآثرتُ الصمت.

حتى تلك الجملة أو الجملتين اللتين قالهما ذلك اليوم، كانتا كنوع من فضفضة.

استمرت الحياة دوماً في مفاجأة الإنسان. في أحد تلك الأيام الخانقة قام نجل البقال بحركة غير متوقعة، فأتى إلى المنزل، وقرع الباب. ثم أمسكني بيدي وسحبني إلى الخارج، وأخذني إلى مكان ما. تفاجأتُ لدرجة أنني لم أعد أعرف ماذا سأقول، سمحت لهذا الغلام الأحدب، الذي كانت يده بيدي، أن يوجهني كيفما أراد. من جهة أخرى طغى على قلبي فضول غريب. ولكن عندما رأيت الغلام يأخذني سحباً إلى القن التي خلف البقالية، اعتقدت أنه ربما يريد أن يريني نوارسه.

بالفعل هذا ما حصل ولكن كان هناك المزيد. فتح الغلام باب القن، أمسك بصغيرين كانا قد سمنا قليلاً، أغلق باب المدجنة بهدوء، ثم انطلقنا مجدداً. عندما وصلنا إلى رأس الجرف الذي يقبع عند حافة انتهاء أشجار لوز الصنوبر، أعطاني أحد النوارس التي بحوزته. حملت الطائر بيدي كلتيهما بطريقة هاوية وكأني أمسك طفلاً صغيراً. كان النورس دافئاً وكنت أستطيع الإحساس بتسارع دقات قلبه.

نظر الغلام إلى وجهي وبهدوء ترك صغير النورس الذي بيده إلى الفضاء. حار النورس لما أصابه، كان يعاني صعوبة في الطيران. رفرف بجناحيه بطريقة هاوية وحط على صخرة على بعد عدة أمتار في الأسفل.

كان الجرف الذي نقف على حافته مرتفعاً جداً. كنا نرى الأمواج في الأسفل ترتطم بالصخور فتنفجر بهياج. شعرت بأقدامي تنزلق في العشب الرطب، ارتفع شعور خوف من بين أرجلي نحو معدتي. تراجعت للخلف قليلاً. أما الغلام، فظلَّ مستمراً بالوقوف على حافة الجرف بفرح كبير يشاهد مستمتعاً صغير النورس الذي يحاول الطيران. لم أر في السابق أبداً على وجهه ملامح فرح كهذه.

بناءً على إشارة من الغلام رميت الجسم الساخن الذي بيدي نحو الفضاء. فحط بنفس الشكل على صخرة برفرفة هاوية لجناحيه. ثم غادر الاثنان الصخرة وطارا لعدة أمتار أخرى باذلين جهداً كبيراً، انتظرا قليلاً، وكررا الحركة نفسها.

ارتسمت على وجه الغلام ابتسامة براقة رائعة. وحتى إنه بتلك الفرحة قام بحركة غير منتظرة أبداً وأمسك بيدي. لاحظت بقية النوارس، في تلك اللحظة، هذين

النورسين الصغيرين، وبدأت تلتف حولها وكأنها تريد مساعدتها في الطيران. خيّل لي أنهم كانوا يطلقون صرخات الفرح. أفرح هذا المنظر الغلام أكثر، كان يضحك مغلقاً يديه على فمه، ويهتز ويقوم بحركات غريبة غير متوقعة ليعكس فرحه الداخلي.

حز في نفسي دعوته للشخص الوحيد الذي يعرف سره ولكنه لم يَبُحْ به لأحد، إلى حفل تطيير النوارس. لقد عاش سعادة منح الحياة لصغار النوارس، وكان نسل النوارس يزداد بمشاركتي لفرحته. ربما كان هذا الشيء ما يسمى الخير.

الأمر السيَّئ الوحيد في اليوم الذي عشت فيه هذه الفرحة الصغيرة، هو رؤيتي للخلوة في شاطئ النوارس ورؤيتي للانخفاض المأساوي في أعدادها. كان الشاطئ الطويل يبدو حزيناً بتجمعات النوارس القليلة في بعض أنحائه بعد أن كان مملوءاً بالطيور البيضاء في السابق. من الواضح أن الثعالب التي كانت في ازدياد، لن تترك نورساً في الجزيرة جراء سرقتها لبيضها.

- ١٨ -

يا لهذه التبذير، يا لهذا الاستقبال. لم يبقى إلا أن نرمي الورود في طريق الخبير لأنه سيضع الحد لجميع مشاكلنا، وسيخلصنا من المصائب. قد تفاجأ حتى الخبير، الذي من المتوقع أنه نال كثيراً من الثناءات خلال مسيرة حياته الطويلة. بحفل استقبال.

أخذ سكان الجزيرة الذين ينقصهم عدة أشخاص مكانهم على الرصيف البحري عندما رست سفينة الركاب في الخليج. كان سكان الجزيرة يرهقون أعينهم لرؤية هذا الرجل المهم، وينتظرون الفرصة لانتهازها لطلب المساعدة من الذين تصرفوا بحيطة أكثر وجلبوا منظاراً معهم، ويسألون دون توقف الجيران أصحاب هذا التميز:

«هل ترونه؟»

«ما هي هيئة هذا الرجل؟»

«ما هي ملامحه؟»

كان بوسعي سماع أجوبة أحد جيراننا في الجوار لهذه الأسئلة المتحمسة. كان يقول: «نعم أستطيع رؤيته، نزل الآن من سلالم السفينة، ويركب الزورق، إنه أطول قامةً من جميع الذين بحوله، لديه قبعة قش، يرتدي نظارة شمسية، إنه رجل نحيل، إنه طويل وطويل جداً».

«دعك من ذلك يا رجل، أعطني هذا المنظار لثوان».

لم يولد أحد قد آتى من قبل إلى الجزيرة، حتى الرئيس، الحماس الكبير لهذه الدرجة. ففي غضون أسبوع سرد سكان الجزيرة الحكايات بعضهم لبعضٍ منتظرين المخلص بفارغ الصبر، يا لها من الحكايات.

أنقذ الخبير إحدى المناطق الزراعية من بلاء الجراد بعد أن غزتها دون الاضطرار لحرق القمح. وفي مرة أخرى، نجح في جعل قرية مذعورة تنجو بأعجوبة من كارثة

فيضان محتمة بعد أن تمكن بشكل إعجازي من تغيير مجرى نهر فائض. بل ذهبوا أبعد من ذلك، وصادفت من قال إن الخبير طور لغة خاصة للتفاهم مع الحيوانات، وأنه يحبس الصواعق ضمن كفه.

لا أحد يدري ممن كانوا يسمعون ومن أين يدرون بهذه الأخبار في جزيرة ليست لها ارتباطات وثيقة مع العالم ولكن بما أن الجميع كان واثقاً جداً من الذي يقوله، فبلا شك هناك ما يعرفونه.

لا أجد الحاجة للقول إن الكاتب، الذي كان يكره هذه الأشياء ولجأ للانزواء بشكل كبير، لم يكن موجوداً، ولكن الأمر الغريب أن الرئيس أيضاً لم يكن حاضراً في حفل الاستقبال هذا. يبدو أنه لم يأتِ كيلا تنقص هيبته السلطوية. وربما كان يغار من الاهتمام الذي أبداه سكان الجزيرة للخبير. في النهاية كان رئيس الجزيرة، ويجب على من يقدم حديثاً أن يقوم بزيارة للرئيس، أليس كذلك!

مع اقتراب القارب بدت هيئة رجل فارع الطول يقف على قدميه بشكل يؤكد صحة ما قاله جيراننا أصحاب المناظير. اقترب نحونا كأنه دون كيشوت يركب زورقاً بدلاً من روسينانتي. بدأت تصفيقات الشعب قبل أن يرسو الزورق على الرصيف. وهو بدوره رد مظاهر الحب هذه بسلام برأسه وبابتسامة خفيفة. ثم قفز إلى الرصيف بحركة رشيقة، وصافح الجميع. بدا جيراننا وكأنهم سيغمى عليهم من شدة الفرحة. كان سكان الجزيرة ببهجة وكأن طوله، الذي أعتقد أنه يقارب المترين، والذي يجعله ينظر إلى الجميع من الأعلى، دليل مسبق على المعجزات التي سيحققها في الجزيرة. وأخيراً ها قد أتى منقذنا، وَطِئَ الرجلُ طويل القامة ،الذي سينهي مشاكلنا، على رصيفنا البحري.

كان يريد الجميع استضافة الخبير في منزله، ولكن منح هذا الشرف للرقم ٩ الذي توجد في حديقته مرافق ملحقة أخرى.

اعتقدنا أن الخبير الذي وَطِئَتْ قدمه الجزيرة سيلقي كلمة مؤثرة كنا ننتظرها بحماس، ولكن للأسف فضل أن يبقى صامتاً، وذهب برفقة رجال الرئيس لزيارته بعد

انتهاء حفل المصافحة. إن حالته الصامتة هذه زادت من حجم الأسطورة، وزادت من قوة الأدلة حول كونه رجلاً مهماً. انظروا، لم يَقُل الرجل أي شيء ليمدح أو ليفرض نفسه، قد اكتفى بابتسامة صغيرة. كان قد أيقظ في داخلنا شعوراً بالتميز، وقدم لنا هدية بقدومه إلى جزيرتنا.

استمر الخبير بصمته هذا طيلة الأسبوع الذي بقي فيه في الجزيرة، ولكنه أفصح بعدة تعليمات رآها ضرورية. وأدى ذلك إلى ازدياد الاحترام المقدم له.

بالطبع لا نعرف ماذا كان قد تكلم مع الرئيس ولكن منذ ذلك اليوم بعد الظهيرة بدأت تمطر التعليمات. بات رجال الرئيس وكأنهم أصبحوا في إمرة الخبير. أخبرونا أننا لا نملك المزيد من الوقت، وتم إبلاغنا بأنه يجب علينا جميعاً أن نُنْشِئَ في ذلك الأسبوع عدداً من الأعمدة الطويلة في مناطق مختلفة من الجزيرة. كان عملاً يجب أن ينجز في وقته المحدد، لم يكن بالإمكان تحمل أي مضيعة الوقت.

لم تكن لدينا أدنى فكرة عن كيفية إنشاء هذه الأعمدة أو ماهي فوائدها، ولكن هذا الحال لم يعق قيام الجميع بعمل جنوني في صباح اليوم التالي. في النهاية كان الخبير ذو الصيت العالمي، الذي أخذ مبالغ كبيرة من المال، يقف على رأس التلة ويشير بأصابعه الطويلة إلى الأعمال الواجب تنفيذها دون أن يتكلم باستثناء عدة كلمات دمدمها داخل فمه.

بدأ سكان الجزيرة بقطع الأشجار من الغابة وهم يتصببون عرقاً ومن ثم تقليمها وحمل هذه الجذوع من هنا إلى هناك. هذه المرة كان أكبر معاونيهم هم رجال الرئيس. كانوا يصرون على إبراز مهاراتهم التي أظهروها عندما شذبوا أشجارنا الجميلة عند بداية قدومهم إلى الجزيرة، يعملون مع سكان الجزيرة كتفاً إلى كتف. لم يبقى أحد يتذكر الظلال المنعشة التي شكلتها الأغصان المتداخلة لتلك الأشجار التي كانت تغطي السماء.

حسناً ولكن ماذا كان سينفع هذا العمل المحموم، كل هذه الأشجار المقطوعة، الصفائح الخشبية الصغيرة الموضوعة فوقها، ونصب هذه الأعمدة بألف جهد وجهد؟ لماذا كان كل هذا العمل؟ بالأساس كادت أن تنسي رخاء السنين سكان الجزيرة

مصطلح العمل. فبدؤوا يوجهون مجموعة من الأسئلة باستياء وهم يتصببون عرقاً من أنوفهم مع دخولهم فجأةً بإيقاع عمل مميت. سادت هذ الحالة فجأةً على الجميع وبدؤوا يقولون: «ما الغاية من عملنا؟ ماذا سينفع كل هذا؟». ذهب أكثرنا جرأةً ووجه هذه الأسئلة للخبير الذي كان يشاهد الأعمال بأعين نصف مغمضة.

تصرف الخبير في البداية وكأنه لم يسمع الأسئلة أو بطريقة وكأنها لا تستحق الإجابة عنها، ولكنه عندما رأى ازدياد الحشد حول المتسائلين وتجمع جميع سكان الجزيرة تاركين أعمالهم، قال بطريقة نصف مفهومة: «اللقالق!». ثم أدار ظهره وابتعد. ولم يتجرأ أحد على إيقافه، أعتقد أن قامة الخبير الطويلة كانت لا تزال تمارس تأثيرها في الجميع.

سأل الجميع بعضهم: «ماذا قال؟»

«ماذا قال؟»

«أعتقد أنه قال اللقالق»

«حسناً وماذا يعني ذلك»

«اللقالق، النوارس، الأفاعي، الثعالب... ما هو الرابط الذي يمكن أن يكون بينها؟»

انجرَّ جيراننا وراء هذه اللعبة محاولين إيجاد حل الأحجية.

ثم استطاع أحدهم استيعاب القول: «اللقالق تصطاد الأفاعي!»

«وثم!»

«وثم ماذا يا أخي، إذا وجدت اللقالق في الجزيرة فلن يبقى أَفَاعٍ»

«إذن هل سيجلب الخبير لقالقَ إلى الجزيرة؟ كيف سيتمكن من ذلك؟»

«قد فهمنا موضوع اللقالق، ولكن لماذا ننصب هذه الأعمدة؟»

شاركت في تلك الأثناء لارا في الحديث قائلةً: «من أجل اللقالق، ألا تفهمون، ألا تقيم اللقالق أعشاشها على رؤوس الأعمدة، إنه يحضر أعشاشاً لهم».

«صحيح، لم نفكر بذلك أبداً. إذن كيف سيجلب اللقالق إلى هنا. هل سيرسل دعوة؟»

أنهى كاتب العدل الحديث بقوله: «حسناً أنا فهمت الموضوع! ألا يقولوا إنه يجب علينا أن ننصب جميع الأعمدة خلال أسبوع لينجز العمل في الوقت المحدد، هناك معنى لهذا. ألا تهاجر اللقالق كل عام في هذا الموسم إلى الجنوب؟»

«نعم تهاجر، إنها تمر من فوق الجزيرة».

«حسناً على ما يبدو أن الخبير سيجعل اللقالق تحط على جزيرتنا بتحضير الأعشاش لهم».

بناءً على هذه الإجابة رأينا لمعان وجوه الجميع باستثناء لارا. في النهاية كانت القضية قد حلت. ستأتي اللقالق إلى جزيرتنا، ستصطاد الأفاعي، وستخلصنا من هذه المصيبة. لم أقتنع كثيراً بأن اللقالق التي ستنظر من السماء إلى الأسفل سترى أعشاشاً مجهزةً من أجلها فتنزل إلى الأسف ولكن، كما اعتراضاتي السابقة، ارتأيت إلى جعل اعتقادي هذا أيضاً طي الكتمان. كما لا بد أن الخبير المخضرم يعرف المزيد.

انطلق سكان الجزيرة، الذين كشفوا السر، إلى العمل بشهية أكبر لتحضير أماكن للقالق. توضع الأعشاش المصنوعة من النباتات المتسلقة على القطع الخشبية الموضوعة على الأعمدة المنتصبة، وربما يكون بذلك حضر فندق اللقالق الوحيد في العالم. تبدو فكرة مجنونة عند سماعك لها ولكن لمَ لا، تصادفك أمور غريبة جداً في هذه الدنيا.

في ذلك المساء وعندما كنا نناقش إن كان سينجح أو لن ينجح هذا الموضوع، وإذ بالكاتب يظهر ويأتي فجأةً. استقبلناه بحماس دون أن نعلم لمن ندين بهذا الشرف العظيم. كانت لارا قد اشتاقت إليه كثيراً أيضاً، فقد جمعتهم علاقة جيدة، إذ كانوا متفقين في العديد من المواضيع، ولكن كان الكاتب وكأنه فتح جبهة علينا أيضاً، فلم يزرنا أو يسأل عنا. وعندما كنا نسأل عنه لم نكن نجده. المهم، الآن هو في حديقتنا، غمرنا بالسعادة بمجيئه.

قال: «إني بحاجة مساعدتكم يا شباب»

قلنا: «بالطبع، ماذا يمكننا أن نفعل؟»

«والآن انجر هؤلاء البلهاء خلف المخادع الذي يدعى الخبير. يقال إن أعمدة ستنصب، فتأتي اللقالق وتعشش... سيصابون مجدداً بخيبة أمل كبيرة».

قالت لارا: «وأنا أعتقد ذلك أيضاً، لم أسمع طيلة حياتي بمشروع سخيف كهذا. ولكن الجميع قد صدق لدرجة أنهم لن ينصتوا إلى أي تحذير».

قال الكاتب: «وليكن، فبكل الأحوال دعونا نقوم بتحذيراتنا، إن لم ينصتوا فلا ينصتوا، ولكن لاحقاً بعد مدة قصيرة سيظهر من كان محقاً».

شاركت بالحديث قائلاً: «ولكن لم يأخذوا عبرةً إلى حد الآن سواء من التحذيرات أم من كل ما أصابهم». رغم ذلك سألته ما الذي بوسعنا القيام به من أجله.

كان قد حضر بلاغاً، يريد منا أن ننسخه بخط اليد ومن ثم توزيعه على كل المنازل.

على رغم عدم إيماني بفائدة هذا العمل هُرعت إلى القلم والورق فوراً كيلا أخيب أمله، ولارا أيضاً بدأت تبرز مواهبها في الكتابة بخطها المتلألئ.

بدأ البلاغ بعبارة "جيراننا الأعزاء سكان الجزيرة"، إذ حاول أن يذكرهم بالأيام الماضية. يا ترى هل ما زال يوجد بيننا من يتذكر أيامنا الجميلة الماضية. أم إن الجميع قد فقدوا ذاكرتهم بالكامل؟ تلك الأيام التي لا يتدخل أحد بشؤون أحد، وأجواء الصداقة تعم المكان، نستمع لأصدقائنا الذين يعزفون ألحان الفلوت والقيثارة بأنغام مختلطة بأصوات الطبيعة، شربنا للنبيذ الأبيض مع السمك الذي يحضره البقال تحت العريشة في بعض الليالي. المرحلة الهنيئة التي لم يكن لدينا فيها أية مشاكل مع النوارس. هل هناك من يتذكر ذلك يا ترى؟ وحده الأعمى لا يرى تخلخل التوازن في الجزيرة مع مجيء الرئيس.

كان يقول في الأسطر اللاحقة: "لم أكن أريد القول إني كنت محقاً ولكن كي تنصتوا إلى كلامي لاحقاً أريد التأكيد على صحة كلامي مرة أخرى. إن استمر إنصاتكم لهذا الرجل المجنون، سيكون من المحتم مواجهة كوارث جديدة. سترون أن موضوع الخبير أيضاً سينتهي بخيبة أمل. ربما ستنصفونني ذلك اليوم وستعون

مدى أهمية توحدنا ضد الشخص الذي يسمى الرئيس، وكم من المهم أن نطرده من هذه الجزيرة".

ينتهي البلاغ بالكلمات الواثقة التالية: "إنني أرى مبادرتي هذه فرصة، وامتحان من أجلي. أنا مستعد لأن أسحب كلامي، وأن أركع أمام الرئيس إن كان محقاً عند نجاح الخبير في هذا العمل خلال الأيام المقبلة. ولكن إن كنت محقاً، فأرجوكم دعونا نستعيد وعينا ونطرد هذا الرجل من جزيرتنا كي نمنع أعماله الجنونية الجديدة".

نسخنا عدد كبير من هذا البلاغ بخط أيدينا، ثم أخذنا ثلاثتنا رزمة من الورق لكل منا ووزعناها على المنازل. باستثناء منزل الرئيس بطبيعة الحال. لأنه من غير المنطق أن نذهب إلى أولئك الرجال المسلحين، وأن نعطيهم هذا البلاغ. رغم ذلك كنا واثقين من أن هذا البلغ سيقع في يد الرئيس. في النهاية سيوصلها فوراً من يشبه الرقم ١.

واحد من الأحداث الغريبة في تلك الأيام هو دموع ابن البقال التي أدمت داخلي. عندما جاء الصبي إلى القن في أحد الأيام، فيصدم برؤية وقوع الدجاجات ضحايا مجزرة جماعية. حفرت الثعالب حفرة تحت أسلاك المدجنة ولم يتركوا شيئاً على قيد الحياة. ولعدم قدرة الثعالب على أخذهم جميعاً، كانت الأوساط ملأى بالدجاجات الميتة خنقاً. لم تعرف دموع الصبي الجفاف لعدة أيام.

انتهت أعمال الرفع والتحميل بعد أسبوع، وتم نصب العديد من الأعمدة في الضفة الشمالية من الجزيرة. لم يبقَ هناك عمل سوى انتظار مجيء اللقالق.

مرَّ أسبوع بالتمام على مجيء الخبير إلى الجزيرة. لاحظ عدد من الجيران، ممن كانوا ينتظرون سفينة الركاب، بعض الطيور البعيدة التي من المحتمل أن تكون لقالق. اجتمعنا جميعاً في الضفة الشمالية بناءً على هذا الخبر. هُرعنا نتساءل إن كانت الطيور المقتربة لقالق أم لا. ولكن أشر الخبير لنا إلى أن نكون صامتين بوضع سبابته بارزة العظام على شفتيه. وبناءً على ذلك انغمرنا في صمت عميق.

مع اقتراب الطيور علمنا أنها كانت أسراب لقالق بالفعل. عندما غدت أجنحتها الواسعة وأجسامها النحيلة قابلة للتمييز، وصل الحماس في الجزيرة إلى أقصى درجاته.

اقتربت اللقالق، واقتربت وحطت على الجزيرة النائية التي تقع أمامنا. كانت الجزيرة قريبة لدرجة أننا كنا نستطيع تمييز التعب البادي على أجنحتها.

نظر بعضنا إلى بعضٍ باستغراب. يا ترى لماذا لم تحط على الأعشاش التي حضرت مت أجلها؟ هل سيأتون إلى هنا بعد الاستراحة لمدة من الزمن في الجزيرة الأخرى؟ بدأت الهمسات بيننا. كان الجميع يهمس بأذن الآخر أنه ربما لم يأتوا لرؤيتهم للحشود المجتمعة. فلذلك تفرقنا بصمت. ذهبنا إلى تلة شجر الصنوبر، وبدأنا مشاهدة ما يجري من هناك.

كانت اللقالق تسير في الجزيرة الأخرى وتشرب الماء، وبعضها تحك أسفل أجنحتها بمناقيرها. ثم رأيناها تحلق مجدداً. ارتفعت نحو السماء، ووصلت إلى فوق جزيرتنا تماماً. كنا نرفع رؤوسنا نراقب كل حركة من حركاتها. دارت اللقالق عدة دورات حول الجزيرة، وكانت رؤوسنا تدور معهم. كنا قد حبسنا أنفاسنا. أعناقنا كانت على وشك أن تتيبس إلى أن تعرضنا لخيبة أمل رؤية اللقالق تكمل طريقها نحو الجنوب. طارت وابتعدت بشكل سرب جماعي. ننظر إليها بقلوبنا المحطمة. راقبناها حتى اختفت عن الأنظار في أفق الجنوب. لم يبق لدينا أي أمل. بتنا في حالة لم نستطيع النظر إلى وجوه بعضنا بعضاً منغمرين بخزي عميق.

في تلك الأثناء سأل أحدهم عن مكان الخبير. بناءً عليه عادت حيوية الجميع، استعر بداخلهم تعطش حارق لإيجاد الخبير ومحاسبته ولكن لم يكن الخبير موجوداً في الأنحاء. هُرعنا نبحث عن ذلك الرجل الطويل في كل زاوية، حتى وصلنا إلى الرصيف البحري.

كانت السفينة قد أبحرت مغادرةً، لم نتذكر السفينة ولا أي شيء آخر عندما كنا نراقب اللقالق.

أخبرنا البقال بالخبر المحزن. عندما كنا نحدق إلى السماء بلا وعي، ركب الخبير الزورق، وذهب إلى السفينة التي كنا قد رأيناها تبحر بعيداً عن الجزيرة. تجمد الدم في عروقنا عندما رد البقال على الذين عنفوه رداً منطقياً قائلاً: «ما أدراني أنكم أردتم إيقاف الرجل».

ربما كان الخبير على سطح السفينة يحصي نقوده من جهة، ومن جهة أخرى يفكر بالناس الذين سينتظرون المعجزات التي سيظهرها في الموقف التالي. بالمختصر المفيد، لقد سمحنا له بالإفلات من يدنا. كنا سنظل نعيش في جزيرتنا الملعونة مع الأفاعي المبرقشة.

كان أغلبنا يشعر بألم جسمه من شدة الإحباط. لم تفتح السكاكين فم أحد في الأيام التي تلت هذه الأحداث. توجه كل شخص إلى زاوية وتجهم. بعد عدة أيام عندما عادت النقاشات كان هناك موضوع واحد:

« أساساً قد كنت متأكداً أن هذا الرجل لن يتمكن من فعل شيء!»

«ما دمت تعرف لماذا لم تحكِ؟»

«ما أدراني، لدى الرجل هذا قامة».

«إن كانت القضية بالقامة، فللجمل قامة أيضاً!»

«نعم صحيح! كنت أقول ذلك أيضاً. الجمل كبير يأكل العشب، الشاهين صغير يأكل اللحم!»

«يا لنا من ساذجين يا رفيقي! كيف صدقنا الرجل!»

«لا تقل ذلك... ماذا كنا سنفعل إن لم نصدق».

«معك حق، من كنا سنصدق غيره؟»

«صحيح، فلم يكن هناك من يخلصنا، ويرشدنا إلى طريق الصواب!»

«ماذا بوسع الرئيس أن يفعل؟ إن الرجل مشغول بعدة مشاكل».

«لم يفوت الفرصة أولئك الذين يريدون انتقاده في الأيام التي نحن بأمس الحاجة فيها للوحدة والتكافل».

«لا لا، إن الرئيس أيضاً لا يدري ما يقوله ولا يعلم ما سيفعله. لا يمكن الوثوق به أيضاً».

«ولكن لا أحد غيره إطلاقاً يسعى لعمل شيء ما».

إن هذه النقاشات التي كنت شاهداً على سماعها، تظهر لي أن جميع محاولاتي في سبيل فهم الإنسان كانت فارغة.

- ١٩ -

عند التفكير بما جرى بعد كل هذه المدة وبعد كل هذه الأحداث المخيفة، لا أستطيع تصديق أني تحدثت معك حول الأدب فقط في آخر ليلة لك على الجزيرة. ولكن بالطبع لم يكن بإمكاننا أن نعرف أن تلك الليلة هي آخر ليلة لك على الجزيرة. كنا نؤمن بأنه سيكون أمامنا المزيد من الأيام والليالي كهذه.

قلت لي في تلك الليلة أكثر أقوالك الأساسية التي يجب أن أعرفها بما يخص فن الإلقاء، قلت: «دع النفسية، الشخصية، والعلاقات البشرية، تخرج من الأعمال. لا تقم بوصف الحالات البشرية بأوصاف جميلة عن طريق تجميل الكلمات أو تفخيمها. قم بوصف العمل، وليكمل القارئ ما تبقى في عقله. أرسطو أيضاً قال ذلك».

تبعاً لقولي لك: «أعطني مثالاً»، قلت لي هذا القول المأثور الخالد من إحدى الحكايا الشعبية:

«كان في سالف العصور والأزمان شاب وقع في حب ابنة حكيم يداوي أسنان الناس. كان الشاب يذهب إلى هناك فقط لكي يرى الفتاة، فقلع اثنتين وثلاثين سناً سليماً وهو ينظر إلى وجه محبوبته. والآن أي مصطلحات حب يمكن إضافتها بناءً على هذا العمل. تبقى ضعيفة».

وبينما كنا نناقش هذه الأمور، كان الرئيس يجهز مع رجاله الضربة الأخيرة التي سيوجهها إليك. أساساً لم نشعر بأن قرش البحر كان مجبراً في تلك الليلة على فعل شيء. لأنه كان قد وقع في موقف سيِّئ بعد فشل موضوع اللقالق وهروب الخبير من الجزيرة. كان سلطانه في الجزيرة يتزعزع، ويعاني صعوبة إقناع الناس الذين كانوا مجبرين على العيش بالأكاذيب. لم يكن هناك شك في تخطيطه لعمل جديد ولكن كيف يمكنه إقناعهم به يا ترى؟

أمضيت تلك الليلة باضطراب شديد. يبدو أنَّ ما يدعى بالهاجس الداخلي شيء صحيح. يمكن للإنسان أن يشعر مسبقاً ببعض الأشياء السيئة التي ستحصل. سألتني لارا: «ما بك؟» عندما كنت أتقلب في الفراش باضطراب. رغم قولي: «لا شيء»، إلا أنها أصرت بسؤالها فهي تعرفني جيداً. تحدثت عن الاضطراب الذي في داخلي. كان قلبي ينقبض كعصفور صغير. وعليه أخبرتني لارا أنها تعاني نفس الحالة أيضاً. فإذا بنا كلينا نتخبط بالهواجس المظلمة التي لم يحكها بعضنا لبعضٍ.

قمنا وجلسنا في الحديقة غير آبهين لمخاوفنا تجاه الأفاعي. حاولنا أن نهدئ من روعنا ولكن دون جدوى، فلم ينفعنا شيء، ولم نستطع تهدئة ارتباكنا. في المناسبة، كانت شجرات الياسمين مستمرة في إطلاق عطورها بفترات منتظمة. ولكن لم يبق لدينا القدرة على أن نروح عن أنفسنا بأريجها. كان يجب علينا أن نخطط لمستقبلنا. ذلك المستقبل المخيف الغامض.

في صباح اليوم التالي، أعلمنا بلاغ كان قد وزع على منازلنا بوجوب الاجتماع مساءً تحت العريشة. عندما أخذنا الورقة أدركنا أن هواجسنا الليلية لم تكن آتية من فراغ. ولكن لم يكن بالإمكان توقع الأحداث التي سأقصها الآن.

دخل الرئيس في الموضوع بتوضيحه لنا عن كمية الحزن العميق الذي يشعر به تجاه احتيال الخبير علينا جميعاً. لا يمكن الوثوق بأحد أبداً في هذا الزمن، كانت الأخلاق قد تدهورت للغاية. ها قد رأينا بأعيننا. حتى الخبير الذي اقترح عليه كان نصاباً وقد هرب من الجزيرة دون أن يجد حلاً لمشكلة الأفاعي. أبدى استعداده لتعويض أضرار سكان الجزيرة من جيبه، كذا وكذا. كنا نستمع إلى هذه الكلمات دون تصديقنا لها بمقدار ذرة.

ثم أعلن الرئيس عن خططته الجديدة. لأن قضية الأفاعي لم تحل، كنا سنلجأ إلى الحل الوحيد المتبقي بتقليل أعداد الثعالب في الجزيرة. في البداية كانت الثعالب مفيدة للجزيرة مقدمة خدمات كبيرة، ومع مرور الزمن باتت مسببة للأضرار بدلاً من الفائدة لتكاثرها الزائد. إن إنقاص عدد الثعالب سيزيد من أعداد النوارس ولو قليلاً ومن ثمّ يمكنه أن يعيد التوازن إلى الجزيرة، فيساعد في حل موضوع الأفاعي.

ضغطت على يد لارا في هذه اللحظة من الكلمة. إذن ستظهر الأسلحة مرة أخرى، وسيتحول سكان الجزيرة إلى صيادين ينظمون صيد الثعالب بتجهيزاتهم الكاملة بعد أن كانوا مسالمين في الماضي.

قال الرئيس بعد أن أصدر تعليماته بالتقاء الجميع في صباح اليوم التالي مع أسلحتهم على الرصيف البحري: «لننتقل الآن إلى قضية أخرى. يا رفاق، أنتم تذكرون أني فضلت هذه الجزيرة البعيدة بسبب أمانها، وأني أردت العيش بعيداً عن الإرهابيين بعد عشرات السنين التي قضيتها في خدمة بلدي».

هز عدد من الأشخاص رؤوسهم بمعنى الموافقة. نحن أصغينا جيداً، يا ترى إلى أين يريد أن يصل بالحديث الآن.

«ولكن للأسف يا رفاق، لم أتمكن من ذلك. ظهر أمامي هنا أيضاً ألد أعداء البلد والنظام».

نظر بعضنا في بعضٍ، يا ترى ماذا كان يقصد، ما نوع البلاء الذي يقبع تحت كلماته تلك؟

في هذه اللحظة تماماً سمعت لارا تهمهم قائلةً: «لا يمكن!» وفتلت رأسي بالاتجاه الذي تنظر إليه. كان هناك اثنان من رجال الرئيس يأتون بالكاتب إلى تحت العريشة، وكانت الأغلال قد ضربت على يديه. قفزت من مكاني فوراً، أردت التوجه إلى هناك ولكن قال الرئيس: «اجلسوا في مكانكم، اسمعوا ما سأقوله، وبعدها افعلوا ما تشاؤون».

«يا رفاق، هل تذكرون الصور الجماعية التي التقطناها في الرصيف البحري في الأيام التي أتيت بها إلى جزيرتكم؟ تلك الصور تم تحميلها على الحواسيب في العاصمة، تم التقصي، ومن ثَمّ انكشف السر المذهل للصديق الكاتب المزعوم. هذا الشخص، محكوم سياسي وقد فر من السجن العسكري، إنه عدو للنظام، لجأ إلى جزيرتكم بعد أن قام بتغيير اسمه، لقد غشكم جميعاً».

التفت الجميع إلى الكاتب بناءً على هذه الأقوال، ونظروا إلى وجه الكاتب ولكنه نظر إلى الرئيس بضغينة دون أن يتفوه بأي كلمة.

سأل الرئيس بصيغة ساخرة: «أليس كذلك أيها الكاتب المحترم؟ هل أستمر بشرح ما لديكم من مواهب أخرى، أم هذا كاف؟ هل ستقولون أنتم إن زوجتكم كانت مخربة مثلكم وقد انتحرت في السجن أم أقولها أنا؟»

شعرت في تلك اللحظة بألم عظيم في صدري، من الواضح أن كلام الرئيس كان صحيحاً. هذا هو السر الذي كان يرسم عبارات الحزن في عينيّ الكاتب. حتى أنا الذي لم أكن على دراية بهذه الأمور، كنت أعرف أن الانتحار في السجن محط جدل. كنت أسمع أنه يتم الإعلان عن انتحار المعارضين في السجن بعد قتلهم على الرغم من عدم إدانتهم وعدم إيجاد دليل جرم ضدهم حتى في ظل تلك القوانين القمعية. بالطبع كان هناك من ينتحر فعلاً. فذلك خير من العيش في تلك الظروف...

رأيت لارا تجهش بالبكاء.

صرح الرئيس أنه سيتم احتجاز الكاتب هذه الليلة، وسيتم إرساله في صباح اليوم التالي بالزورق لتسليمه إلى العدالة.

كانت صدمة كبيرة جعلتني ولارا كالمخدرين، لم نكن قادرين على الحركة. ماذا يمكن أن يفعل المرء في مثل هذه الحالة يا ترى؟

كما في مرة كان قرش البحر الرئيس يقول بشفتيه الناعمتين والظالمتين أشياء مخيفة بطبعه الوقح والواثق إلى أبعد الدرجات. ادعى أن الكاتب كان سبباً في كل الفشل في جزيرتنا، وقال عطفاً على تجربته في الدولة إن الحالة المعنوية للمجتمع مهمة جداً، وإن خونة الوطن كانوا يستهدفون في الغالب هذه المعنويات.

في النهاية استطعنا أنا ولارا أن نستجمع قوانا ووقفنا.

قلت: «لا نصدق ما تقولونه». قلت بشجاعة تفاجأت بها أنا أيضاً: «إن صديقنا يمثل الخير في هذه الجزيرة، أما الظلم فتمثلونه أنتم. يمكن للجميع هنا أن يشهد بذلك. أنتم وليس هو من قاد الجزيرة إلى هذا الوضع. كان في هذه الجزيرة حتى مجيئكم أنتم...»

شعرت بألم خلف رأسي في هذه اللحظة تماماً، أغلقت عيني، وارتفعت حرارة بداخلي. لا أذكر شيئاً بعد. عندما فتحت عيوني كان رأسي يؤلمني بشكل كبير، كنت في

غرفة أجهلها، كان مكاناً بلا شبابيك أشبه بالمخزن. عندما حاولت فتح الباب جاهداً تيقنتُ أنه كان مغلقاً، لم يكن ليفتح.

حسب ما قيل لي لاحقاً إن رجال الرئيس ضربوني من الخلف بقبضة المسدس، وأخذوني جراً بعد أن أغمي علي، وحجزوني في مخزن منزل الرئيس. لم يضربوا لارا، ولكنهم أبقوها هي أيضاً تحت المراقبة في مكان ما.

عندما أخلوا سبيلنا في صباح اليوم التالي لم يعد الكاتب موجوداً. كانت الزوارق في الرصيف قد أخذته، لم تردنا الأخبار عنه بعدها.

نعم، لم نتلق الأخبار عنك بعدها. كما يمكنك التوقع أنه قيل الكثير من الإشاعات من خلفك. بدأ الجيران، الذين اتهموني بالخيانة واتهموا لارا أنها ضعيفة، يتكلمون بحقك بالسوء. أساساً باتوا يقولون بثقة كبيرة إنك مخرب، وإن كل شيء في الجزيرة قد آل إلى الأسوأ بسببك. أي إنك كنت المسؤول عن كل شيء حصل يا صديقي العزيز. لأن أحداً لم يصدقنا، تم وضعنا في صفوف "غير الموثوقين" بصفتنا أصدقاء "المجرم". قلة من الناس كان تتواصل معنا.

كنا نتحمل كل ذلك صابرين، صبرنا ولكن في أحد الأيام انتهى هذا الصبر ولكمت أحدهم في وجهه. نعم نعم أنا لكمت أحدهم. أنا أعلم مدى استغرابك إن قرأت هذه السطور، كيف لشخص مثلي أنا يقوم بشيء كهذا؟ إذ بالرجل يقول إنه بعدما أبحر الزورق بعيداً، تم ربط قطعة حديد ثقيلة بقدميك ورموك في البحر. ولا سيّما أنه قال ذلك دون أيّ شعور بالحزن، وكأنه يحكي عن حدث صحيح. إذ إن أحد رجال الرئيس قد حكى ذلك، ومنه انتشر النبأ من لسان إلى لسان.

لم نصدق ذلك أبداً. إن التخيل بأنك نائم في أحد سجون البلاد خير من التفكير بأنك ميت. ربما نحن أيضاً سنركب هذه السفينة البيضاء في أحد الأيام وسنتخلص من هذه الجزيرة المخيفة، ربما سنراك مرة أخرى، وأن نتحدث معك مرة أخرى، وحتى ربما أنك ستصب بجام غضبك عليَّ بسبب كتاباتي هذه.

آه يا صديقي العزيز، أين أنت، فعلاً أين أنت؟

ظهرت أقاويل كثيرة في هذه المدة القصيرة، إذ بدأ يتحول ما نسمعه إلى حكاية. يُقالُ إنك استطعت الإفلات من أيدي رجال الرئيس والهروب عندما أخذوك بالزورق. لم يكن ذلك مقنعاً. كيف تمكنت من الهرب في وسط البحر ويداك مقيدة وأولئك الرجال العمالقة فوق رأسك.

ولكن في المقابل كنا نتساءل لماذا كانت تنتشر أخبار كهذه فجأة بلا سبب. ربما كان خبر هربك صحيحاً، أي هناك خطأ في تفاصيل ما يقال فقط. ربما هربت بعدما صعدت اليابسة وليس ضمن الرحلة البحرية.

أقفل رجال الرئيس منزلك ومنعوا الدخول إلى هناك. كانوا قد تأخروا قليلاً. عندما ذهبت لارا إلى منزلك كانت قد عادت مع دفتر لتحتفظ بذكرى منك، دفتر كتبت فيه ذكرياتك. صراحةً تفاجأت، لم أرَكَ تكتب شيئاً أبداً.

كان دفتراً مبهماً بعض الشيء. على ما يبدو كان بخصوص الكتاب الذي ستكتبه، كان بداخله مقطع لا يعنينا كثيراً. ولكن ملاحظاتك اليومية لفتت انتباهنا كثيراً. أي إن المواضيع التي كنا نناقشها، كنت تستمر بالتفكير بها حتى بعد عودتك إلى المنزل. إذ سجلت الملاحظات حول التطورات التي ناقشناها وعشناها.

قرأت بألم داخلي عميق السطور الشاهدة على حياتك المرة وأفكارك المستنيرة. لم أذكر إرادتك بالحياة كشخص منقذ وجد نفسه مضطرّاً لقول الحقيقة، وأن يقوم بالتحذير، وكمجازف تحمل كل شيء وَحْدَهُ، بل ذكرتها بامتنان كشخص فضل أن يأخذ مكانه في حركة شريفة وجميلة ككتاب. أقسمت على نشر هذا الكتاب في أحد الأيام، وأن أوصله إلى الناس.

إن أردت تلخيص ما أصابنا بعد ذهابك، حصلت أشياء سيئة أيضاً. ضجت الجزيرة بأصوات الأسلحة. كانوا الصيادون يتجولون مساء كل يوم وبأيديهم الثعالب الميتة وكأنه إنجاز يتباهون به في الأنحاء. كانوا يعلقون صغار الثعالب في أحزمتهم. ولكن كانت الثعالب قد تكاثرت، لم يستطيعوا القضاء عليها باصطيادها. كما أنه من غير الممكن تمشيط كل صخرة وأسفل كل شجيرة في الغابة.

بعد أن قام أحد الصيادين بإصابة صديقه بقدمه عن طريق الخطأ، قرر قرش البحر الرئيس ورجاله التكاتف مع سكان الجزيرة، الذي قد حولهم إلى وحوش، لإيجاد طريقة أخرى بعد أن قرر أن هذا الموضوع قد خرج عن السيطرة.

جلبوا السيانيد (ملح الحمض الأزرق) إلى الجزيرة. أرادوا تلطيخ اللحوم بهذا السم المخيف ومن ثمّ وضعه في الغابة، وبهذه الطريقة سيقضون على الثعالب. فعلوا ذلك وكانت النتيجة مخيفة. هذه المرة لم تكن الثعالب فقط، بل تسمم بالسيانيد كل مخلوق حي أكل من هذه اللحوم. تحولت الجزيرة إلى معسكر موت.

كانت الجزيرة تعج بجثث الثعالب، والأرانب، والحجل، والسلاحف، وعصافير الدوري، والضفادع، وابن عرس، وبنات آوى. كان الصيادون يجمعون كل يوم عشرات الثعالب الميتة ويكدسونها في ساحة الرصيف البحري. لم تكفِهم كل هذه الأرواح المزهقة. وكأنهم باتوا يتنفسون الموت، يطلبون المدد من الموت، ويتحدثون بالموت فقط. دخل الرجال في هستيريا وكأن اليوم الذي يقضونه دون رؤية الدماء لا يعدّ يوماً. هل كان هؤلاء الرجال هم نفسهم سكان جزيرتنا ضاحكي الوجه الهادئين اللطفاء في أحد الأيام أم إننا بدأنا نفقد عقلنا شيئاً فشيئاً؟

في أحد الأيام عندما كنت متجهاً نحو أشجار الصنوبر رأيت ثعلب مسمماً يتخبط. لقد تناول اللحم المسمم على ما يبدو. كان يرمي نفسه إلى هنا وهناك. لا أعتقد أني شهدت في حياتي شيئاً غير محتمل كهذا. كان الحيوان المسكين يتخبط كأنه يتقطع من الداخل، وكان ذيله العريض يلتف حوله دون توقف. ظهرت على وجهه ملامح ألم لا يمكن أن أشرحها لك. كأن جلدة وجهه قد سحبت منه، وكان فمه المنقبض الذي لم يستطع إغلاقه، يظهر أسنانه على الملء. كدتُ أطلق النار عليه فورا لو امتلكتُ سلاحاً بيدي كي أنهي آلامه. جرى موته ببطء ومرارة. ولم أتمكن من التخلص من آثار هذا المشهد حتى مضت عدة أيام.

أصاب المرض بعض الجيران أيضاً. قال الطبيب أنهم تأثروا بالسم. رأينا وجه الرئيس يصفر ويبهت لونه. ادعى البعض أن الحيوانات المسممة قد ذهبت وماتت في

مصادر المياه، ومن ثمّ قد سممت مياه النبع في الجزيرة. أي إننا بتنا جميعاً نشرب مياهاً ملوثة بالسيانيد.

في المناسبة، يحكى أنك قد عدت إلى الجزيرة واختبأت في الغابة لتقوم بنشاطات سرية لتسميم الرئيس ورجاله ومؤيديه. ساورهم الشك بوجود بعض الأشخاص الذين يساندونك في هذا العمل. بدأ موقف سكان الجزيرة منا يزداد غرابةً.

كنت أنا ولارا كالمرضى. حان وقت هروبنا من الجزيرة وقد تأخر أصلاً. انتظرنا السفينة المقبلة. كنا سنحزم أمتعتنا وأغراضنا، ونرحل من جزيرة الجحيم هذه. كنت أتخبط ليلاً بآلاف الأسئلة التي لم أجد لها جواباً. أخرج وأفكر لساعات طويلة راغباً في رمي نفسي من هنا إلى هناك لكيلا أزعج لارا في السرير. ثم ألاحظ فجأةً أنها هي الأخرى لم تنمْ، كانت تتدحرج في سرداب أفكارها المظلمة محاولةً عدم إظهار لي ذلك.

كنت أهمس لها: «هل أنت مستيقظة؟ هل أنت مستيقظة يا حبيبتي؟» ثم أنهض وأخرج إلى الحديقة. كنا نتكلم حتى بزوغ الضوء حول وجهتنا، في أي بلدة سنسكن، بماذا سنعمل، كيف سنجني المال. كانت تقول لارا إن بإمكانها إيجاد عمل كنادلة، أو بإمكانها أن تنظف المنازل. لم يكن ضميري ليقبل بذلك. كانت تخيفني فكرة العودة إلى العالم المتوحش، الظالم، والمخيف بعد عشرات من سنين الراحة التي مضت في الجزيرة. ولكن لارا كانت محقة، لم يعد بإمكاننا العيش في تلك الجزيرة المتوحشة. يا للأسف لجنتنا السرية.

ألف وأدور وأفكر بنفس الأشياء وأسأل نفس الأسئلة نفسها. لماذا لم يبق لنا أي صديق؟ لماذا تغيرت الناس، الذين عشنا لسنين معهم مثل الأخوة، شاركناهم صباحنا ومساءنا، وكنا نقول عنهم في إحدى الفترات إنهم ملائكة؟ هذه المخلوقات لم تكن من سكان جزيرتنا. قد توضعت في أعينهم نظرات ممزوجة بالغضب والشك. لم يعودوا يخبروننا بالقرارات التي يتخذونها.

بعد رؤيتهم قتل السيانيد لباقي المخلوقات، أعتقد أنهم تخلوا عن هذه الممارسة. لأنه بحسب ما وصل إلى مسامعي من الأوساط أن الرئيس كان بصدد فكرة جديدة.

كان من الصعب اصطياد الثعالب لسهولة اختبائها في الأماكن النائية من الغابة. كانت ستضرم حرائق محكمة في الغابة لإجبارهم على الخروج. فيقضي الصيادون على الثعالب التي تخرج من الغابة هاربة من الحريق.

تم تطبيق هذه الخطة لأنه لا أحد يعارض الرئيس. جرى إضرام حريق في إحدى ضفاف الجزيرة التي يمكن رؤية لهيبها وأدخنتها من بعيد. مع تقدم الحريق، كانت الثعالب وباقي الكائنات الحية تخرج من الغابة، هاربة مثل البرق. واجه الصيادون صعوبة في إصابة الحيوانات التي تتحرك بسرعة هكذا. رغم ذلك فتحوا النار بلا هوادة، أخذوا يرمون الطلقة عقب الطلقة. كانت لارا في المنزل تغلق أذنيها بأيديها مرتجفة، وتقول أشياء لا أفهمها. أعتقد أن نوبة عصبية قد أصابتها.

توجه كل حقد سكان الجزيرة نحو الثعالب. كانوا على وشك نسيان النوارس. أضحى الخوف والحقد عند سكان الجزيرة جلياً على وجه الخصوص بعد قول الطبيب إن الثعالب هي أكثر الحيوانات في العالم نشراً لداء الكلب. بحسب قوله إن القطط والكلاب التي تعضها الثعالب تصاب بداء الكلب. والتي تصيب الناس بهذا الداء المخيف. عندما كنت أشاهد ما يجري، خطر ببالي تساؤل إن انتشر داء الكلب في الجزيرة منذ الآن أم لا. كان أصدقاؤنا من سكان الجزيرة يطلقون النار بنشوة الحقد والحماس، إذ اعتقدت أنهم وحدهم المصابون بداء الكلب يطلقون النار هكذا.

في المناسبة، شعرنا برائحة سخام في أنوفنا، وكأن حطباً يحرق في مكان قريب جداً. دون أن يمر الكثير من الوقت حتى رأينا الدخان يملأ الحديقة. كان يقول بعض الأشخاص: «حريق، حريق، اهربوا!» بعد مدة قليلة بدأت لهيب النيران المقتربة منا تلفح وجوهنا.

صديقي العزيز، قد شغل سكان الجزيرة أنفسهم في إطلاق النار والقتل، ولم يلاحظ أحد الرياح التي هبت كنسيم البحر، وبدأت تزداد قوة. أو بالأحرى، عندما لاحظوها كان الوقت قد تأخر كثيراً، وكانت النيران قد غطت كل مكان في الجزيرة بفعل الرياح القوية.

كانت الغابة الضخمة تحترق وكأنها تبكي، تصرخ، وتنفجر. عندما كانت الحيوانات التي تمكنت من النجاة، ترمي نفسها خارج الغابة بجنون، في حين كان قسم آخر منها يتفحم بألسنة النيران.

حاول رجال الرئيس ومن انجر خلفهم من سكان الجزيرة إخماد الحريق دون أمل، ولكن بات جميعنا يعرف أن ذلك مستحيل.

بعد أن احترقت أشجار لوز الصنوبر مفرقعةً، قفزت الحرائق إلى الأشجار في كلا طرفي الطريق المؤدي إلى الرصيف البحري، ومن هناك إلى المنازل. لو قالوا إن حريقاً يمكن أن ينتشر بهذه السرعة لما كنت لأصدق، ولكن للأسف هذا ما حصل. احترقت جميع المنازل برمشة عين واحدة. أساساً احترقت بسرعة لأنها مصنوعة من الخشب. هربنا بعيداً عن المنازل باتجاه شاطئ البحر لننجو من النيران الحارقة والأدخنة الخانقة. عندما نظرنا من هناك، رأينا الأشجار الضخمة، التي كانت باتجاه امتداد الحريق، تحترق وتفرقع بكل معنى للكلمة مثل أعواد الكبريت يقدح الواحد تلو الأخر.

شاهد سكان الجزيرة بأعين ملأى بالخوف تدمير منازلهم الواحد تلوى الآخر، فاقدين صوابهم من مشاعر الدهشة التي وقعوا بها. لم يكن بالإمكان فعل شيء على الإطلاق.

- ٢٠ -

كانت النوارس تطير فوقنا وكأنها تسخر منا، تشاهد هذه الجزيرة المحترقة المدمرة المسودة والناس الذين لم يعد لديهم مأوى. لو هاجموا في تلك اللحظة، لم يكن بإمكاننا بأي شكل من الأشكال إيقافهم ولكنهم لم يقوموا بأي هجوم. اكتفوا بالطيران فوقنا فقط. لم يتأثر شاطئهم أبداً. بات بوسعهم التكاثر، والاصطياد، وانتظار بيوضهم بأمان كما في السابق. باختصار، كسبت النوارس هذه الحرب.

أما نحن الخاسرين، فكنّا ننام في العراء، نأكل الأسماك التي نصطادها بواسطة القارب الذي نجا من الحريق، منتظرين قدوم مساعدة.

مقصدي بالمساعدة، مجيء سفينة ركاب لتأخذنا ونرحل من هنا. لأننا لم نعد نود العيش هنا.

في اليوم التالي من الحريق تجمعنا على السفح لنتمكن من مشاهدة كامل الفاجعة. فقد كانت التلة الأكثر إطلالةً على الجزيرة. تلك التلة التي أطلق عليها الابن الأحدب للبقال صغار النوارس. رأينا بحرقة قلب مع جيراننا، الذين اغرورقت أعينهم بالدمع، حجم الفاجعة. كانت تتصاعد الأدخنة السوداء من كل مطرح في الجزيرة. طغت رائحة حريق مخيفة على الأجواء. قد احترق كل مكان بما فيها المقبرة التي كنا ندفن فيها أمواتنا.

أصابني توتر كبير عند الحديث عن موت الكاتب الذي كان مختبئاً في الغابة أثناء الحريق رغم عدم تصديقي للأمر. لأن أقوالاً كهذه تدل على فناء آمالنا نهائياً.

كان الذين يعارضون أقوال موت الكاتب محترقاً في الغابة، يذكرون بربط الحديد في أقدامه ورميه في البحر. أنا لم أكن أصدق كلا القولين ولكن لم أكن أعرف ماذا سأصدق.

رأينا بعد مدة قدوم الرئيس ورجاله إلينا. رمقونا في البداية بنظرات سوداوية ومشبوهة. لاحقاً ألقى الرئيس كلمة وصرح بأنه سيغادر الجزيرة بعد قليل، ولن يأتي

إلى هنا مرة أخرى. كان قد أعطى كل التعليمات، ليرتاح الجميع، قد أبحرت السفينة التي ستقلنا.

لفت انتباهي عدم تحدثه أبداً عن الفاجعة التي تسبب بها وعدم شعوره بالذنب. تحدث وكأنه غريب لا علاقة له بكل ما حصل. على ما يبدو كان ينتظر منا أن نشكره بسبب اتخاذه إجراءات نجاتنا من الجزيرة.

سمعت لارا تتحدث في هذه الأثناء.

«هل ستذهبون الآن يا سيدي الرئيس؟»

«نعم، بعد قليل.»

«ولكن للأسف إنكم تغادرون الجزيرة وأنتم منهزمون!»

«ماذا تقصدين بالمنهزمين؟»

«نعم يا سيادة الرئيس، ما قلته واضح جداً، هزمتم.»

سأل الرئيس بنبرة صوت غاضبة: «من هزمني أيتها السيدة الصغيرة؟»

أجابت لارا قائلةً: «النوارس! ارفعوا رأسكم وانظروا، إنها تطير في السماء ساخرةً منكم، وكأنها تطردكم من هذه الجزيرة.»

بالفعل كانت النوارس تطير دون توقف فوق رؤوسنا من جهة، وفوق القسم الذي يقف الرئيس فوق ضفته من جهة أخرى. هذه الكلمات رفعت الدماء إلى رأس قرش البحر الرئيس.

بدأ يصرخ: امرأة قليلة التربية. هل تتكلم امرأة شابة بهذه الطريقة بحق كبيرها؟ كيف للنوارس أن تهزمني؟ كل ما حل بنا بسبب بلاهتكم، بإنصاتكم للفوضويين أمثال الكاتب القذر. أنا ذاهب، فافعلوا ما شئتم. باتت هذه الجزيرة لا تهمني.»

بناءً على هذه الأقوال، بدأ سكان الجزيرة يتهامسون لأول مرة، ويرمقون نظرات شديدة على الرئيس.

قلت أنا: «ها هي المصيبة تقف أمامكم. هو من كان سبباً في كل شيء. قد دمر هذا الرجل جزيرتنا».

قال بعض الأشخاص من ضمن الحشد: «نعم، صحيح. كان كل شيء جميلاً قبل أن يأتي هذا الرجل».

صرخ كاتب العدل قائلاً: «ليتها لم تطأ قدمك المشؤومة هذه الجزيرة».

ارتبك الرئيس عندما رأى أن الأمور لا تجري على ما يرام. أراد توجيه النقاش نحو لارا مجدداً.

قال: «لم يبق لديك إنسانية يا أيتها السيدة الشابة. إنك تقومين بأعمال تحريضية لتحقيق آمالك السياسية في ظل هذه اللحظة التي يعاني فيها المجتمع مشاكل حياتية. تعاملت طيلة حياتي مع أمثالك من المخربين. أنا أدرى بأكباد أمثالك، يجب على كبد مثلك وزوجك أن تزوروا المكان الذي ذهب إليه ذلك الكاتب الخائن. كما أن القرارات المتخذة في هذه الجزيرة اتخذت بما يتناسب مع الديمقراطية. فعلنا ما كانت تشير إليه أصوات الأكثرية. فمن هذه المنطق، توقيع الجميع واقع تحت هذه القرارات. فليخرج أحدهم ويقول إن هذا لم يحصل. هيا فليتكلم».

حصل شيء لي في تلك الأثناء. شعرت بحرارة ترتفع إلى رأسي، بدأ قلبي يدق بسرعة، وقلت بصوت متصدع من الغضب: «أنا من أقول! أنا أقول يا قرش البحر، أنا أقول يا كبير الظالمين. لا تحاول أن تقص علينا روايات الديمقراطية أيضاً بعد أن خربت كل شيء!»

أعتقد أنها كانت ستضحكني تعابير الدهشة التي قرأتها في وجه الرئيس لو لم أكن غاضباً إلى هذه الدرجة ولو لم يسخن خدي وأذني. غرق الجيران في صمت، بينما ينظرون إلى صديقهم الذي كانوا قد رأوه لأول مرة في حياتهم يغضب، يخرج صوته، ويتحدى. كان قلبي يغلي بمشاعر التمرد، بت جاهزاً لأمشي نحو الموت، كان رأسي يؤلمني، ماذا حصل لي هذا؟

رفع الرئيس يده قائلاً: «اخرس! اقطع صوتك فوراً! وإلا جعلتك تندم لخروجك من بطن أمك».

أصبحت أعرفه جيداً. وتلك النبرة التهديدية لصوته الناعم عندما كان يغضب.

تقدمت لارا إلى أمامي. قالت: «ماذا يمكنك أن تفعل أكثر من ذلك؟ ماذا يمكنك أن تفعل!» هذه المرة تقدمت أنا إلى أمامها، وبدأت أكرر صارخاً الأقوال نفسها. ولكن في تلك اللحظة تماماً خطر ببالي حجم المساوئ التي يمكن أن يقوم بها الرئيس بحق لارا. خفت، وخفت كثيراً. لم أكن أريد في هذه اللحظة سوى أن تسكت لارا، وأن تتخلص من هذه المصيبة. لم أهتم لما كان سيحصل لي ولكن كان من الممكن أن أجن في حال لمسهم للارا. لم يبق أثر من لشجاعتي السابقة، ارتعد قلبي من شدة الخوف.

التفت الرئيس إلى رجاله وأصدر أمراً: «ألقوا القبض على هذين الخائنين بتهمة إهانة رئيس الدولة والتشجيع على التمرد. سيأتون معنا».

اقترب الرجال ذوو النظرات السوداء، أمسكوا بيد لارا في البداية ومن ثم أمسكوني بحزم. جلتُ بناظري على جيراني عاجزاً. هل كانوا ليسمحوا بأخذنا هكذا بعد انتشار أقوال قتل الكاتب. هل كان سيتخلى عنا جيراننا بعد كل هذه السنين؟ ربما كانوا سينقذوننا لو اعترضوا قليلاً. ولكن للأسف لم تتقاطع أنظاري مع أحد منهم. قد أدار الجميع رؤوسهم بالاتجاه الآخر.

ولكن حصل شيء في تلك الأثناء. حدث أمام أعيني أكثر العمليات مرارةً وأكثرها شجاعةً في حياتي.

ركض ابن البقال الأحدب نحو الرئيس بكامل سرعته صارخاً بصوت كنا قد سمعناه لأول مرة في حياتنا حتى إن النوارس قد دهشت أيضاً لصرخته، وجه لكمة في منتصف وجه الرئيس فسقط كلاهما من على الحافة تحت تأثير الصدمة. شاهدنا كيف هوى الجسدان متخبطين في الفراغ، ثم اصطدامهما في الصخور وتهشمهما.

تجمدت دماؤنا، كنا ننظر من على الحافة غير مصدقين لما رأته أعيننا.

هجم ابن البقال الأبكم كقنبلة انتحارية كالنوارس تماماً، ولكن كان له تأثير أكبر منهم. عندما تذكرت كيف كنا نطيّر النوارس عند رأس هذه التلة قبل يومين من الآن جرت الدموع من عيني. تراءى أمام عيني كيف كانت صغار النوارس الهاوية تقفز من صخرة إلى صخرة تتعلم الطيران.

قد سمعنا لأول مرة صوت ذلك الولد المعوق الذي لم يلاحظه أحد، ولم يعتبر من جنس الإنسان، ولكن لا أعتقد أن أحداً سمع تلك الصرخة سينساها أبداً. كانت صرخة محملة بالغضب والتمرد، كانت صرخة مدهشة قد أطلقت في وجه كل شرور العالم وظلمه.

تعالت في تلك اللحظة صرخات البقال وزوجته على نحو مزق الأرض والسماء.

ابتعد رجال الرئيس مرتبكين وبخوف وعلى عجلة من أمرهم من هناك.

بقينا نحن كحشد صغير في الجزيرة جريحين، مكسوري الخاطر، حزينين، وغاضبين. حتى جاءت وحدات الجيش في اليوم التالي، وألقت القبض علينا جميعاً، ونقلتنا إلى السجن الشهير في العاصمة.

أخذتنا الزوارق الهجومية التابعة للسفينة الحربية التي كانت تقف كقلعة في وسط البحر ضمن قوافل على مسافة من الرصيف البحري. قام العسكر بتقييدنا بسلاسل بعضنا مع بعضٍ على ظهر السفينة، كانوا بزي خاكي اللون تعلوهم نظرات صارمة، فغدت وجوههم تأخذ هذا الشكل وكأنها نحتت بالفأس.

جلبت أشلاء الرئيس التي جمعت من على الصخور في تابوت إلى السفينة ضمن مراسم. رمقنا الضباط والعساكر الذين في إمرتهم بنظرات حقد مميتة لدرجة أننا كنا نبذل قصارى جهدنا كيلا تتقاطع أنظارنا عيناً لعين. لم أستطع رؤية لارا؛ إذ وضعوا الرجال والنساء في أماكن منفصلة. كانت يدي اليمنى مقيدة بيد الرقم ١. لم نتكلم معه ولكن كتفيه الهابطتين إلى الأسفل وعينيه اللتين تنظران ككلب تعرض للضرب، كانتا تكشفان ندمه الكبير. كان جيراننا الذين وافقوا الرئيس حينئذٍ ولم ينصتوا إلى أي تحذير، مقيدين مثلنا.

يا لتلك الأحلام التي كانوا يحلمون بها بخصوص الجزيرة. كان سيعم الثراء، والرفاهية، وكانت ستتحقق الحرية في جزيرتنا. الخلاصة قد خسر الجميع. الرئيس، ومن أيده، ومن عارضه ولم يؤيده. لم يكن هناك منتصر. ربما كما قالت لارا، باستثناء النوارس التي ستترك براحتها بعد الآن.

هزمنا لأننا رضخنا ولأننا لم نستطع تخمين إلى أي مدى سيسوء الظلم الذي انجررنا إليه خطوة خطوة. كان يجب علينا أن نتكلم، وأن نتمرد منذ أن قلمت تلك الأشجار ومنذ تعرض ابن البقال البريء للضرب. لم نفعل هذا الشيء. قد قبلنا بكل خطوة خطاها الرئيس بسذاجة عالية. أما النوارس، فكسبت لأنها عارضت ولم تصالح.

في هذه الحالة ألا يجب التساؤل، إن كانت نسب سلالة الإنسان الذي رضخ أذكى أم أن النوارس التي تمردت أذكى؟

ها نحن هنا الآن، ندفع كفارة الذنب الذي اقترفناه. كفارة السماح بخداعنا من قبل رجل، وانجرارنا خلفه بشكل أعمى، كفارة ذنوب نسيان تعريف تمرد الإنسان، والأنانية، وانعدام البصيرة، واللامبالاة، والرضوخ للديكتاتور، والانجرار خلف جشعنا الصغير. هذه حكاية ذنوبي الضئيلة المكونة من تنازلات صغيرة في حياتنا اليومية.

يسألوننا أسئلة دون توقف، يريدون الكشف عن الذين خططوا لهذه العملية.

إني أكتب هذه السطور من زنزانتي المظلمة الرطبة بأيدي موجوعة.

لم أتلق أخباراً عن لارا، لم أعرف ما حصل لها. ولا أعرف إن كان الكاتب موجود في هذا السجن أم لا. لم أكن على دراية بشيء أبداً، أي شيء أبداً.

علمت فقط أن أقاويل غريبة كانت تجول في الأوساط. بحسب ما كان يهمس الناس بعضهم لبعض في قاعة الطعام وفي قاعة الغسيل أو حين يستدعوننا إلى التحقيق، أن الكاتب هارب. هناك من رآه عندما كان على مشارف العودة إلى الجزيرة. في هذه الأيام أراد الكاتب أن يبدأ العيش على الجزيرة من جديد. سيزرع الأشجار مجدداً في الجزيرة. سيشيد المنازل. وكان هناك من سيذهب لمساعدته من أصدقائه القدامى. ستحيا الجزيرة من جديد. وسوف نعود لنعيش مجدداً في الجزيرة. سنعود لنؤسس جنتنا على وجه الأرض مرة أخرى.

إني أحاول عدم تذكر النظرة الأخيرة الجريحة للارا التي رمتها عندما فرقونا عند نزولنا من السفينة. فإذا تذكرت ذلك فمن الممكن أن أصاب بالجنون، وأن أفقد عقلي

فأحطم رأسي بضربه بجدران الزنزانة. ولهذا السبب منعت أفكاري، خدرت نفسي بكل ما للكلمة من معنى.

أخبرونا أن جنازة الرئيس قد أقيمت بمراسم حكومية عالية المستوى. بثت التلفزيونات في نقلٍ حي تلك المراسم، إذ حمل التابوت المصنوع من شجر الأبنوس الملفوف بالعلم، الذي وضعت فيه أشلاؤه المحطمة، بعربة مدفع.

في المراسم، تكلمت المحطات عن بطولات الرئيس والتضحيات التي أخذها على عاتقه من أجل هذه البلاد، وألقت اللعنات على كل الإرهابيين الذي أقسموا على إلحاق كل أنواع الأضرار ببلادنا مثل ابن البقال الذي اعتبر الإرهابي الأول. ولاحقاً، دفن الرئيس في مقبرة الأبطال بينما تذرف دموع عائلته والأمة.

ها هي الذكريات انتهت هنا. لم يبقى أي عمل آخر لأشغل عقلي الذي قد جن متسائلاً ليلاً نهاراً "حبيبتي أين أنت، أين أنت، أين أنت؟"

صديقي العزيز، قلت لي ذات يوم "احكِ روايتك" ناصحاً إياي بمقولة "أنشئ حديقتك" المذكورة في كتاب فولتير للمزارع في إسطنبول الذي قدمها نصيحة لكانديد الذي كان يبحث عن الطمأنينة ، هل تذكر ذلك؟

"اروِ حكايتك فقط!"

وأنا فعلت ذلك.

رويت حكاية فقداننا للجزيرة الأخيرة.

عمر زلفو ليفانلي (١٩٤٦ - ....)

- موسيقي وشاعر وروائي وسياسي تركي.
- حاصل على جائزة بارنز ونوبل عام ٢٠٠٦.
- سُجن بعد الانقلاب العسكري عام ١٩٧١ لنشاطاته السياسية الجريئة.
- عاش متنقلاً بين اليونان والسويد وفرنسا والولايات المتحدة، إلى أن عاد إلى بلده في سنة ١٩٨٤.

محمد سلطان

- مترجم سوري.
- يعد هذا الكتاب أول أعماله المترجمة.

٢٠٢٤م

الجزيرة الأخيرة هي الركن البشري الذي يتحدث عن صفات المدينة الفاضلة، فالجميع في جعبتهم الكثير لفعله، وهم بعيدون عن التقنيات الحديثة. لكن هذا الوضع لا يدوم طويلاً، فالرئيس الانقلابي الذي استقر فيها ليقضي مدة تقاعده، سوف يُزعج سلام سكانها أولئك الذين يعيشون في هذه الجنة المتفردة بجمالها. إنها رواية اجتماعية ذات أبعاد سياسية واسقاطات على الواقع التركي، ولا سيما بعد انقلاب الجنرالات التي حكمت تركيا بتاريخ ١٢ أيلول ١٩٨٠.

www.syrbook. gov.sy
E-mail: syrbook.dg@gmail.com
هاتف: ٣٣٢٩٨١٥ - ٣٣٢٩٨١٦
مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠٢٤ م